ميقات الحج

١٣

مجلة فصلية متخصصة تعنى بالشؤون الثقافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية للحج

- الحج رموز و حكم (١)
- حجة الوداع ... خطب وإرشاد
- توسعة المسعى دراسة فقهية تاريخية بيئية ميدانية
- فقه الحج الضرورات و الحاجات (١)
- علماء الحرم الشريف، نشر النور والزهر نموذجاً
- أبو سعيد الخدري
- أجوبة الاستفتاءات لسماحة السيد علي الخامنئي



بسم الله الرحمن الرحیم

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

میقات الحج المجلد۱۳

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : میقات الحج[پیایند: مجله]

مشخصات نشر : تهران: منظمة الحج و الزیارة، ۱۴۱۷ ق. - = ۱۳۷۵ -

فاصله انتشار : شش ماه یکبار

یادداشت : عربی

فهرست‌نویسی براساس سال۳ شماره۵ سال۱۴۱۷ق.

یادداشت : این نشریه در بیروت نیز منتشر می‌شود

یادداشت : المدیرالمسؤول: محمد محمدی‌ری‌شهری

رئیس‌التحریر: علی قاضی‌عسکر

یادداشت : کتابنامه

ترجمه عنوان : Mighat al - haj

موضوع : حج -- نشریات ادواری

شناسه افزوده : محمدی ری‌شهری، محمد، ۱۳۲۵، -مدیر مسئول

Muhammadi Reyshahri, Muhammad

قاضی عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵، - سردبیر

شناسه افزوده : سازمان حج و زیارت

رده بندی کنگره : BP۱۸۸/۸

رده بندی د... : ۲۹۷/۳۵۷۰۵

ص: ۱

الحجّ فی احادیث الامام الخمینی قدس سره

ص: ٢

ص: ۳

ص: ۴

ص: ۵

العدد الثالث عشر

الحجّ فی أحادیث الإمام الخمینی قدس سره

إنّ حجّاج بیت اللّه الحرام، الـذین یتحررون من قفص البـدن وقیود الـدنیا، ویهاجرون إلی اللّه ورسوله، حیث یصـبح البیت القلب، ولا شیء فیه غیر المحبوب الحقیقی، بل لا شـیء غیره فی الـداخل والخارج. یجب أن یعلموا أنّ الحـجّ الإبراهیمی المحمّدی صـلوات اللّه علیهما وآلهما، مهجور وغریب منـذ سـنین طویلة سواء من الناحیة المعنویة والعرفانیّة أم من الناحیة السیاسـیة والاجتماعیّة، ویجب علی الحجّاج الأعزّاء من سائر الدول الإسلامیة أن یعیدوا الکعبة وبیت اللّه من غربتهما وبجمیع أبعادهما...

إنّ هـذا المؤتمر الـذی ینعقـد بـدعوة من إبراهیم ومحمّـد وآلهما، ویقصـد إلیه من کلّ زوایا الـدنیا، ومن کلّ فجّ عمیق للإجتماع فیه، لأجـل منـافع النّـاس والقیـام بالقسـط، وللاسـتمرار بتحطیم الأصـنام التی بـدأ بتحطیمهـا إبراهیم ومحمّـد، وطواغیت فرعون التی محاها موسی...

إنّفریضـة الحـجّ التی هیلبّیـک بحقّ، وهجرة إلیاللّه إنّمـا هیببرکـة إبراهیم ومحمّـد صـلوات اللّه علیهمـا و آلهما؛ بمعنی «لا» لجمیع الأصنام و الطواغیت و الشیاطین وأبنائهم ..

الحجّ فی أحادیث الإمام الخامنئی

ص: ۶

الحجّ فى أحاديث الإمام الخامنئى

- مدّ ظلّه العالى-

هذه المناسبة الخالدة التى يقدم الحجيج على أدائها، تشكّل بنفسها مجموعة ناطقة معبّرة طافحة بالذكر والنشاط المعنوى والداخلى فى إطار حركة وسعى وتنسيق بناء جماعى.

إنّ الحجّ- بتعاليمه المفعمة بالأسرار والرموز، وبمظاهره الرائعة الجامعة بين العظمة والتذلل، والاقتدار والتواضع، والحركة الداخليّة والخارجيّة- تجسيد لجهاد الإنسان المسلم فى مجالى النفس والعالم باتّجاه تحقيق الحياة الانسانيّة الطيّبة، وتدريب للحاج على واجباته الكبرى فى الحياة.

إنّ المجتمعات البشريّة المختلفة- وهى تعانى اليوم من فراغ روحى وضياع وحيرة من مآس وويلات اجتماعيّة وفرديّة فرضها طواغيت الثروة والقوّة على الساحة العالمية- تحتاج إلى الإسلام وإلى تعاليمه ودروسه الكبرى. وإنّ الدعوة الإسلامية لتجعل عناصر الاستقطاب والنفوذ والأمل، ليس فقط للشعوب التى تحترق بنيران الفقر والاستضعاف، بل وبنفس القدر للشعوب التى تتخبّط فى مستنقعات الفراغ والحيرة والفقر الروحى فى البلدان الثريّة المتطورة. وما تذكره

ص: ۷

الاحصائیات والدراسات من تزاید التوجّه إلی الإسلام بین فئات الشباب وبین کلّ الرافضین لخواء الحیاة المادّیة فی البلدان الغربیّة المتطوّرة، دلیل علی هذا الاستقطاب والنفوذ.

المسلمون بتفهّمهم لهذه الثروة الکبری ومنحها ما یناسبها من وعی، سیکونون قادرین علی أن یخلقوا تحوّلًا حقیقیاً فی حیاتهم، وأن ینقذوا البلدان الإسلامیّة ممّا تعانیه الیوم من ضعف وتبعیة وتخلّف وانحطاط.

عجالة موجزة فی فروض المناسک

ص: ۸

عجالة موجزة فی فروض المناسک

السیّد العلّامة بحرالعلوم

تحقیق: محمّد الإسلامی الیزدی

المؤلّف

هو السیّد محمّد مهدی بن السیّد المرتضی بن السید محمّد الحسینی البروجردی المعروف ب (بحرالعلوم) الطباطبائی من نسل إبراهیم الملقب ب (طباطبا) من ذریّة الحسن المثنی(۱).

ولد بکربلاء المقدّسة لیلة الجمعة فی شوّال سنة ۱۱۵۵ ه، وتوفی بالنجف الأشرف سنة ۱۲۱۲ ه، ودفن قریباً من قبر الشیخ الطوسی رحمه الله.

دراسته:

فی کربلاء تربّی و درس عند والده وفضلاء عصره المقدمات والسطوح وعمره لم یتجاوز الثانیة عشرة، و حضر بعد ذلک خارج الأصول علی والده المرتضی رحمه الله وعلی أستاذ الکلّ الوحید البهبهانی رحمه الله و خارج الفقه علی الفقیه الکبیر الشیخ یوسف البحرانی (صاحب الحدائق) وذلک لمدّة خمسة أعوام حتّی بلغ درجة الاجتهاد.

۱- ۱ أعیان الشیعة ۱۰: ۱۵۸.

ص: ۹

إلى النجف الأشرف:

وسافر إلى النجف الأشرف سنهٔ ۱۱۶۹ ه ليكمل أشواطه الباقيهٔ فى الجهاد والاجتهاد، فحضر دروس أعلامها وهم الشيخ مهدى الفتونى (۱۱۸۳ ه) والشيخ محمّد تقى الدورقى (۱۱۸۶ ه) والشيخ محمّد باقر الهزارجريبى (۱۲۰۵ ه) وغيرهم من الحجج والأعلام، وأصبح قطب رحى العلم والفضيلهٔ فى حين أن عمره المبارك بعد لم يتجاوز الثلاثين.

هو بحر العلوم بحر المعالى فالورى وارد إليه وصادر (۱)

إلى إيران:

سافر إلى إيران، خراسان من سنهٔ (۱۱۸۶– ۱۱۹۳ ه) و حضر درس الفيلسوف الشهير الميرزا مهدى الشهيدى الخراسانى رحمه الله حتّى لقّبه ب (بحر العلوم).

إلى بيت الحرام:

وتشرف لحجّ بيت اللّه الحرام سنهٔ ۱۱۹۳ ه و بقى فى مكّهٔ سنتين أو أكثر؛ ليقيم المشاعر ويركّز المواقيت على ضوء الشرع الصحيح، ويناقش علماء المذاهب الأربعهٔ هناك.

مدرسته:

أمّا تلامذهٔ مدرسته العلميّهٔ التى نشأت على يديه فى النجف الأشرف، فلقد كانوا من عيون العلماء وكبار مفاخر الشيعهٔ وهم كما عدّهم السيد محمّد صادق بحرالعلوم فى مقدّمته على كتاب رجال السيّد بحر العلوم ما يقرب من ثمانين عَلماً، أشهرهم الشيخ أحمد النراقى– صاحب المستند– (۱۲۴۵ ه) الشيخ جعفر كاشف الغطاء (۱۲۲۸ ه) والسيد محمّدجواد العاملى صاحب مفتاح الكرامهٔ (۱۲۲۶ ه)

۱– ۱ رجال السيد بحر العلوم ۱: ۳۴.

ص: ۱۰

والسیّد میر الطباطبائی صاحب الریاض (۱۲۳۱ ه) والسیّد محمّد المجاهد صاحب المناهل (۱۲۴۲ ه) والسیّد محسن الأعرجی الکاظمی صاحب المحصول (۱۲۲۷ ه) والشیخ محمّد تقی الاصفهانی صاحب الحاشیة علی المعالم (۱۲۴۸ ه) (۱).

مؤلّفاته:

للسیّد بحر العلوم ما یقرب من ثلاثةوعشرین مؤلّفاً، والمعروف منها: کتاب المصابیح، والفوائد الرجالیة، والدرّة التحفیة، ورسالة فی مناسک الحجّ والعمرة وهی التی بین یدیک.

آیات الثناء علیه:

لقد شهد لمقامه العلمی المخالف والمؤالف، کیف لا وهو الزعیم الروحی والمرشد إلی طریق التقوی والسلوک والعرفان، والمرجع الدینی المطلق للشیعة علی رأس القرن الثالثعشر للهجرة فی النجف الأشرف.

ومن یراجع کتب التراجم والرجال یجد ما یرشد إلی هذا البحر المحیط.

الرسالة:

وهی مع کونها موجزة ومختصرة فی مناسک الحجّ والعمرة کتبها السیّد بحرالعلوم إجابةً لطلب بعض إخوانه السالکین الناسکین، سهلة المرام، یستفید منها الخاصّ والعام.

ونسختها الخطّیة: هی النسخة الوحیدة المحفوظة بمکتبة المدرسة الفیضیّة برقم (۲۱۸) کتبت علی هامش کتاب المصابیح للسیّد بحرالعلوم رحمه الله وبخطّ نستعلیق.

۱- ۱ رجال السید بحر العلوم ۱: ۶۷.

ص: ۱۱

ونسخة أخرى:

وذکرها العلّامة آقا بزرک الطهرانی بعنوان: «العجالة الموجزةفی فروض الناسک» وهی موجودة عند السیّد جعفر بن علی بحرالعلوم من النجف الأشرف، تاریخ کتابتها ۱۲۳۹ ه (۱).

وتمّ تحقیق الرسالة من الاستنساخ والتقطیع والاستخراج وغیرها بعون اللّه.

۱- ۱ الذریعة إلى تصانیف الشیعة ۱۵: ۲۲۳.

ص: ۱۲

ص: ۱۳

مناسک السید بحر العلوم

بسم اللّه الرحمن الرحیم

الحمد للّهماطاف طائف فی المسجد الحرام، ووقف واقف بالمشاعر العظام، والصلاة والسلام علی مبین مناسک الحج للأنام محمّد وآله الحجج المیامین الکرام.

وبعد: فهذه عجالة موجزة فی فروض المناسک التی مایعذر بجهالتها سالک، قصدت بها إجابة أحد إخواننا السالکین، وفقه اللّه تعالی لارتقاء معارج الیقین، ورتّبتها علی مقدمة، وأبواب، وخاتمة.

أمّا المقدمة: ففی محرمات الإحرام والحرم وجملتها تسعة عشر نوعاً.

الأوّل: صید البر وهو الحیوان الممتنع بالأصالة مما یعیش فی البر ویبیض ویفرخ فیه، وإن عاش فی الماء، حلالًا کان أو حراماً، وإن اختصّ التکفیر بالأوّل وهو محرم مطلقاً (۱).

وعلی المحل فی الحرم، اصطیاداً، أو أکلًا، أو إشارةً ودلالةً واغلاقاً.

الثانی: النساء وطیاً وتقبیلًا ونظراً ولمساً بشهوة، وعقداً له ولغیره وشهادة علیه- وفی معناه الاستمناء بالید- أو الملاعبة أو التخییل أو غیرها.

الثالث: الطیب وهو کلّ مایَطیب ریحه، ویکون معظم الغرض منه التطیّب، فیخرج عنه الفواکه والأبازیر (۲) خلا الزعفران؛ لأنّ الغرض الأصلی منه الأکل والاستعمال فیه، والحناء لأنّ المقصود منها الخضاب والتداوی، وفی الریحان خلاف، والاجتناب أحوط.

وفی ثبوت الکفارة فی غیر

۱- ۱ سواء کان فی الحرم أو فی غیره التوضیح من الکاتب فی الحاشیة.

۲- ۲ الابازیر: التوابل الصحاح للجوهری ۲: ۵۸۹ مادة: بزر.

ص: ۱۴

المسک والعنبر والکافور والزعفران والعود والورس (۱) إشکال، والأقرب العدم.

ویحرم الطیب أکلًا ولو مع الممازجة وبقاء الکیفیة، وتطبباً اختیاراً.

ومع الاضطرار یقبض علی أنفه إن أمکن، ومن الاضطرار طیب الکعبة، إلّاالخلوق فإنه جائز اختیاراً، وهو طیب معروف مرکب من الزعفران وغیره.

وقیل: بجواز زعفرانها وحده أیضاً للمختار وهو قوی.

ویجوز الاجتیاز فی موضع یباع فیه الطیب إذا لم یکتسب منه، ویقبض علی أنفه ویزیل ماأصابه ولو بنفسه علی الأصح والأحوط، أو المحل بها إن أمکن.

الرابع: الإدّهان بالدهن بعد الإحرام مطلقاً اختیاراً، أو قبله بما فیه طیب تبقی رائحته بعده علی الأصح.

الخامس: الاکتحال بما فیه طیب، وبالسواد للزینة اختیاراً، والأحوط اجتنابه مطلقاً.

السادس: النظر فی المرآة علی الأشهر الأظهر (۲) فإن نظر فلیُلَبِّ.

السابع: إخراج الدم اختیاراً علی المشهور (۳) ولو بالاستیاک، وحکّ الجلد، وقیل: بالکراهة، والأوّل أظهر.

الثامن: قصّ الأظفار ومافی معناه إلّا إذا انکسر ظفر وآذاه، فیجوز له الإزالة، ویطعم مکان ظفر قبضةً من طعام.

التاسع: إزالة الشعر عن الرأس واللحیة أو غیرهما بالحلق أو القص أو الطَلّ، أو غیرها قلیلًا کان أو کثیراً اختیاراً، ویجوز مع الضرورة، ولا یسقط بها الفدیة، ولو وقع شیء من شعره بمسه فی الوضوء، أو الغسل أو التیمم أو إزالة الخبث، لم یجب علیه شیء علی الأصح، ولو قطع عضواً علیه شعر جاز، ولا یلزمه شیء.

العاشر: لبْسُ المخیط للرجال ولو کانت خیاطته قلیلة علی إشکال، إلّا فی الضرورة فیجوز، ولا یسقط به الفدیة إلّافی لَبْس السراویل لفاقد

۱- ۱ الورس: نبت أصفر یکون بالیمن یتخذ منه الحمرة للوجه الصحاح للجوهری ۳: ۹۸۸ مادة: ورس.

۲- ۲ مختلف الشیعة ۴: ۱۰۳.

۳- ۳ مختلف الشیعة: ۴/ ۱۰۳.

ص: ۱۵

الآزار، فإنه یجوز من غیر فداء، وفی التوسّخ ومایشبهه إشکال، والاجتناب أحوط.

الحادی عشـر: لُبس مایستر ظهر القدم بتمامه کالخف والجورب، ویجوز لَبس مایستر البعض کالنعل، والستر بغیر اللَبس ولو بالملبوس، ومنه الالتحاف والتوسد: ولا بأس بلبس النعال المخصوفة، ولو صدق علیها اسم المخیط.

الثانی عشر: لُبس الخاتم للزینة علی المشهور، وقیل یکره.

والأوّل هو الأصح، ویجوز لُبسه للسنّة قولًا واحداً (۱).

الثالث عشـر: تغطیة الرأس أی مافوق الوجه بثوب أو طین أو دواء أو حناء أو حمل متاع أو غیر ذلک، ولو بالارتماس فی الماء أو غیره کلًا أو بعضاً، إلّابما هو منه، کَیَدِهِ فإنه یجوز أن یستتر بعض جسده ببعض، أو بما لابدّ منه فی العادة کما فی النوم، والأقرب دخول الاذنین فی الرأس فلا یجوز تغطیتهما، وکما تحرم التغطیة ابتداءً تحرمُ استدامةُ، وهل یجب علی الناسی تجدید التلبیة دون الالقاء؟ الأظهر أنه مستحب...

الرابع عشـر: التظلیـل للرجـل السـائر اختیاراً، ویجوز التظلیل فی المنزل إجماعاً، والمشـی تحت الظلال فی الطریق، ولو بحیث یصـیر ذو الظل فوق رأسه علی الأقرب، والأحوط ترکه فی الطریق مطلقاً.

الخامس عشر: لُبس السلاح اختیاراً علی الأشهر الأظهر (۲).

السـادس عشـر: قتـل هوام الجسـد بـل قتـل الحیوان مطلقـاً إلّاالموذیات، ولا یجوز إلقاء القمل بل کلّ ماکان فی الجسـد، ویجوز النقل والتحویل وإلقاء مالیس من هوام الجسد، کالقراد والحَلَم (۳) وغیرهما.

السابع عشر: الفسوق، وهو الکذب والسباب، وفی صحیحة علی ابن جعفر «إنه الکذب والمفاخرة» (۴).

الثامن عشر: الجدال وهو قول:

لا واللّه وبلی واللّه، ویختصّ المنع بهذه الصیغة، فلا جدال بمثل لا عمری

۱- ۱ غایة المراد ۱: ۳۹۷.

۲- ۲ مختلف الشیعة ۴: ۱۰۵.

۳- ۳ الحَلَم: هو القراد الکبار واحدته حلمة حیاة الحیوان ۱: ۲۳۷.

۴- ۴ التهذیب ۵: ۲۹۷. تفصیل وسائل الشیعة ۱۲: ۴۶۵ ح ۴ باب ۳۲ أبواب تروک الاحرام.

ص: ۱۶

وبلی العمری.

وفی روایة هو قول: الرجل «لا واللّه وبلی واللّه وسباب الرجل الرجل» (۱).

التاسع عشر: قطع شجر الحرم وحشیشه لا النخل وشجر الفواکه.

الباب الأوّل

فی ماهیة التمتع:

وصورته أن یحرم من المیقات بالعمرة المتمتع بها إلی الحج فی وقته، ثم یطوف لها بالبیت سبعاً، ثم یصلی رکعتی الطواف، ثم یسعی لها بین الصفا والمروة، ثمّ یُقصّر، ثم یحرم من مکة للحج، ثم یمضی إلی عرفة، فیقف بها إلی الغروب یوم عرفة، ثم یفیض إلی المشعر، فیقف به بعد طلوع الفجر، ثم یمضی إلی منی، فیرمی جمرة العقبة یوم النحر، ثم یذبح أو ینحر هدیه، ثم یحلق أو یقصِّر، ثم یمضی فیه أو فی غده إلی مکة، فیطوف للحج ویصلی رکعتیه ویسعی للحج ویطوف طواف النساء ویصلی رکعتیه، ثم یمضی إلی منی، فیبیت بها لیالی التشریق، وهی لیلة الحادیعشر، والثانی عشر، والثالث عشر.

ویرمی فی هذه الأیام الجمار الثلاثة، یَبْدَأُ بالأولی، ثم الوسطی، ثم العقبة.

ولمن اتقی النساء والصید فی إحرامه أن ینفر فی الثانی عشر، فیسقط عنه رمی یوم الثالث عشر والمبیت لیلته، ولا یجب فی التمتع غیر ماذکر علی المشهور (۲).

وقیل: بل یجب فی عمرة التمتع طواف النساء، کما فی المفردة، وهو شاذ، ومستنده ضعیف.

والأرکان من هذه الأفعال للعمرة، الاحرام والطواف والسعی، وللحج الإحرام والوقوفان وطواف الزیارة والسعی.

والرکن منها مایبطل بترکه النسک عمداً لا سهواً، ویختصّ الوقوفان منها بالبطلان بفواتهما مطلقاً، ولوفاته أحدهما فإن کان الوقوف بالمشعر مطلقاً بطل حجه، وإلّا صحَّ،

۱- ۱ تفصیل وسائل الشیعة ۱۲: ۴۶۷ ح ۸ باب ۱۳۲ أبواب تروک الاحرام.

۲- ۲ مختلف الشیعة ۴: ۳۲۳.

ص: ۱۷

وإن کان اضطراری المشعر وحده علی الأصح.

والمعتمر یحلّ بالتقصیر من کلّ شیء- أی محرّم الإحرامی دون الحرمی- علی المشهور، ومن غیر النساء علی القول بوجوب طوافهن علیه، فیحل به منهن.

والحاجّ یحلّ بالحلق أو التقصیر من کلّ شیء إلّاالطیب والنساء والصید، وهو التحلیل الأوّل، فإذا طاف طواف الزیارة، وسعی بین الصفا والمروة حلّ الطیب، وهو التحلیل الثانی. فإذا طاف طواف النساء حلّ منهنّ ومن الصید الإحرامی دون الحرمی، وهو التحلیل الثالث.

الباب الثانی

فی تفصیل أفعال العمرة المتمتع بها إلی الحج وهی خمسة:

الأوّل: الإحرام والواجب فیه ثلاثة:

الأوّل: النیة المعینة لکونه إحرام عمرة متمتع بالأصالة، أو النذر لنفسه، أولغیره، أداءً و قضاءً تقرباً إلی اللّه تعالی.

الثانی: التلبیات الأربع وصورتها: «لَبَّیک، اللّهُم لبّیک، لبّیک، لا شریک لکَ لَبّیکَ» والأحوط أن یضیف إلیها بعد الأربع «إنّ الحمدَ والنعمةَ لکَ والملک، لا شریک لک لبّیک».

والأولی أن یوسطه بین الأخیرتین أیضاً بإسقاطه التوحید بعد الثالثة، فیقول: «لبّیک اللّهم لبّیک، لبّیک، إنّ الحمدَ والنعمةَ لک والملک، لا شریکَ لکَ لبّیک» کما ذکره جماعة من الأصحاب (۱)، ولو اقتصر علی الأول کان مجزیاً.

الثالث: لَبْس ثوبی الإحرام یتزر بأحدهما ویتوشح بالآخر، أو یرتدی به، ونُهی عن عقده وشدّه بشیء منفصل عنه، وروی الطبرسی فی الاحتجاج: أنّ محمد بن عبداللّه بن جعفر الحمیری کتب إلی صاحب الأمر علیه السلام یسأله: هل یجوز أن یشدّ علیه مکان العُقَد تکة؟ فأجاب علیه السلام:

«لا یجوز شدُّ المیزر بشیء سواه من تکة أو غیرها» (۲).

۱- ۱ مختلف الشیعة ۴: ۸۰.

۲- ۲ الاحتجاج للطبرسی ۲: ۵۷۴.

ص: ۱۸

وکتب أیضاً یسأله: أیجوز أن یشدّ المیزر علی عقبه بالطول، أو یرفع من طرفیه إلی حقویه، ویجمعهما فی خاصریه أو یعقدهما ویخرج الطرفین الأخیرین بین رجلیه، ویرفعهما إلی خاصریه ویشدّ طرفه إلی ورکیه، فیکون مثل السراویل یستر ماهناک، فإن المیزر الأول کنا نتزر به إذا رکب الرجل جمله انکشف ماهناک، وهذا أستر؟

وأجاب علیه السلام: «جاز أن یتزر الإنسان کیف شاء إذا لم یحدث فی المیزر حدثاً بمقراظ ولا إبرة یخرجه به عن حد المیزر وغرزه غرزاً (۱) ولم یعقده، ولم یشدّ بعضه ببعض، وإذا غطّی السّرّة والرکبة کلیهما، فإنّ السنة المجمع علیها بغیر خلاف تغطیة السرة والرکبتین، والأحبّ إلینا والأکمل لکل أحدٍ شدّه علی سبیل المألوفة المعروفة للناس جمیعاً إن شاء اللّه تعالی» (۲).

ویشترط فیهما مما یجوز فیه الصلاة من حیث النوع والوصف، ولا یجوز بالحریر، والجلد الغیر المأکول، ولا فی النجس، فإن أصابته نجاسة غسله فوراً، ویجوز الزیادة علیهما مراعیاً للشرط، وکذا الإبدال، والأفضل الطواف فیما أحرم فیه، ومع فقدهما یلبس القبا منکوساً.

ومحل الإحرام للمار علی طریق المدینة کما هو الشائع فی هذا الزمان (ذو الحُلَیفة)، ولا یجزی الإحرام من غیر المسجد علی الأقوی وهو وادٍ علی ستة أمیال من المدینة- والسقایف الحادثة خارجة عنه، فلا یصح الإحرام منها، والأحوط الإحرام من مسجد الشجرة، وهو ببطن الوادی، بالقریب من الآبار المعروفة (بآبار علی).

والجانب القبلی منه موضع یظن بعض الناس أنه المسجد ولیس به، فإنما هو معرّس (النبی صلی الله علیه و آله) وهو:

الموضع الذی یستحب النزول فیه للراجع علی طریق المدینة.

والسقایف الحادثة خارجة عن المسجد، فینبغی الإحرام من وسطه،

۱- ۱ غرز الإبرة فی الشیء غرزاً وغرّزها: أدخلها لسان العرب ۵: ۳۸۶.

۲- ۲ الاحتجاج للطبرسی ۲: ۵۷۳.

ص: ۱۹

وفی وجوب التلبیهٔ فی محل الإحرام، ومقارنهٔ النیهٔ لها إشکال.

والأحوط أن یلبّی فیه سرّاً مقارناً بینهما وبین النیهٔ، ثم یجهر بها إذا بلغ البیداء، ویقطع التلبیهٔ إذا شاهد بیوت مکهٔ، وحدّها عقبهٔ المدنیّین، ومع الاشتباه، فالأحوط تعجیل القطع.

والأحوط فی الحج أن یُلبی فی مکهٔ سرّاً وفی المدعی سرّاً وجهراً، وإذا أشرف علی الأبطح جهراً.

الثانی: الطواف وواجباته عشرهٔ:

الأوّل: الطهارهٔ من الحدث والخبث عن الثوب والبدن، والظاهر العفو عن دم القروح والجروح اللّازمهٔ دون مانقص علی الدرهم.

الثانی: ستر العورهٔ.

الثالث: الختان.

الرابع: النیهٔ المعینهٔ مع القربهٔ.

الخامس: العدد وهو سبعهٔ أشواط، فلو نقص عنها أو زاد ولو خطوهٔ بطل.

السادس: البدأهٔ بالحَجَر الأسود والختُم به، ولابدّ من الابتداء بأول الحجر والانتهاء إلی حیث ابتدأ منه، ولو أدخل جزءاً من باب المقدمهٔ مع استصحاب النیهٔ وقصد الابتداء من حیث یحاذی صحَّ، ولا یلتزم الزیادهٔ کما فی إدخال جزء من الرأس فی غسل الوجه.

السابع: جعل البیت علی یساره.

الثامن: خروجه بکله عن البیت.

التاسع: إدخال الحجر فی الطواف.

العاشر: کونه بین البیت والمقام مع اعتبار قدره من المسافهٔ فی الجوانب کلها والمقام، وهو الحجر الذی علیه أثر القدم الشریفهٔ، لا البناء.

الثالث: صلاهٔ الطواف:

وهی رکعتان بعده فی مقام إبراهیم علیه السلام حیث هو الآن اختیاراً، فإن تعذّر صلّی خلفه، أو فی أحد جانبیه مع تحری الأقرب، والخلف أحوط.

والمقام هنا، البناء دون الصخرهٔ،

ص: ۲۰

ویتخیر فیهما بین الجهر والإخفات.

الرابع: السعی وواجباته ثلاثة:

الأول: النیة المعینة مع القربة.

الثانی: البدأة بالصفا بحیث یلاصقه بالمروة بحیث یلاصقها أصابعه.

والأحوط اعتبار اللصوق فی الرجلین معاً فیهما، ولا یجب الصعود علی الدرج وإن کان أولی.

الثالث: رعایة العدد وهو سبعة أشواط من الصفا إلیه شوطان.

الخامس: التقصیر:

والواجب فیه المسمی أی إزالة شیءٍ من الشعر، أو الأظفار بحدید أو بغیره.

الباب الثالث

فی تفصیل أفعال حجّ التمتع وهی اثنا عشر فعلًا:

الأوّل: الإحرام ووقته مابین فراغ الحاج من عمرة التمتع إلی أن یضیق وقت الوقوف بعرفة، وأفضل أوقاته یوم الترویة عند الزوال، ومحله مکة لا غیر، وأفضل المواطن المسجد، وأفضله المقام والحجر، ویجب فیه ما یجب فی إحرام العمرة.

الثانی: الوقوف بعرفة، ویجب فیه النیة لکونه بعد تحقّق الزوال أحوط، والکون بها إلی الغروب اختیاراً، فلو أفاض قبل الغروب عالماً عامداً فعلیه بدنة، وإن لم یقدر صام ثمانیة عشر، ولو عاد قبل الغروب لم یلزمه شیء.

والرکن منه مسمی الکون فیما بین الزوال والغروب، فإن لم یتمکن تدارکه ولو قبل طلوع الفجر یوم النحر، فإن لم یتمکن، أو تردّد فیه اجتزأ بالمشعر.

الثالث: الوقوف بالمشعر، والواجب منه فی حقّ المختار مسمی الوقوف بین طلوع الفجر وطلوع الشمس یوم النحر، فلو أفاض قبل طلوع الفجر اختیاراً أثِمَ، وصحّ حجّهُ، ویجب علیه الجبران بشاةٍ علی الأصحّ.

فالرکن منه للمختار مسمی الوقوف من غروب الشمس لیلة

ص: ۲۱

النحر إلى طلوع الشمس، ويجزى للمضطر مسمى الوقوف بعد طلوع الشمس إلى الزوال يوم النحر، وقيل: إلى الغروب وهو ضعيف (۱).

الرابع: رمى جمرة القصوى وهى العقبة، وهو واجب على الأصح، ووقته يوم النحر مقدماً على النحر والهدى.

ويجب فيه النية، ورمى سبع حصيات حرمية أبكاراً بما يسمى رمياً، وإصابة الجمرة بها بفعله، والتفريق فى الرمى دون الوقوع.

الخامس: الهدى وهو واجب على من وجده، ويجب فيه النية، وكون الذبح أو النحر بمنى، ووقوعه بعد الرمى قبل الحلق، أو التقصير، فلو أخلّ أثم وصحّ.

واجتماع أوصاف الهدى، وهى كونه من النعم الثلاث، فمن الإبل مادخل فى السادسة، ومن البقر والمعز مادخل فى الثانية، والأحوط مادخل فى الثلاثة، ومن الضَأنِ يجزى الجَذَعُ لسنة، وهو مالم يدخل فى الثانية، والأحوط أن يكون له ستة أشهر فصاعداً، وأن لا ينقص عن واحد إلّا مع الاضطرار فيجوز الاشتراك فيه، وأن لا يكون ناقصاً، فلا تجزى العوراء، ولا العرجاء، ولا المقطوعة الاذنِ، ولا الخصىُّ، وأن لا يكون مهزولًا، ولا يعتقد كونه كذلك، فلو اعتقد سميناً ثم بان مهزولًا، ولا مهزولًا ثم بان سميناً أجزأ عنه على الأصح.

وفى وجوب الأكل من الهدى، والإطعام منه خلاف، والمشهور الاستحباب (۲)، والوجوب مع التمكن قوى.

ولا يجب قسمته أثلاثاً، وفاقد الهدى إن وجد ثمنه خلفه عند من يشترى له طول ذى الحجة، وإلّا صام كما فى الآية ثلاثة أيام فى الحج وسبعة بعد الرجوع (۳).

السادس: الحلق والتقصير، ووقته يوم النحر بمنى بعد الذبح قبل الطواف ويتعين الحلق على الصرورة، والمُلَبِّد، والمُعَقِّصِ على الأصح، والتقصير فى حق النساء.

۱- ۱ مختلف الشيعة ۴: ۲۶۴ و ۲۶۸.

۲- ۲ مختلف الشيعة ۴: ۲۹۴.

۳- ۳ سورة البقرة: الآية ۱۹۶.

ص: ۲۲

السابع: طواف الزيارة.

الثامن: ركعتاه.

التاسع: السعى بين الصفا والمروة.

العاشر: طواف النساء.

الحادى عشر: ركعتاه.

ويعتبر فيها مايعتبر فى طواف العمرة وصلاته، وسعيه، والترتيب فيها بينهما فلا يجوز تقديم السعى على طواف الزيارة، ولا تقديم طواف النساء عليه، وكذا بينهما وبين ماتقدّم عليهما، فلا يجوز تقديم الطوافين والسعى على الوقوفين ومناسک منى إلّا مع الضرورة، فيجوز فى الجميع على الأصح.

الثانى عشر: العود إلى منى لبقيةِ المناسک قبل غروب الشمس، فيبيت بها ليالى التشريق الحادى عشر والثانى عشر، والثالث عشر لمن لم يتق الصيد والنساء فى حجه، أو غربت الشمس عليه يوم الثانى عشر بمنى، وإلّا جاز له الاقتصار على الأولين، ولو بات فى غيرها وجب عليه من كلّ ليلة شاة إلّاإذا بات بمكة مشتغلًا بالعبادة، أو خرج من منى بعد انتصاف الليل.

ويجب عليه أن يرمى كلّ يوم من أيام التشريق الجمار الثلاثة مراعياً لشرائط الرمى المتقدمة، والترتيب يبدأ بالأولى ثم الوسطى، ثم يختم بالعقبة، ووقته من طلوع الشمس إلى غروبها، وبعد الزوال أحوط على الأصح الأشهر، ولا يجوز الرمى ليلًا إلّا لعذر، ولو بات مع عدم الوجوب أو ترک معه ففى وجوب الرمى إشكال.

أمّا الخاتمة

ففيها بحثان:

البحثالأوّل: فى لوازمالمحظورات:

محرمات الإحرام منها مالا يوجب فساداً، ولا كفارة، وهو الإدهان بغير الطيب على ماصرح به جماعة، والطيب الذى لا يدهن به كما هو ظاهر قول بعضهم، والمشهور أنه يوجب الكفارة (۱).

ومنها مايوجبهما معاً وهو

۱- ۱ مختلف الشيعة ۴: ۱۹۲.

ص: ۲۳

الجماع فی إحرام الحج قبل الوقوف بالمشعر، وفی العمرة قبل السعی مع العلم بالتحریم، وذکر الإحرام فإنه یجب به الکفارة وهی بدنة، وقضاء النسک من قابل حجّاً کان أو عمرة، وعلیه إتمام ماأفسده مطلقاً، وفی حکم الجماع الاستمناء علی قول قریب قوی (۱).

ومنها مایوجب الکفارة خاصة دون الفساد وهو أقسام:

الأوّل: مایوجب الکفارة مطلقاً مع العلم بالحکم والجهل، وتذکر الإحرام ونسیانه، وهو الصید لا غیر.

الثانی: مایوجبهما بشرط التعمد والعلم بالحکم مطلقاً من غیر فرق بین المختار والمضطر، وهو لَبْسُ المخیط وإزالة الشعر وتقلیم الأظفار، والإدهان بالطیب.

الثالث: مایوجبهما کذلک علی المختار خاصة، کالتظلیل ولَبْس ما یستر ظهر القدم علی قول (۲)، والأحوط ثبوت الکفارة فی جمیع المحرمات حتی الإدهان، وأنها لا تختصّ بالمختار فی شیء منها إلّا مایجری فیه الاضطرار کالفسوق والجدال والتزین؛ لقول الکاظم علیه السلام لأخیه علی بن جعفر: «لکلّ شیء خرجت من حجک فعلیک دم تهریقه» (۳).

وقول الصادق علیه السلام فی روایة عمر ابن یزید فیمن عرض له الأذی أو وجع، فتعاطی مالا ینبغی للمحرم إذا کان صحیحاً: «فالصیام ثلاثة أیام، والصدقةعلی عشرة مساکین یشبعهم الطعام، والنسک شاة یذبحها فیأکل ویطعموإنماعلیه واحد من ذلک» (۴).

وقد تجب الکفارة مع إباحة الفعل للمحرم اختیاراً عند بعضهم کما فی قلع الضرس (۵) وهو أحوط، ولبیان مقادیر الکفارات وتفاصیلها محل آخر.

البحث الثانی

من فاته الحج سقط عنه أفعاله، ویتحلل بعمرةٍ مفردةٍ، وعلیه الحجّ من

۱– ۱ مختلف الشیعة ۴: ۱۷۱.

۲– ۲ المقنعة: ۴۳۴.

۳– ۳ قرب الاسناد: ۱۰۴، تفصیل وسائل الشیعة ۱۳: ۱۵۸ ح ۵ باب ۸ أبواب بقیة کفارات الاحرام.

۴– ۴ تفصیل وسائل الشیعة ۱۳: ۱۶۶ ح ۲ باب ۱۴ أبواب بقیة کفارات الاحرام.

۵– ۵ النهایة: ۲۳۵، مختلف الشیعة ح: ۱۹۳.

ص: ۲۴

قابل إنْ استقرّ فی ذمته.

ولیکن هذا آخر ما أوردناه فی هذه الرسالة.

ثمّ الرجاء من کاتب هذه الأوراق إلی ناظرها أن یذکره فی تلک المشاعر.

الهوامش:

جهة القبلة

ص: ۲۶

جهة القبلة

العلّامة الشيخ البهائی

تحقيق: هادی القبيسی

الحمد للّهالذی عرّفنا نفسه، وألهمنا شكره، ووفّقنا لطاعته، وهدانا إلی قِبلته، والصلاة والسلام علی خاتم رسله والأئمّة من آله، المنقِذِين من الضلال، والهادِين إلی الحقّ.

وبعد،

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: بُنِی الإسلام علی خمس: علی الصلاة، والزكاة، والحجّ، والصوم، والولاية. الحديث (۱).

وقال عليه السلام لسلمان بن خالد: ألا أُخبرك بالإسلام، أصله وفرعه وذروة سنامه؟ قال: بلی جعلت فداك؛ قال: أمّا أصله فالصلاة، وفرعه الزكاة، وذروة سنامه الجهاد (۲).

وقال أمير المؤمنين علیٌّ عليه السلام فی وصيّته للحسن عليه السلام: اللّه اللّه فی خير العمل فإنّها عمود دينكم (۳).

فأوّل الأعمال وخيرها وأساسها الصلاة التی تشكّل العامل الأساسی فی رُقیّ الروح، وصفاء النفس، وطهارة السريرة، وعلوّ الدرجات، كما قال

۱- ۱ الوسائل ۱: ۱۳ باب ۱ من أبواب مقدّمات العبادات ح ۱.

۲- ۲ الوسائل ۱: ۱۴ باب ۱ من أبواب مقدّمات العبادات ح ۳.

۳- ۳ الفقيه ۴: ۱۹۰ باب رسم الوصيّة ح ۵۴۳۳.

ص: ۲۷

النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم:

«من حبس نفسه فی صلاة فریضة فأتمّ رکوعها وسجودها وخشوعها ثمّ مجّد اللَّه عزّ وجلّ، وعظّمه، وحمده، حتّی یدخل وقت صلاة أُخری لم یلغ بینهما، کتب اللَّه له کأجر الحاجّ المعتمر، وکان من أهل عِلِّیّین» (۱).

فالصلاة من أجلی مصادیق تجسید العبودیة المتمحّضة للمولی جلّ وعلا، فکلّ فِعل من أفعال الصلاة یعطی معنًی من معانی العبودیّة، فالسجود من أعظم مراتب الخضوع وأحسن درجات الخشوع والاستکانة، والرکوع یُظهر تواضع العبد واعترافه بعلوّ مرتبة ربّه، والقیام أیضاً یذکّر بالقیام بین یدَی اللَّه عزّ وجلّ، وأنّه أمام مَلِک جبّار.

وکذا الحال فی التوجّه إلی القِبلة، فإنّه فی الحقیقة توجّه إلی اللَّه عزّوجل، فلا بُدّ أن یکون العبد متأدبّاً أمامه؛ لأنّ التوجّه بالبدن یهیّئ القلبَ إلی الانقطاع للَّه تعالی، لأنّا إنْ لم نتوجّه بقلوبنا وأبداننا یصرف اللَّه وجه رحمته عنّا.

ویؤیّده قول الصادق علیه السلام: «إذا استقبلت القبلة فآیس من الدنیا وما فیها، والخلق وما هم فیه، واستفرغ قلبک عن کلّ شاغل یشغلک عن اللَّه تعالی، وعاین بسرّک عظمة اللَّه تعالی، واذکر وقوفک بین یدیه هُنَالِکَ تَبْلُوا کلّ نفس ما أسلفت ورُدّوا إلی اللَّه مولاهم الحقّ (۲)

، وقف علی قدم الخوف والرجاء» (۳).

ثمّ إنّه وقع الخلاف بین علماء الإسلام فی کیفیة التوجّه إلی القِبلة من بعید، وفی العلامات المؤدّیة إلی جهتها.

فهذه الرسالة معقودة لبیان هذا الغرض المهمّ.

وفی کلّ حقبة من الزمن تبرز شخصیّات فذّة عظیمة الشأن یشار إلیها بالبَنان، قد تجلّت فیها المواهب الحمیدة، والطبائع الکریمة، والهمم العالیة، والنفوس الزاکیة، فعاشت برهة من الزمن وغابت أشخاصها عنّا، إلّاأنّها لا زالت تعیش فی قلوبنا وأفکارنا، فی محافلنا وأقلامنا العلمیة، بل فی کلّ کتاب

۱- ۱ الفقیه ۱: ۲۱۱ باب فضل الصلاة ح ۶۴۲.

۲- ۲ یونس ۵: ۳۰.

۳- ۳ مصباح الشریعة: ۹۱.

ص: ۲۸

وقرطاس، وكأنّها خُلقت لأكثر من زمانها التى عاشت فيه.

وليس ببعيد هذا، لأنّها كرّست كلّ جهودها وطاقاتها لخدمة المذهب الشريف والدين الحنيف، فقد أنارت الدرب وخطّت لنا نهجاً نسير عليه، ويحق لنا أن نقول: إنّها عاشت لغيرها أكثر ممّا عاشت لأنفسها.

ومن هؤلاء الأفذاذ شيخنا المترجَم، العالِم الأوحد، عَلَم الأئمّة الأعلام، عضد الإسلام والمسلمين، الشيخ محمد بن الحسين بن عبد الصمد بن محمّد الجبعى العاملى الهَمْدانى، نوَّر اللَّه مرقده.

ولا يسعنا المجال بهذا المختصَر ذِكر إنجازاته وخدماته فى الحقول العلمية والعملية، بل نحيل القارئ الكريم إلى المصادر المعقودة لهذا الغرض.

وكما سيأتى أنّ مصنّفاته كثيرة وفى كلّ فنون الإسلام. فمن جملة مصنَّفاته هذه الرسالة التى بين يديك عزيزى القارئ.

ترجمة المؤلّف

المترجِمون لشيخنا الجليل كثيرون، ولا أُريد أن أستوعب حياته الفذّة، لئلّا يطول بنا المقام، وإنّما أذكرها على سبيل الاختصار، وقد وقفت قليلًا على بعض النقاط المهمّة فى حياته قدس سره.

اسمه ونسبه:

هو الشيخ الجليل بهاء الدين، محمّد بن الحسين بن عبد الصمد بن محمّد بن علىّ بن الحسين بن صالح الحارثى الهَمْدانى الجبعى العاملى، نسبةً إلى الحارث الهَمْدانى، من خواصّ أمير المؤمنين الإمام علىّ بن أبى طالب عليه السلام (۱).

ولادته ونشأته:

وُلِد فى بعلبك- وقال أبو المعالى الطالوى: إنّه وُلد بقزوين- يوم الخميس لثلاث عشرة بقين من شهر محرم الحرام- وفى السلافة عند غروب الشمس يوم

۱- ۱ أمل الآمل ۱: ۱۵۵، سلافة العصر: ۲۸۹- ۳۰۲، لؤلؤة البحرين: ۱۶، روضات الجنّات ۷: ۵۶، الأعلام ۶: ۱۰۲، أعيان الشيعة ۹: ۲۳۴، رياض العلماء ۵: ۸۸.

ص: ۲۹

الأربعاء، لثلاث بقين من ذی الحجّة الحرام- سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة (۱).

ثمّ انتقل به والـده وهو صـغير إلى بلاد العجم، فنشأ فی حجره بتلك الأقطار المحميّة، وأخذ عن والده وغيره من الجهابذة، حتّى أذعن له كـلّ مناضل ومنابـذ، فلمّا اشـتدّ كاهله، وَصَـِفَتْ له من العلم مناهله، وُلِّی بها شـيخ الإسـلام، وفوِّضت إليه أُمور الشـريعة الغرّاء، على صاحبها وآله الصلاة والسلام.

ثمّ رغب فی الفقر والسـياحة، واسـتهبَّ من مهـابِّ التوفيق ريـاحه، فترك تلـك المناصب، ومال لِما هو لحاله مناسب، فقصـد بيت اللّه الحرام، وزيارة النبیّ وأهل بيته الكرام، عليهم أفضل الصلاة والتحيّة والسلام، ثمّ أخذ بالسياحة، فساح ثلاثين سنة .. فإلى القدس مروراً بمصر، وإلى الحجاز ثمّ حلب، وإلى قزوين وغيرها من بلاد إيران، ثمّ رجع إلى إصـفهان محتداه، وأُوتی فی الدنيا حسـنة وفی الآخرة حسـنة، واجتمع فی أثنـاء ذلـك بكثير من أربـاب الفضـل والحـال، ونال من فيض صـحبتهم ما تعـذّر على غيره واسـتحال، ثمّ عاد إلى مسكنه إصبهان، وهناك همى غيث فضله وانسجم، فألَّف وصنَّف، وقَرّط المسامع وشنَّف (۲).

أُسرته:

عاش شيخنا البهائی وسط أُسرة علمية، شريفة، كريمة، عريقة، حافلة بالمفاخر.

فوالده:

الشـيخ عزّ الدين، الحسين بن عبد الصمد بن محمّد الحارثی الهَمْدانی الجبعی العاملی، كان عالماً ماهراً، محقّقاً، مدقّقاً، متبحّراً، جامعاً، أديباً، مُنشـئاً، شاعراً، عظيم الشأن، جليل القدر، ثقة ثقة، من فضـلاء تلامذة شـيخنا الشـهيد الثانی رحمه الله، له مناظرة لطيفة مع فضـلاء حلب (۳).

وجدّه:

الشيخ عبد الصمد بن محمّد بن علیّ الجبعی العاملی، كان فاضلًا عالماً (۴)،

۱- ۱ يقول الميرزا الأفندی رحمه الله فی رياض العلماء ۵: ۹۷: ورأيت بخطّ بعض الأفاضل- نقلًا عن خطّ البهائی- أنّ مولده سنة ۹۵۱.

۲- ۲ سـلافة العصر: ۲۸۹- ۳۰۲، عنه أمـل الآمل ۱: ۱۵۷- ۱۵۸، روضـات الجنّات ۷: ۶۲، لؤلـؤة البحرين: ۲۲، أعيان الشـيعة ۹: ۲۳۹، رياض العلماء ۵: ۹۱، الأعلام ۶: ۱۰۲.

۳- ۳ أمل الآمل ۱: ۷۴، الأعلام ۲: ۲۴۰، وقد طُبعت مؤخراً.

۴- ۴ أمل الآمل ۱: ۱۰۹، عنه رياض العلماء ۳: ۱۲۸.

ص: ۳۰

وقد عبّر عنه الحرّ فی ترجمهٔ ولده الحسین ب: الشیخ الصالح، العالم العامل، المتّقی المتفنّن، خلاصهٔ الأخیار.

وجدُّ أبیه:

وهو الشیخ شمس الدین محمّد بن علیّ بن الحسین بن صالح الجبعی العاملی، فاضل، جدّ الشیخ حسین بن عبد الصمد العاملی، وقد أثنی علیه الشهید الثانی قدس سره فی إجازته لابن ابنه (۱).

وعمّه:

الشیخ نور الدین أبو القاسم علیّ بن الشیخ عبد الصمد بن الشیخ شمس الدین محمّد الجبعی العاملی، فاضل، عالم، جلیل، فقیه شاعر، من تلامذهٔ الشهید الثانی قدس سره، له رسالهٔ «الدرّهٔ الصفیّهٔ فی نظم الألفیهٔ» للشهید الثانی، التی ذکر فیها أنّه من تلامیذه (۲).

وأخوه:

الشیخ عبد الصمد بن الحسین بن عبد الصمد العاملی، کان فاضلًا جلیلًا، وقد صنّف لأخیه «الصمدیهٔ» فی النحو (۳).

وزوجته:

الشیخهٔ بنت الشیخ علیّ المنشار العاملی، کانت عالمهٔ، فاضلهٔ، فقیههٔ، کان فی جهازها یوم زُفّت إلی الشیخ البهائی کتب تامّهٔ فی فنون العلم، وهی أربعهٔ آلاف مجلّد.

وکان أبوها شیخ الإسلام بإصبهان أیّام السلطان شاه طهماسب الصفوی، وکان قد جاء من الهند فی سفره الذی سافر بکتب کثیرهٔ، ولم یکن له غیر هذه البنت، ولمّا مات انتقل کلّ ما کان عنده من الکتب والأملاک والعقار إلیها (۴).

وأولاده:

المشهور أنّه لم یعقب أولاداً، وقیل: أعقب بنتاً، یقول صاحب (الریاض):

۱- ۱ أمل الآمل ۱: ۱۳۸، ریاض العلماء ۵: ۴۸، تکملهٔ أمل الآمل: ۳۵۶.

۲- ۲ ریاض العلماء ۴: ۱۱۴، أعیان الشیعهٔ ۸: ۲۶۲، تکملهٔ أمل الآمل: ۳۰۲.

۳- ۳ أمل الآمل ۱: ۱۰۹، ریاض العلماء ۳: ۱۲۳، أعیان الشیعهٔ ۸: ۱۶.

۴- ۴ ریاض العلماء ۵: ۴۰۷، أعیان الشیعهٔ ۲: ۲۷۵.

ص: ۳۱

وكان لها حفدة معاصرون لنا (۱). والبعض يقول: إنّه كان عقيماً (۲).

أقوال العلماء فيه:

قال السيّد عليّ خان المـدنى فى «سـلافة العصـر»: علم الأئمّـة الأعلام، وسيّد علماء الإسـلام، وبحر العلم المتلاطمة بالفضائل أمواجُه، وفحل الفضل الناتجـة لديه أفراده وأزواجُه، وطود المعارف الراسخ، وفضاؤها الذى لا تحدّ له فراسخ، وجوادها الذى لا يؤمل له لحاق وبـدرها الـذى لا يعتريه محاق ... إليه انتهت رئاسـة المـذهب والملّة، وبه قامت قواطع البراهين والأدلـة ... فما من فنٍّ إلّاوله فيه القدح المعلّى، والمورد العذب المحلّى، إنْ قال لم يدع قولًا لقائل، أو طال لم يأت غيره بطائل ... (۳).

وقـال الحر فى الأمـل: ... حـاله فى الفقه والعلم والفضـل والتحقيق والتـدقيق، وجلالـة القـدر، وعظم الشـأن وحسن التصـنيف، ورشـاقة العبارة، وجمع المحاسن، أظهر من أن يذكر، وفضائله أكثر من ان تحصر.

وكان ماهراً، متبحراً، جامعاً، كاملًا، شاعراً أديباً منشئاً ثقة، عديم النظير فى زمانه فى الفقه، والحديث والمعانى والبيان والرياضى وغيرها (۴).

وقـال السـيد حسـين بن السـيد حيـدر الكركى فى بعض إجازاته: شـيخنا الامام العلامـة ومولانا الهمام الفهامـة أفضل المحقّقين وأعلم المدقّقين خلاصة المجتهدين ...

كان أفضل أهل زمانه بل كان متفرداً بمعرفة بعض العلوم الذى لم يحم حوله من أهل زمانه ولا قبله على ما أظن (۵).

وقال السيّد مصـطفى التفريشـى: جليل القدر، عظيم المنزلة، رفيع الشأن، كثير الحفظ، ما رأيت بكثرة علومه ووفور فضـله، وعلوّ مرتبته أحداً فى كلّ فنون الإسلام كمن كان له فنّ واحد (۶).

وقد أطراه جملة من العلماء الأعلام، أعرضنا عن ذِكر مديحهم لئلّا يطول المقام.

۱- ۱ رياض العلماء ۵: ۹۴.

۲- ۲ أعيان الشيعة ۹: ۲۴۲، تكملة أمل الآمل: ۴۴۷.

۳- ۳ سلافة العصر: ۲۸۹- ۳۰۳، عنه فى أعيان الشيعة ۹: ۲۳۴.

۴- ۴ أمل الامل ۱: ۱۵۵.

۵- ۵ أعيان الشيعة ۹: ۲۳۴.

۶- ۶ نقد الرجال: ۳۰۳.

ص: ۳۲

أساتذته ومشايخه:

وهم كثيرون، نذكر منهم:

۱- الشيخ عبدالعالى بن الشيخ على الكركى العاملى.

۲- الشيخ محمد بن الشيخ حسن (صاحب المعالم).

۳- السيد محمود بن على الحسينى المازندرانى.

۴- الشيخ عبداللّه اليزدى.

تلامذته والرواة عنه:

كثيرون أيضاً، نخصّ منهم بالذِّكر:

۱- السيّد حسين بن السيد حيدر الكركى.

۲- السيّد ماجد البحرانى.

۳- المولى محمد صالح بن احمد المازندرانى.

۴- الشيخ زين الدين بن محمد بن صاحب المعالم.

۵- المجلسى الأول الشيخ محمد تقى.

۶- ملا محسن الفيض الكاشانى.

وفاته ومدفنه:

توفّى سنة ۱۰۳۰ ه. بإصفهان وصلّى عليه تلميذه المجلسى الأوّل بحشد من الفضلاء والناس، ونقل إلى خراسان، ودفن فى المشهد الرضوى فى بيته الذى كان عند رجلَى الضريح المقدّس (۱).

و قال فى سلافة العصر: إنّه تو فّى سنة ۱۰۳۱ (۲)، و قيل: إنّه تو فّى سنة ۱۰۳۵ ه (۳).

تصانيفه (۴):

وهى كثيرة جدّاً نذكر بعضها على نحو الاستعراض:

الحديث:

۱- شرح الأربعين حديثاً.

۱- ۱ رياض العلماء ۵: ۹۷، روضات الجنّات ۷: ۵۹، أعيان الشيعة ۹: ۲۳۴، الأعلام ۶: ۱۰۲.

۲- ۲ سلافة العصر: ۲۸۹- ۳۰۲.

۳- ۳ انظر: رياض العلماء ۵: ۹۲.

۴- ۴ أمل الآمل ۱: ۱۵۵- ۱۵۷، الأعلام ۶: ۱۰۲، رياض العلماء ۵: ۸۸- ۹۰، روضات الجنّات ۷: ۶۰- ۶۱، لؤلؤة البحرين: ۲۰- ۲۲، أعيان الشيعة ۹: ۱۴۴.

ص: ۳۳

الفقه:

۱- الحبل المتين.

۲- رسالة فی ذبائح أهل الكتاب.

۳- رسالة فی الطهارة.

۴- الرسالة الاثنا عشرية فی الصلاة.

۵- رسالة فی الصوم.

۶- رسالة فی الزكاة.

۷- رسالة فی الحجّ.

۸- رسالة فی الكرّ.

الأُصول:

۱- حاشية شرح العضدی على مختصر الأُصول.

۲- الزبدة فی الأُصول.

۳- لغز الزبدة.

الدراية:

۱- رسالة فی الدراية.

الرجال:

۱- حاشية خلاصة العلامة مختصرة.

العقائد:

۱- رسالة مختصرة فی إثبات وجود صاحب الزمان عجّل اللّه تعالى فرجه الشريف.

۲- رسالة فی تحقيق عقائد الشيعة فی الفروع والأُصول، مفصّلًا على اختصار.

التفسير:

۱- حاشية البيضاوی.

ص: ۳۴

۲- رسالهٔ فی شرح قول البیضاوی فی تفسیر قوله تعالی: فسحقاً لأصحاب السعیر

الأدعیهٔ:

۱- مفتاح الفلاح.

۲- الحدیقهٔ الهلالیهٔ.

۳- شرح الصحیفهٔ السجّادیهٔ، الموسوم ب: حدائق الصالحین.

البلاغهٔ والنحو والأدب:

۱- الکشکول، کبیر.

۲- المخلاهٔ.

۳- الصمدیهٔ.

۴- حاشیهٔ المطوَّل.

۵- سوانح الحجاز، فی شعره وإنشائه.

الفلک والهیئهٔ والریاضیات:

۱- رسالهٔ فی أنّ أنوار سائر الکواکب مستفادهٔ من الشمس.

۲- رسالهٔ الاصطرلاب، سمّاها: الصحیفهٔ.

۳- خلاصهٔ الحساب.

۴- رسالهٔ فی حلّ إشکالَی عطارد والقمر.

۵- رسالهٔ فی القبلهٔ (جههٔ القبلهٔ).

نحن والرسالهٔ:

وهی رسالـهٔ هَیَوِیّهٔ فقهیهٔ، تبحث عن أهمّ الموضوعات الفقهیهٔ التی یتوقّف علیها عمل المکلَّف، وهو جههٔ القِبلهٔ، طبق القواعد الهَیَوِیّهٔ، مرفقـهٔ بشـکل هندسـی دقیق ذی زوایا قوائم وحوادّ ومنفرجات، حاول فیها المصـنِّف إثبات الجهـهٔ بطریقـهٔ علمیّهٔ متقنهٔ، مع اسـتعراض لآراء فطاحل العلماء، وإیراد الملاحظات علی

ص: ۳۵

تعريفاتهم، وإثبات مدّعاه بقوّة علميّة كما سترى.

ثمّ إنّ كلّ من تعرّض من العلماء لترجمة شيخنا رحمه الله عدَّ هذه الرسالة من مصنّفاته (۱) قائلًا: ورسالة فى القبلة، ولم يسمها، إلّا أن المصنف رحمه الله قال فى مقدمة الرسالة: ... إن تحقيق حقيقة جهة القبلة، فالظاهر أنه استفيدت تسميتها من هذه العبارة.

ولذا قال العلّامة البحّاثة الشيخ آقا بزرك الطهرانى رحمه الله:

جهة القِبلة رسالة متوسّطة، تقرب من مائة وخمسين بيتاً، فى بيان المراد من الجهة وما فُسِّرت به من السمت، للشيخ البهائى، المتوفّى سنة ۱۰۳۱، أوّله:

أمّا بعد الحمد والصلاة، فيقول أقلّ العباد محمّد، المشتهر ... إنّ تحقيق حقيقة جهة القِبلة التى يجب على البعيد تحصيلها والتوجّه إليها، من المهمّات (۲).

نسخ الرسالة:

۱- نسخة فى مكتبة آية اللَّه السيّد المرعشى النجفى قدس سره، ضمن مجموعة رقم ۱۰۴، كتبت سنة ۱۰۱۸، ذكرت فى فهرسها.

۲- نسخة فى مكتبة البرلمان الإيرانى السابق، ضمن مجموعة رقم ۳۲۸۰، كتبت سنة ۱۱۱۷، ذكرت فى فهرسها ۱۰: ۸۹۸.

۳- نسخة فى مكتبة البرلمان الإيرانى السابق، ضمن مجموعة رقم ۳۳۴۷، كتبت سنة ۱۰۹۰، ذكرت فى فهرسها ۱۰: ۱۱۴۷.

۴- نسخة فى مكتبة البرلمان الإيرانى السابق، ضمن مجموعة رقم ۱۸۰۵، ذكرت فى فهرسها ۹: ۳۶۱.

۵- نسخة فى مكتبة البرلمان الإيرانى السابق، ضمن مجموعة رقم ۲۷۶۱، ذكرت فى فهرسها ۹: ۱۶۳.

۶- نسخة فى مكتبة البرلمان الإيرانى السابق، ضمن مجموعة رقم ۴۴۷۱، كتبت سنة ۱۰۷۹، ذكرت فى فهرسها ۱۲: ۱۵۱.

۱- ۱ رياض العلماء ۵: ۹۰، روضات الجنّات ۷: ۶۱، أعيان الشيعة ۹: ۲۴۴.

۲- ۲ الذريعة ۵: ۳۰۱.

ص: ۳۶

۷- نسخة فی مکتبة البرلمان الإیرانی السابق، ضمن مجموعة رقم ۴۹۰۰، کتبت سنة ۱۰۷۹، ذکرت فی فهرسها ۱۴: ۷۷.

۸- نسخة فی مکتبة فاضل فی خوانسار، رقم ۱۴۷، کتبت سنة ۱۰۶۲.

۹- نسخة فی المکتبة المرکزیة لجامعة طهران، ضمن مجموعة باسم الدستور، رقم ۲۱۴۴، کتبت سنة ۱۰۷۹.

النسخ المعتمدة فی التحقیق:

اعتمدت فی عملی علی نسختین:

۱- نسخة محفوظة فی مکتبة البرلمان الإیرانی السابق، ضمن مجموعة ۴۴۷۱، رقم الرسالة ۱۶، مذکورة فی فهرست المکتبة ۱۲: ۱۵۱، وفی نهایتها کُتب: تمّت فی ۱۷ شعبان ۱۰۷۹ هجریة، تقع هذه النسخة فی ثلاث صفحات، کلّ صفحة تحتوی علی ۲۵ سطراً، بقیاس ۱۷* ۲۵ سم، وقد رمزنا لها ب (م).

۲- نسخة محفوظة فی المکتبة المرکزیة لجامعة طهران، ضمن مجموعة کبیرة، باسم: الدستور، برقم ۲۱۴۴، والرسالة فی الورقة ۹۷ منها، مذکورة فی فهرست المکتبة ۹: ۴۰۸، وعلی هامشها تعلیقة من المصنِّف أثبتناها فی موضعها، وعلی هامشها فی موضعین کلمة (بلغ) التی تدلّ علی مقابلتها والعنایة بها، وکُتب فی نهایتها: تمّت فی ۱۷ شعبان ۱۰۷۹، والملاحظ أنّ هذا الإنهاء یوافق إنهاء النسخة السابقة، وهی فی صفحتین، کلّ صفحة تحتوی علی ۵۵ سطراً، وقد رمزنا لها ب (ج).

منهجیّة التحقیق:

اعتمدتُ عملیةَ التلفیق بین النسختین مشیراً إلی الاختلاف فی الهامش، فکان عملی کالتالی:

۱- مقابلة النسختین والإشارة إلی الاختلاف فی الهامش.

۲- تقویم النصّ وتقطیعه إلی فقرات.

ص: ۳۷

۳- تخريج الأحاديث الواردة من مصادرها الرئيسية.

۴- تخريج الأقوال الفقهيّة التى نقلها المصنّف من مصادرها.

وفى الختام:

أُقدّم جزيل شكرى إلى كلّ من آزرنى وساعدنى على إخراج هذه الرسالة بحلّة لائقة، وأخصّ بالذِّكر مؤسّسة آل‌البيت عليهم السلام لإحياء التراث ومجلّتها «تراثنا» التى نشرتها، كما أشكر إدارة مجلّة ميقات الحجّ على إعادة نشر هذه الرسالة فى مجلّتها المذكورة تعميماً لفوائدها القيّمة ..

والحمد للّه أوّلًا وآخراً، وصلّى اللّه على محمّد وآله الطاهرين.

صورة الصفحة الأُولى من نسخة (م)

ص: ۳۸

صورة الصفحة الأخيرة من نسخة (م)

ص: ۳۹

الرموز المذكورة فى الرسالة مشيرة إلى هذا الشكل الهندسى الذى اعتمده المصنّف رحمه الله

ص: ۴۰

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

أمّا بعد الحمد والصلاة؛

فيقول أقلّ العباد محمّد، المشتهر ب: بهاء الدين العاملىّ، عفا اللَّه عنه:

إنّ تحقيق حقيقة جهة القِبلة، التى يجب على البعيد تحصيلها، والتوجُّهُ إليها، من المهمّات؛ ليكون المتوجّهُ عارفاً- فى الجملة- بحقيقة ما يتوجّه إليه ويستقبله.

وقد اختلف كلام فقهائنا- قدّس اللَّه أرواحهم- فى الكشف عنها، وبيان ماهيّتها، مع أنّه لا مريةَ لأحدٍ فى أنّها: «ما يكون العاملُ بالعلامات المقرَّرة متوجّهاً إليها».

لكن، لمّا لم يكن هذا القدر كافياً فى شرح حقيقتها- لكونه من قبيل تعريفها ب:

«ما يجب استقباله فى الصلاة» وهو كالردّ إلى الجهالة- لأنّ الغرض شرح حقيقة ذلك الشىء الذى يجب استقباله، فلهذا لم يعوّل الفقهاء- رحمهم اللَّه- على تعريفها بذلك، وأوردوا ما يشرح ماهيّتها فى الجملة:

[١] فعرّفها العلّامة- طاب ثراه- فى المنتهى: ب «السمت الذى فيه الكعبة» (١).

وقد يُفسَّر السمت هنا: بامتدادٍ (٢) معترضٍ فى أحد جوانب الأُفق.

[٢] وعرّفها فى التذكرة بأنّها: «ما يظنّ أنّه الكعبة حتّى لو ظنّ خروجه عنها لم تصحّ» (٣).

والظاهر أنّه أراد ب «ما يظنّ أنّه الكعبة» ما يظنّ اشتماله عليها، ويؤيّده قوله:

«حتّى لو ظنّ خروجه عنها».

[٣] وعرّفها شيخنا- قدّس اللَّه روحه- فى الذكرى: ب «السمت الذى يُظنّ كون الكعبة فيه» (۴).

١- ١ منتهى المطلب ١: ٢١٨.

٢- ٢ فى هامش «ج» تعليقة من المصنّف رحمه الله هذا نصّها: الظاهر أنّ المراد بالامتداد خطّ مستقيم، فإنّه هو المتبادر عند الإطلاق. منه.

٣- ٣ تذكرة الفقهاء ٣: ٧، وعنه فى مفتاح الكرامة ٢: ٧۵.

۴- ۴ ذكرى الشيعة: ١۶٢، وعنه فى مفتاح الكرامة ٢: ٧۵.

ص: ۴۱

[۴] وقال شيخنا المحّقق الشيخ علیّ- أعلى اللَّه قدره- فی شرح القواعد:

«الذی ما زال يختلج بخاطری أنّ جهة القبلة هی: المقدار الذی شأن البعيد أن يجوّز على كلّ بعض منه أن يكون هو الكعبة، بحيث يقطع بعدم خروجها عن مجموعه» (۱).

[۵] وعرّفها شيخنا الشهيد الثانی- نوّر اللَّه مرقده- فی شرح الشرائع:

ب «القدر الذی يجوّز على كلّ بعض (۲) منه كون الكعبة فيه، ويقطع بعدم خروجها عنه، لأمارة يجوز التعويل عليها شرعاً» (۳).

[۶] وعرّفها بعضهم بأنّها: «قوس من الأُفق يجوّز على كلّ خطٍّ خارجٍ من جهة الساجد (۴)، منتهياً إليه أن يمرّ بالكعبة».

فهذه تعريفات (۵) ستّة للجهة.

وظنّی أنّه لا يسلم شیءٌ منها من خلل، كما ستحيط به خُبراً.

[۷] ولو عُرِّفَتْ بأنّها «أعظم سمتٍ يشتمل على الكعبة قطعاً أو ظنّاً، بحيث تتساوی نسبةُ أجزائه إلى هذا الاشتمال من غير ترجيح» لكان أقربَ إلى السلامة، كما ستعرفه إن شاء اللَّه تعالى.

تمثيل:

لنفرض دائرةً أُفقاً من الآفاق العراقية، كالكوفة، والمصلّی على مركزها وهو نقطة (د).

وقد أدّته الدلائلُ أو الأماراتُ إلى أنّ قِبلة الكوفة فی جانب الجنوب ..

إمّا بالسفر منها إلى مكّة وتدبّر الطريق.

أو للعمل بالأمارات المعروفة لأهل العراق، كجعل الجَدْی على المنكب الأيمن، والمغرب والمشرق (۶) على اليمين واليسار، ولنفرضه قاطعاً أو ظانّاً وقوعَ الكعبة فی امتداد (ب- ج) (۷)

بحيث يُجوِّزُ على كلّ جزءٍ منه أنْ يكونَ فيه الكعبةُ، ويقطع بعدم خروجها عن مجموعه (۸).

۱- ۱ جامع المقاصد ۲: ۴۹.

۲- ۲ فی المصدر: كلّ جزءٍ.

۳- ۳ مسالك الأفهام ۱: ۱۵۱.

۴- ۴ فی «م»: المساجد.

۵- ۵ فی «م»: تفريعات.

۶- ۶ فی «م»: والمشرق والمغرب.

۷- ۷ فی «م»: ب- ح.

۸- ۸ لفظ «عن مجموعه» لم يرد فی «م».

ص: ۴۲

فخطُّ (ب- ج) هو السمتُ الذی هو عبارة عن جهة القِبلة علی التعریفات الخمسة الأُوَلِ، والسابع.

فإذا استقبل المصلّی أیَّ جزء من أجزائه کان مستقبِلًا للقِبلة، سواءً کان الخطّ الخارج من موضع سجوده منتهیاً إلیه، مقاطعاً له علی قوائم کخطّ (د- ه) أو حَوادّ ومنفرِجات کخطّی (د- ب)، (د- ج).

ومن ثَمَّ حکموا باتّساع الجهة واغتفارِ یسیر الانحراف، وربّما نزّلوا ما یتراءی من التخالف بین علامات قِبلة العراق، علی ذلک.

وأمّا علی التعریف السادس: فسمت القِبلة- أعنی جهتها- هو: قوس (ط- ی) ووجه عدم حمل الجهة فی التعریفات الأُوَل علی هذا القوس، ظاهر، لظهور أنّ الکعبة غیر واقعة علی محیط الأُفق الحقیقیّ ولا الحسّیّ.

ولو أُرید بالأُفق ما ینصّف الأرضَ فقط، لم یلزم وقوعها علی محیطه أیضاً، وإنّما یتحقّق ذلک فی بلدٍ یکون غایةُ میل أُفقه عن أُفق مکّة بقدر ربع الدور.

ثمّ لا یخفی أنّ مرور الخطّ المذکور فی التعریف السادس بالکعبة إنّما یتحقّق فی موضع تکون الکعبة واقعةً فوقَ أُفقه، فلا تغفل.

*** فصل

اعترضَ شیخُنا المحقّقُ الشیخ علیّ- أعلی اللّه قدره- فی (شرح القواعد) علی تعریف (التذکرة): «بأنّ البعید لا یُشترط فی صحّة صلاته ظنُّ محاذاة الکعبة، وبأنّ الصفّ المستطیل یحکم بخروج بعضهم عنها، فیلزم بطلان صلاتهم، وأظهر منه مَنْ یصلّی بعیداً عن محراب النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم بأزید من مقدار الکعبة» (۱).

ثمّ إنّه رحمه الله أرجَعَ تعریف (الذکری) إلی تعریف (التذکرة) (۲)، وظاهر کلامه أنّه

۱- ۱ جامع المقاصد ۲: ۴۸ باختلاف یسیر.

۲- ۲ حیث قال: «وما ذکره لا یکاد یخرج عن کلام التذکرة» المصدر السابق ص: ۴۹.

ص: ۴۳

حمل (السمت) فیه علی الخطّ المتوهَّمامتدادُه مِن المستقبِل فی الصوب الذی یستقبله.

وهو کما تری.

والظاهر أنّ مراد العلّامة ما ذکرناه قُبیل هذا، وأنّ المراد بالسمت فی تعریف (الذکری): هو الامتداد المعترِض، لا الطولی.

وکیف یُظنّ بهذین الشیخین- طاب ثراهما- القول بأنّ عین الکعبة قِبلة للبعید؟! مع أنّهما مصرِّحان فی کتبهما بخلافه، بل لم یذهب أحد من علمائنا إلی ذلک، وإنّما هو مذهبُ بعض العامة (۱).

توضیح:

الباعث علی اشتراط الشیخین- أعلی اللّه قدرهما- أن یجوّز علی کلّ بعض من ذلک المقدار (۲) أن یکون هو الکعبة، المحافظة علی طرد التعریف، لصدقه بدونه علی مقدار یُقطع أو یُظنّ عدم وقوع الکعبة فی بعض أجزائه، کمجموع خطّ (ز- ح) فإنّه یقطع بعدم خروج الکعبة عن مجموعه، مع أنّه لیس هو بمجموعه الجهة، وإنّما الجهة بعضه، أعنی خطّ (ب- ج) (۳)

(فلا یجوز استقبال شیء من أجزاء خطّ (ز- ب) (۴)

، ولا خطّ (ج- ح)، وهذا ظاهر.

وأمّا سبب تقییدهما بالقطع بعدم خروج الکعبة عن مجموع ذلک المقدار، فلأنّه لولا هذا القید لصدق التعریف علی خطّ (ه- ج) (۵) مثلًا، فإنّه یجوز علی کلّ جزءٍ منه أن یکون هو الکعبة، مع أنه بعض الجهة لا نفسها، فإنّ الجهة تبطل الصلاة بالخروج عنها، ولیس خطّ (ه- ج) کذلک.

ومن هذا یظهر عدمُ مانعیّة التعریف السادس، لصدقه علی قوس (ک- ی) مثلًا.

ونحن لمّا اعتبرنا فی التعریف الأخیر «أعظم سمت» سَلِمَ طردُه من هذا الخدش.

۱- ۱ وهم: الجرجانی من الحنفیّین وأحد قولَی الشافعی.

انظر: المجموع ۳: ۲۰۷ و ۲۰۸، فتح العزیز ۳: ۲۴۲، شرح فتح القدیر ۱: ۲۳۵، الکفایة ۱: ۲۳۵، شرح العنایة ۱: ۲۳۵، عمدة القاری ۴: ۱۲۶، المغنی ۱: ۴۹۱ و ۴۹۲ و ۵۱۹، نیل الأوطار ۲: ۱۸۰.

۲- ۲ فی «م»: المقدّر.

۳- ۳ فی «م»: ز- ب.

۴- ۴ ما بین القوسین لم یرد فی «م».

۵- ۵ فی «م»: ه- ح.

ص: ۴۴

تتمّة:

ثمرة تقييد شيخنا الشهيد الثانى رحمه الله بقوله: «لأمارة يجوز التعويل عليها شرعاً» إخراج الجهات الأربع للمتحيّر.

وقد صرّح- طاب ثراه- بذلك حيث قال: «احترزنا بالقيد الأخير عن فاقد الأمارات، بحيث يكون فرضه الصلاة إلى أربع جهات، فإنّه يُجوّز على كلّ جزء من الجهات الأربع كَوْن الكعبة فيه، ويقطعُ بعدم خروجها عنه، لكن لا لأمارةٍ شرعيّة» (۱). انتهى.

ومراده رحمه الله بالقطع المذكور: القطعُ بعدم خروج الكعبة عن مجموع أجزاء الجهات الأربع، لا ما يُعطيه ظاهر العبارة.

فإنْ قلتَ: كلّ واحدةٍ من الجهات الأربع جهةُ القِبلة فى حقّ المتحيّر، فكان الواجب إدراجُها فى التعريف لا إخراجها.

قلتُ: لعلّه لمّا لم تبرأ الذمّة بالتوجّه إلى واحدة بعينها لم يجعلوها جهةً، فإنّ الجهة ما تبرأ الذمّةُ من الاستقبال بالتوجّه إليها.

هذا، وأنت خبير بأنّ زيادته رحمه الله هذا القيد على تعريف المحقّق الشيخ علىّ- أعلى اللَّه قدره- كالتصريح بعدم سلامة طرده بدونه.

وظنّى أنّه- أعلى اللَّه قدره- أراد بالمقدار: السمت، على ما مرّ تفسيره، فلم يحتج إلى ذلك القيد، إذ لا قطع للمتحيّر بعدم خروج الكعبة عنه.

*** فصل

إذا حصل القطع بعدم خروج الكعبة عن سمتٍ معيّنٍ كسمت ز- ح مثلًا، وجُوِّزَ على كلّ بعض من أبعاضه- كخطوط ز- ب، ب- ج، ج- ح، اشتماله عليها.

فلا يخلو:

۱- ۱ المسالك ۱: ۱۵۱.

ص: ۴۵

إمّا أنْ يكونَ جميع تلك الأبعاض متساوية الأقدام فی احتمال هذا الاشتمال من غير ترجيح.

أو يكون اشتمال بعضها- كامتداد (ب- ج) مثلًا- أرجَحَ فی ظنّه عن سائر الأجزاء.

وعلى الأوّل: لا ريب فی أنّ مجموع ذلك السمت هو الجهة فی حقّه، وأنّ ذمّته تبرأ بالاستقبال أیّ بعضٍ من الأبعاض شاء.

وأما على الثانی، فوجهان:

أحدهما: أن يكون حكمه كالأوّل من غير تحتّم استقبال الأجزاء الراجحة الاشتمال.

والثانی: أن يجب عليه تخصيص الاستقبال بتلك الأجزاء، فلا تصحّ صلاتُه إلى الأجزاء المرجوحة الاشتمال.

وهذا هو الأصحُّ، لِقُبح التعويل على المرجوح مع التمكّن من الراجح، ولقول الصادق عليه السلام فی موثّقة سماعة: «تَعَمَّد القِبلةَ جُهْدَكَ» (۱).

ومن ثَمَّ، حكموا بوجوب رجوع من فَرْضُه التقليد- فی القِبلة أو غيرها- إلى أعلم المجتهدَيْنِ وأوثقهما.

وأنت خبير بأنّ المستفاد من تعريفَی الشيخَيْن فی الشرحين هو الوجهُ الأوّل، وللبحث فيه مجال واسعٌ، فلا تغفل.

إشارة:

اشتراط (۲) الشيخين- طاب ثراهما- فی الشرحين القطع بعدم خروج الكعبة عن ذلك المقدار، موضع نظر.

فإنّه يُعطی أنّ: مَنْ لم يقدرْ على تحصيل القطع المذكور، بل جَوَّزَ على كلّ واحد من المقادير الأربعة فی جوانب الأُفق أن يكونَ فيه الكعبة، لكن كان وقوعُها فی واحد معيّن منها أرجَح فی نظره من وقوعها (۳) فيما عداه، لم يكنْ (۴) ذلك المقدار

۱- ۱ الوسائل ۴: ۳۰۸ باب ۶ من أبواب القِبلة ح ۲ و ۳، الكافی ۳: ۲۸۴ ح ۱، التهذيب ۲: ۴۶ ح ۱۴۷، و ۲: ۲۵۵ ح ۱۰۰۹، والاستبصار ۱: ۲۹۵ ح ۱۰۸۹.

۲- ۲ فی «م»: إشارة الشيخين.

۳- ۳ فی «م»: وقوعهما.

۴- ۴ «لم يكن» جزاء «من لم يقدر».

ص: ۴۶

المظنونُ- وقوعُ الكعبة فيه- جهةً فى حقّه (۱): لأنّه غير قاطع بعدم خروج الكعبة عنه.

وهو كما ترى.

والحقُّ: أنّ كونَه جهةً (۲) فى حقّه ممّا لا ينبغى الامتراء فيه (۳).

إيضاح:

قد ذكر علماؤنا- رضى اللّه عنهم-: أنّه إنّما يجوز التعويلُ فى تحصيل جهة القِبلة على الظنّ، مع العجز عن العلم.

أمّـا مَن كـان قـادراً على تحصـيل العلم بالجهـة، من غير مشـقّة شديـدة، عـادةً، فلاـ يجوز له التعويـل على الظنّ، وقـد دلّت على ذلك صحيحةُ زرارة، عن الباقر عليه السلام، قال: «يجزى المتحيّر (۴) أبداً أينما توجّه إذا لم يعلم أين وجه القِبلة» (۵).

فإنّها تعطى بمفهومها الشَرطى (۶) أنّ التحرّىَ- أعنى: الاجتهادَ- إنّما يُجزى إذا لم يكن للمكلَّف طريقٌ إلى العِلم.

وبهذا يظهر أنّ تعريف (المنتهى) أقربُ إلى الصواب من تعريفَى (التذكرة) و (الذكرى)؛ لشـموله ما فيه الكعبة قطعاً، وما هى فيه ظنّاً لا غير، واختصاصُهما (۷)بالظنّ، فيختلّ عكسهما بالجهة المقطوع كون الكعبة فيها.

تنبيه:

يظهر ممّا تلونا عليك سابقاً: أنّ التعريفات الثلاثـة- أعنى تعريف: المنتهى، والتـذكرة، والـذكرى- منتقضـة الطرد بالسـمت الذى يُقطع بخروج الكعبة عن بعض أجزائه، إذا قطع أو ظنّ اشتمال الأجزاء الأُخَرِ عليها.

كما أنّ الثانىَ والثالثَ منها مُنْتقضا العكسِ بالجهة المقطوع كون الكعبة فيها.

وأمّا تعريفا الشيخين فى الشرحين (۸): فقد لَوَّحْنا إليك قُبَيْل هذا بما يُشير إلى اختلالهما أيضاً طرداً وعكساً.

۱- ۱ فى «م»: «جهة» بدل «حقه».

۲- ۲ فى «م»: حجّة.

۳- ۳ كتب فى هامش «ج» هنا: «بلغ».

۴- ۴ فى «ج»: المتحرّى.

۵- ۵ الوسائل ۴: ۳۱۱ باب ۸ من أبواب القِبلة ح ۲، الفقيه ۱: ۱۷۹ ح ۸۴۵.

۶- ۶ فى «م»: بمفهومها الشرعى.

۷- ۷ فى «م»: واختصاصها.

۸- ۸ وهما: الشهيد الثانى فى شرح الشرائع، والكركى فى شرح القواعد.

ص: ۴۷

أمّا الطرد: فبالسمت المقطوع عدم خروج الكعبة عنه، إذا ترجّح وقوعُها في بعض أجزائه على الوقوع في البواقي، فإنّ الجهة إنّما هي الأجزاء المظنونة الاشتمال عليها لا غير.

وأمّا العكس: فبالسمت الذي يُظنّ عدمُ خروج الكعبة عنه مع العجز عن تحصيل القطع بذلك.

وأمّا التعريف السادس: فهو وإنْ سَلِمَ طردُه ممّا انتقض به طردُ التعريفات الثلاثة، الأوَّل من السمت المقطوع بخروج الكعبة عن بعضه، كما سلم عكسه ممّا انتقض به عكس الثاني والثالث من الجهة المقطوع كون الكعبة فيها، لكنّه لم يَسْلَمْ طردُه من الانتقاض ببعض أجزاء الجهة، وبما انتقض به طرد تعريفَي الشيخين- قدّس اللّه روحهما-.

تبصرة:

قد استبان لك عدم سلامة شيء من التعريفات الستّة من اختلالٍ في الطرد، أو العكس، أو فيهما معاً.

فلنعُدْ إلى التعريف السابع، الذي اخترناه، فنقول:

إنّما اعتبرنا فيه «أعظم سمت» لئلّا ينتقض طرده ببعض أجزاء الجهة.

ولم نقتصر على الظنّ- كما في تعريفَي التذكرة والذكرى- لئلّا ينتقض عكسه بالسمت الذي يُقطع بعدم خروج الكعبة عنه.

ولا على القطع- كما في تعريفَي الشيخين- لئلّا يُنتقض بالجهة المظنون كون الكعبة فيها، عند العجز عن تحصيل القطع بذلك.

وأمّا قيد الحيثية؛ فلإخراج سمتٍ يكونُ اشتمال بعض أجزائه على الكعبة أرجح، إذ الحقّ: أنّ الجهةَ- حينئذٍ- ليست مجموعَ ذلك السمت، بل بعضه، أعني:

الأجزاء التي يترجّحُ اشتمالها على الكعبة، بشرط تساوي نسبة الرجحان إلى جميعها، فلا يجوزُ للمصلّي استقبال الأجزاء المرجوحة الاشتمال عليها، خلافاً

ص: ۴۸

للمستفاد من تعريفَى الشرحين.

واللَّه سبحانه أعلم (۱) بحقائق الأُمور.

هذا ما خطر بالبال، الكثير الاختلال، مع ضيق المجال، وتراكم الأشغال، والحمد للَّهأوّلًا وآخراً، وباطناً وظاهراً (۲).

مصادر التحقيق:

۱- أعيان الشيعة: للسيّد محسن الأمين، دار التعارف، بيروت.

۲- الاستبصار: للشيخ الطوسى، دار الأضواء، بيروت.

۳- الأعلام: لخير الدين الزركلى، دار العلم للملايين، بيروت.

۴- أمل الآمل: للحرّ العاملى، مكتبة الأندلس - بغداد.

۵- تذكرة الفقهاء: للعلّامة الحلّى، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم.

۶- تكملة أمل الآمل: للسيّد حسن الصدر، منشورات المكتبة العامة للمرعشى النجفى، قم.

۷- تهذيب الأحكام: للشيخ الطوسى، افسيت دار الأضواء، بيروت.

۸- جامع المقاصد: للمحقّق الكركى، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم.

۹- الذريعة: لآقا بزرك الطهرانى، افسيت دار الأضواء، بيروت.

۱۰- الذكرى: للشهيد الأوّل، مكتبة بصيرتى، قم.

۱۱- روضات الجنّات: للميرزا باقر الخوانسارى، مؤسّسة إسماعيليان، قم.

۱۲- رياض العلماء: للميرزا الأفندى، منشورات المكتبة العامة للمرعشى النجفى، قم.

۱۳- سلافة العصر: للسيّد على خان المدنى، المكتبة المرتضوية، طهران.

۱۴- شرح العناية: لمحمّد بن محمود البابرتى، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

۱۵- شرح فتح القدير: لكمال الدين محمّد بن عبد الواحد، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

۱- ۱ فى «م»: عليم.

۲- ۲ ورد فى نهاية «م» و «ج»: تمّت فى ۱۷ شعبان تسع وسبعين وألف.

ص: ۴۹

۱۶- عمدة القارى: لبدر الدين أبى محمّد محمود بن أحمد العينى، دار الفكر، بيروت.

۱۷- فتح العزيز: لأبى القاسم عبد الكريم بن محمّد الرافعى، دار الفكر، بيروت.

۱۸- الكافى: لثقة الاسلام الكلينى، افسيت دار الأضواء، بيروت.

۱۹- الكفاية: لجلال الدين الخوارزمى الكرلانى، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

۲۰- لؤلؤة البحرين: للشيخ يوسف البحرانى، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم.

۲۱- المجموع: لأبى زكريّا محيى الدين بن شرف النووى، دار الفكر، بيروت.

۲۲- مسالك الأفهام: للشهيد الثانى، مؤسسة المعارف الاسلاميّة، قم.

۲۳- المغنى: لموفّق الدين وشمس الدين ابنَى أبى قدامة، دار الفكر، بيروت.

۲۴- منتهى المطلب: للعلّامة الحلّى، إيران.

۲۵- من لا يحضره الفقيه: للشيخ الصدوق، مؤسّسة النشر الإسلامى التابعة لجماعة المدرّسين، قم.

۲۶- نقد الرجال: للسيّد مير مصطفى التفريشى، انتشارات الرسول المصطفى، قم.

۲۷- نيل الأوطار: لمحمّد بن على بن محمّد الشوكانى، دار الجيل، بيروت.

۲۸- وسائل الشيعة: للحرّ العاملى، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم.

الهوامش:

لقاء و حوار مع سماحة آیة اللّه الهاشمی الرفسنجانی

ص: ۵۲

لقاء و حوار مع سماحة آیة اللّه الهاشمی الرفسنجانی

: سـماحة آیة اللّه الهاشمی! نشکرکم فی بدء هذا اللقاء علی ما خصصتموه لنا من وقتکم وکما تعلمون أنّ مؤتمر الحجّ العظیم یُقام فی کلّ عام علی أبهی صورة بحضور حشد غفیر من مسلمی العالم. نرجو أن تبیّنوا لنا کم مرّة تشرّفتم إلی حجّ بیت اللّه الحرام، ومتی کان أوّل سفر لکم إلی تلک الدیار؟

الشیخ الهاشمی: تشرّفت بحجّ بیت اللّه الحرام أربع مرّات حتّی الآن؛ مرّتان قبل الثورة، ومرّتان بعد انتصار الثورة. کنت فی السفر الأوّل شابّاً صـغیراً حینما عزم والـدی ووالـدتی علی الـذهاب إلی مکّـة. وبما أننی کنت أدرس العلوم الدینیـة وأعرف شـیئاً من اللغـة العربیة، وکان بإمکانی أن أکون لهما عوناً، فقد اصطحبانی معهما. وکان ذلک الحجّ نیابة عن شخص متوفّی من أقاربنا.

وصادف سـفرنا حینـذاک فی فصل الصـیف وکان الجوّ حارّاً، والمسـتلزمات الضـروریة لـدی القوافل قلیلة جدّاً. وکان السـفر یتّصـف بالمشقّة الشدیدة؛ إذ لم یکن هناک ماء وطعام بالقدر الکافی، ولم یکن النقل یجری علی النحو

ص: ۵۳

المطلوب. وخلاصة القول هى أنّ شؤون الحجّ كانت تدار إدارة ضعيفة.

وكان المطوّفون يؤذون الحجّاج كثيراً.

وفى المرّة الثانية ذهبت أيضاً على نحو مشابه لتلك الصورة، غير أنّ سفرى فى هذه المرّة كان برفقة بعض طلبة العلوم الدينية المتوائمين فكرياً، فكُنا أكثر ارتياحاً من هذا الجانب. بيد أنّ الوضع لم يختلف عمّا كان عليه فى السابق.

وعلى العموم فإنّ السفر إلى مكّة لم يكن قبل الثورة أمراً سهلًا.

: كم كان عمركم فى الحجّ الأوّل؟

الشيخ الهاشمى: أظنّ أنّ ذلك كان فى عام ۱۹۵۲ أو عام ۱۹۵۳ وكان سنّى فيه أقلّ من عشرين سنة.

: ما هو شعوركم فى أوّل مرّة وقد وقع فيها بصركم على بيت اللّه الحرام؟

الشيخ الهاشمى: لقد انتابنى شعور غامر؛ فالإنسان فى سنّ الشباب يتّصف عادةً بالشوق والاندفاع، وكنت طوال سفرى أُفكِّر فى كل لحظة وأتمنّى أن أرى الحرم والكعبة، وبعد رجوعى إلى إيران كنت كلّما أتوجّه نحو القبلة للصلاة أشعر وكأننى داخل الحرم، وبقى هذا الشعور يساورنى على نحو قوى. كان الحجّ فى تلك الأيّام من الأمانى التى قلّما تُنال.

وبعد انتصار الثورة ذهبت مرّة واحدة لأداء الحج الواجب، وكان آخر سفر لى فى العام الماضى لأداء العمرة.

: بما أنّكم تشرّفتم بزيارة مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة قبل وبعد

ص: ۵۴

الانتصار الباهر للثورة الإسلامية، ما هی التغییرات التی شاهدتموها فی إقامة شعائر الحج؟

الشیخ الهاشمی: فی تلک الأیام أیضاً کان الحجّاج یتّصفون بحالات روحیة ومعنویة طیبة، فهذه المشاعر لا تختص بحالة الحجّاج فی الوقت الحاضر. غیر أن هذا السفر کان له انعکاسات أکثر فی بناء الذات وتهذیب النفس بسبب المصاعب التی کانت تتخلّله. کُنّا فی تلک المرحلة نعیش فی أجواء التقیة، وکُنّا علی استعداد لتحمّل أیّ لون من ألوان الریاضة الروحیة.

کانت العربیة السعودیة تعانی حینذاک من أزمة شدیدة فی المیاه، وکُنّا مضطرین لشراء الماء حتّی لأغراض الغسل!

کانت القوافل تعانی صعوبة فی توفیر الطعام؛ إذ کان توفیر الطعام فی تلک الأجواء الحارة موکولًا إلی الحجّاج أنفسهم، أمّا فی الوقت الحاضر فقد أُخذ بنظر الاعتبار توفیر مستلزمات رفاهیة خاصّة للزوّار. ویوجد فی کل قافلة شخص أو عدّة أشخاص کمرشدین روحیین ینهضون بمهمّة تعلیم وإرشاد الحجّاج، وتوجد هناک أیضاً برامج ثقافیة وإعلامیة من قبیل توزیع النشرات باللغة الفارسیة للحجّاج الایرانیین.

وبعبارة أخری: أن وضع الحج حالیاً لا یمکن مقارنته بما کان علیه قبل الثورة. فی تلک الأیّام کان أکثر الحجّاج یتوجّهون إلی الحج وهم یحملون مشاعر الغربة، حتّی کان یُتخیَّل بأن التقشّف والریاضة الروحیة کانت جزءاً من مناسک الحجّ!

أمّا من حیث العلاقات الاجتماعیة والدینیة والسیاسیة فلم تکن الحالة المطلوبة هی الحالة السائدة فی حج ما قبل الثورة. لکن الحج اتخذ طابعاً سیاسیاً فی مقطع تاریخی تزامن مع جهاد الشعب الجزائری مثلًا. کان الجزائریون والفلسطینیون ناشطین فی الحج، وکانوا یجمعون التبرّعات

ص: ۵۵

للمجاهـدين ويوزّعون البيانـات فی الحرم، وکُنّا نشاهـد الجزائريين والفلسـطينيين يلقون الخطابـات الثوريـة هنا وهناک، وکان الکلام الذی نسـمعه هناک بمثابة شیء جديد متحف لنا. وکُنت أری فی ذلک الحين أنّ الحج مقرون بالسياسة. وکان يترآی لی أنّ المملکة العربية السعودية لا تمانع من قيام مجاهدی البلدان الاخری بنشاط إعلامی سياسی علی أراضيها. لقد اتّخذت تلک الشعائر السياسية فی الوقت الحاضر طابعاً أکثر رسمية وصارت تُعقد علی شکل «مراسم البراءة» وما شاکلها.

کـان يحصـل أحيانـاً أننا نتباحث مع علماء السنّة، وکانت أکثر النقاشات وتبادل الآراء يـدور حول محور المسائل الکلاميـة وکـذلک المسائل السياسية فی إطار جهاد الشعبين الفلسطينی والجزائری، علی اعتبار أنّهما کانتا تمثّلان القضيّتين الأساسيّتين فی العالم الإسلامی آنذاک.

والحقيقة هی أننی لم يکن لدی فی السفرين الأوّلَيْن استعداد کافٍ فی مجال المباحث السياسية والحکومية.

: سماحة الشيخ الهاشمی! بما أن عام ۱۳۷۸ ه. ش [وفقاً للتقويم الهجری الشمسی المتخذ فی إيران کتقويم رسمی للبلاد] قد أُعلن من قبـل قائـد الثورة بـاسم عـام الإمام الخمينی (قـدّس سـرّه)، يرجی من سـماحتکم أن تسـلّطوا الأضواء علی الرؤی العامّـة لسـماحة الإمام الخمينی ونظرته إلی مختلف أبعاد الحجّ.

الشـيخ الهاشـمی: للإمام الخمينی أقوال معروفـة بشأن الحـج. وقـد وصف الحـج ب «المؤتمر العبادی- السياسـی». هذا من ناحية، ومن ناحيـة أخری بما أنَّ سـماحته کان يحمل نزعـة تعبّديـة ويميل إلی العرفان والسـلوک، فهو کان يعير أهمّية کبيرة للأبعاد المعنوية لهذه الفريضة، ولا ينبغی أن يتوهّم أحد بأنّه

ص: ۵۶

کان یعطی الغلبة للمسائل السیاسیة فی الحج. وأنا إنّما أطرح هذا الادّعاء بناءً علی ما کنت أستوحیه من کلامه قبل الثورة. فأنا أتذکّر بأننا حینما کُنّا نتحدّث عن الحج فی مجالسه آنذاک، ما کان یرضی لنا بأن نعطی الحج نشاطاً سیاسیاً واسعاً بحیث یطغی علی المسائل العبادیة.

ولا زال یحضرنی أنّ سماحته کان یؤکّد علی هذا الحدیث، وهو أن الحاج یصبح بعد الطواف وکأنّه قد وُلِد من جدید. إذاً أقلّ ما ینبغی استحصاله من الحج هو أن یتطهّر الحاج ممّا لحق به من دنسٍ فی الماضی، وعند العودة إلی وطنه یبدأ حیاته من جدید بتلک الطهارة التی ولدته علیها أُمُّه.

أمّا بالنسبة إلی الأُفق السیاسی فی الحج فینبغی القول: إنّ الإمام الخمینی قد أحیا هذا الجانب الذی کان متروکاً. وممّا یسترعی الانتباه هو أن هذا البُعد قد دخل فی فلسفة الحج کحکم دینی ولیس بالضرورة کنظریة سیاسیة. والحج الحقیقی کان مقروناً بالسیاسة منذ بدایته، غیر أن هذا الجانب قد أُهمل منذ مدّة مدیدة، وبقی البُعد السیاسی للحج یجری علی نحو غیر رسمی، ویقتصر مجاله علی عدد محدود من القوی الثوریة والجماعات المجاهدة. بید أن هذا النوع من النظرة إلی الحج لم تکن شائعة بین عموم الناس. ولم یکن اتخاذ الحج کأرضیة للعمل السیاسی أمراً مقبولًا لدی الحکومات. وما کانت الحکومات ترجو من الحجاج الذین تبعثهم لزیارة بیت اللَّه سوی الاکتفاء بالمسائل العبادیة للحج.

وأنا أظنّ أن هذا التغییر الذی حصل فی نظرة الحکومات إلی فلسفة الحج کان من ابتکار الإمام الخمینی، ولکن کان له وجود سابق لدی الأحزاب والتیارات والحرکات السیاسیة التی کانت تستفید من الحج لأهدافها بسبب ما فیه من حشد جماهیری غفیر.

ولمّا کان الإمام الخمینی إلی جانب قیادته، مرجعاً للتقلید، فقد نفذ

ص: ۵۷

كلامه- ولحسن الحظ- فى أعماق قلوب أبناء شعبنا والكثير من أبناء الشعوب الأخرى، وأدّى إلى أن تصطبغ شعائر الحج بصبغة جديدة وذات طابع رسمى. ولكن من المؤسف أن هذا المكسب العظيم تلوّث بمسائل مثيرة للاختلاف والنزاع والتخاصم وغيرها من المشاكل والحوادث الأخرى التى خلقت معوّقات فى طريق تكامله.

وأعتقد لو أننا أرسينا أسس حركة البراءة هذه وفقاً لرؤية واقعية وبالتنسيق مع الحكومة السعودية وبعض الدول المؤثِّرة بحيث يحظى طرح المسائل السياسية للعالم الإسلامى وللقضايا الإسلامية الدولية فى الحج بقبول رسمى ولا يجابه معارضة من بقية الدول الإسلامية، فسيكون لها تأثير بنّاء إلى حدٍّ بعيد.

: لا شكّ فى أن مؤتمر الحج يشكّل أهم تجمّع إسلامى، وتشارك فى هذا الملتقى الإسلامى الواسع تيّارات شتّى من تيارات الثقافة الإسلامية وشخصيات يحملون رؤى مختلفة. فما هى فى رأى سماحتكم الفوائد المهمّة التى يمكن جنيها من شعائر الحج، خاصة فى المجال الثقافى؟

الشيخ الهاشمى: إننى اعتبر المعطيات السياسية لهذا السفر الدينى مهمّة إضافة إلى ما فيه من فوائد ثقافية. وعلى كل حال فإنّ المناخ الذى يوفّره حضور الحجّاج هناك يختلف عن الأجواء الفكرية والثقافية الاخرى؛ فالشخص الذى يتوجّه إلى بيت اللَّه الحرام لأداء مناسك الحج ينطلق من داره إلى هناك بنوع من الاستعداد والتأهّب لاستلهام الحقائق الثقافية والمسائل العرفانية والحياة المعنوية التى سيلقاها هناك. والجو الثقافى الذى يعيشه الحجّاج هناك يختلف عن الأجواء الثقافية الموجودة فى ملتقيات أخرى كالملتقيات الشعرية، أو المسابقات الرياضية أو المؤتمرات السياسية

ص: ۵۸

والاقتصادیة وما شاکل ذلک. فالحج یسوده مناخ خاص، والمستمعون فیه مستمعون أجلّاء. ولو أنّ البعض هناک یقلّلون من حدّة العصبیات القومیة والمذهبیة ویتحلّون بدل ذلک بروح متحرّرة؛ لأصبح ذلک المکان موضعاً للبحث الجاد فی سبیل اختیار الأفضل، ولتسنّی لبلدان العالم الإسلامی أن ترسل إلی هناک مفکِّرین یحملون رؤًی فکریة متباینة، لکی یطرحوا هناک الشؤون الثقافیة والاجتماعیة لبلدانهم فی أجواء ودیة وحرّة وبعیداً عن التعصّب والمطبّات التی تعترض سبیل التفکیر، امتثالًا لأمر وجادلهم بالتی هی أحسن واتخاذ الخطوات الجادّة لبلوغ وضع أفضل من خلال الحوارات البنّاءة المشفوعة بالتدبیر السلیم.

تعلمون أنّ العالم الإسلامی یعیش مشاکل کثیرة، ابتداءً من اندونیسیا وجزیرة تیمور، وإلی المغرب، والصحراء الغربیة، والجزائر، وایران، والعراق، وأفغانستان، وترکیا، وافریقیا، وأکثر بلدان آسیا الوسطی والقوقاز، بل لا یوجد لدینا أساساً مکان خالٍ من المشاکل.

وحتّی فی البلدان الغربیة کأمریکا واوربا حیث یعیش المسلمون کأقلّیة، یلاحظ أن المسلمین یواجهون هناک مشاکل من نوع خاص.

وحینما تؤخذ بنظر الاعتبار فرصة فریدة من نوعها اسمها الحج- وهی فرصة تُتاح سنویاً بشکل تلقائی وبدون حاجة للدعایة والإعلان، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار العمرة أیضاً تکون القضیة أشدّ حساسیة- فمعنی ذلک أننا نستطیع أن نقیم علی الدوام تجمّعاً عالمیاً ضخماً یتجدّد حُضّارُه باستمرار، بید أن موضوعاته یمکن تکرارها، ثمّ تدوّن نتیجة المناقشات وتطبع سنویاً ککتاب یوزّع فی کلّ مکان.

ویجب أن تتولّی العربیة السعودیة هذا العمل بصفتها الدولة المتولّیة للحج.

من حسن الحظّ أن علاقاتنا حالیاً مع المملکة العربیة السعودیة تسیر

ص: ۵۹

نحو التحسّن، والوقت مؤاتٍ حالیاً لنطرح أفکارنا علیهم، ونتوصّل إلی تنسیق فی هذا المجال. ویجب أن تشارک مصر أیضاً فی القرارات التی تتخذ بصفتها بلداً فیه جامعة دینیة ومفکّرون کثیرون. ولابدّ من أن تکون هناک نواة ثابتة تُؤخذ بنظر الاعتبار عند بحث المسائل وإعلان نتائجها النهائیة.

ولو تحقّقت هذه الغایة لاتخذت حصیلة العمل طابعاً مرکزیاً یتّسم باستعداد نفسی فرید لا نظیر له فی أیّ مکان من العالم ولا حتی فی منظمة الأمم المتّحدة.

تعلمون أنّ الامم المتّحدة یوجد فیها مندوبون رسمیون من جمیع البلدان ولهم مهام معیّنة. فی حین أن مرکز مؤتمر الحجّ یعقد إلی جوار منطقة مقدّسة سواء فی المدینة أم فی مکّة وهو غنی بخصائص وطاقات هائلة وفّرها الباری تعالی للعالم الإسلامی. فلو أننا تحرّکنا قلیلًا وتمکّنا من استغلال تلک الطاقات، واستفدنا من تلک البقعة بما یتناسب ومتطلّبات العصر، لوجد کلام الإمام الخمینی الذی اعتبر فیه الحج مؤتمراً مهمّاً ودائماً طریقه إلی حیّز التطبیق.

: أنتم علی بیّنة من أن لأعمال ومناسک الحج أسراراً ورموزاً کثیرة، نذکر علی سبیل المثال أن شعائر الطواف أو السعی بین الصفا والمروة أو الوقوف بعرفات لها معانٍ یستشعرها المرء بکلّ جلاء، وبما أنّ سماحتکم علی معرفة بمختلف الأدیان وشتّی الأفکار، نرجو أن تبیّنوا لنا الأسرار والرموز التی تستوحونها من شعائر الحج، وما هی الدروس التی نستقیها منها؟

الشیخ الهاشمی: سأجعل سفری الأوّل للحج أساساً للإجابة عن سؤالکم هذا، ومع أنَّ ذلک السفر مضت علیه مدّة طویلة، بید أن حلاوته لا زالت عالقة فی

ص: ۶۰

ذهنی. فالحاج یعتریه شعور جدید منذ اللحظة التی یتحرّک فیها من داره بقصد زیارة بیت اللّه. وعندما یکون فی الطریق ینهمک بقراءة أذکار معیّنة.

وعندما یرکب الطائرة ویلبّی یعلن التزامه بعهده مع اللّه طوال الطریق وعلی جمیع الأحوال، ویقطع عهداً علی نفسه بأن یکون عبداً مخلصاً للّه.

وتبقی هذه الحالة مهیمنة علی الإنسان منذ البدایة وإلی حین انتهاء مناسک الحج، وتقترن بحالات من الشدّة والضعف.

وأنا شخصیاً شعرتُ منذ لحظة ارتدائی لثیاب الإحرام بأننی دخلت عالماً جدیداً مختلفاً عمّا سَبَقه. فخلع الثیاب السابقة، والاکتفاء- بعد الاغتسال- بستر البدن بثوبی الإحرام یخلق لدینا شعوراً بالانقطاع عن جمیع الوشائج غیر الإلهیة، وأننا قد فوّضنا أنفسنا إلی اللّه وأننا عبید حقیقیون له. ومن المحتمل أنّ هذا الشعور وهذا الشغف یحصل للآخرین أیضاً.

فی المرّة الاولی التی سرتُ فیها نحو الحرم الطاهر لم أکن واثقاً هل خطواتی ستساعدنی علی المسیر ریثما أصل إلیه أم لا؟ تصوّر اللحظات التی أدخل فیها بیت اللّه ویقع فیها بصری علی ذلک البناء! تُعَدُّ حالات عرفانیة وثمینة جدّاً، ولکنّها فی الوقت ذاته لا دوام لها، ومن الممکن أن تتکرّر غیر أنّها لا تحمل سمتها الروحیة الأولی. شعرت فی اللحظة التی دخلتُ فیها من الباب الأخیر، ووقع بصری علی ذلک البناء الحجری بأننی لا أودّ أن أغمض عینی أو أُحوّل عنه بصری إلی مشهد آخر. وکنت لا أری قدمی إلّا بصعوبة بالغة.

عندمایطوف الحاج حول بیتاللّهأوّلمرّة، یری الحجر الأسود، ویشاهد مقام إبراهیم، وهذه المشاهد تسمو کلّها فی تلک اللحظة بروح الإنسان.

وهکذا الحال أیضاً فی المرّة الأولی التی یری فیها الحاج الصفا والمروة

ص: ۶۱

ومنى وعرفات؛ إذ تتسارع فيها دقّات قلبه. وأنا لا أرى- من الوجهة المعنوية- فارقاً بين هذه الأماكن. وأعتقد بأنَّ هذه المشاعر تبلغ ذروتها عندما يقع البصرُ على الكعبة ويكمن سرُّ ذلك كلّه فى الشعور بالارتباط الوثيق مع اللّه، واستشعار العبودية بين يديه. فى ذلك الموقف تمرّ المشاعر أمام عين الإنسان، ومتى ما بلغت نقطة معيّنة تعتريه عندها مشاعر جيّاشة ويواصل مسيرته؛ وهذا أشبه ما يكون برسم خط تصاعدى وتنازلى على ورقة.

إنّ زائر بيت اللّه الحرام يستلهم المعانى من رمال صحراء منى وحتّى من أبواب الحرم ومن المرايا والشمعدانات، ومن كلّ واحدة من تلك المفردات، توحى إليه بشعور معيّن. وأنا أتحدّث هنا عن تجربتى الشخصية فحسب، ولا أدرى إن كان الآخرون أيضاً تراودهم هذه المشاعر نفسها، خاصة فى بداية الدخول إلى ذلك المكان المقدّس، أم لا؟ لا يُستبعد أن كلّ شخص تبلغ مشاعره الدينية وعشقه الإلهى ذروته فى نقطة معيّنة بما يتناسب مع حالته وطبيعته.

وأقول فى ضوء ما مرّ ذكره: إننى لستُ بصدد إثبات أن نكتة جديدة قد انكشفت لى فى منى وعرفات والكعبة وما إلى ذلك، كلّا، ولكن كانت هناك حالة عرفانية دائمة ولكنّها عرضة للصعود والهبوط؛ ومثل ذلك كمثل إنسان يرتقى تلّاً ضمن سلسلة تلال؛ ثمّ ينحدر منه، فالمسير متواصل ولكن الحالات متغيّرة.

: لاحظنا فى السنوات الأخيرة حصول تغييرات كثيرة فى مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة. فما هو تقييم سماحتكم لها؟

الشيخ الهاشمى: إننى أرى فى هذه التغييرات شيئاً إيجابياً. وقد شاهدت مشاريعهم

ص: ۶۲

العمرانیة فی المرّة الأخیرة التی سافرت فیها إلی المملکة العربیة السعودیة.

وقدّم لی المهندسون والمعماریون توضیحات وافیة فی هذا المضمار، واطلعت علی تلک المشاریع وأهدافها. ففی ذلک السفر ذهبت إلی أحد المراکز العلمیة فی جامعة أُمّ القری، وأعتقد أنهم کانوا قد أعدّوا لی معرضاً خاصّاً یتضمّن مشاریعهم الموضوعة قید البحث من أجل الارتقاء بمستوی الخدمات التی تُقدّم للزوّار، وکمثال علی ذلک عرضوا دراساتهم حول بئر زمزم منذ بدایة ظهوره، وحینما یدقّق الناظر فیه یعرف حتی سبب ارتفاع وانخفاض ماء زمزم، وما هی العوامل المؤثّرة فیه، وعرضوا أمام أنظار المتفرّجین طروحات لتقلیل شدّة الزحام فیما یخصّ رمی الجمرات والمشاکل التی تواجه الحجّاج بسبب کثرة العدد. وکان هناک کلام حول العدد المتزاید للحجاج سنویاً، وأن وجود مثل هذا العدد فی بلد واحد یؤدّی إلی حدوث بعض المضاعفات. ثمّ طُرحت علی بساط البحث کیفیة الاستفادة من أوقات السنة الأخری حیث یقلّ الازدحام. وبعد اطلاعی علی تلک المشاریع أدرکت بأنَّ الحکومة السعودیة تعمل برغبة وشعور بالمسؤولیة.

ومن جملة الأعمال الباهرة التی أنجزوها ویمکن أن یُضرب بها المثل هو توسیع الحرم والشوارع المفضیة إلیه. وأنجزوا فی منی مشروع نقل الماء الحلو، ومخازن ضخمة ومنشآت هائلة لتحلیة میاه البحر، وقد شجّروا أماکن کثیرة من منی وعرفات، وکانوا یفکّرون بإنشاء أبنیة بدلًا من الخیام التی کانت علی الدوام سبباً للمشاکل. إلّاأن النکتة الجدیرة بالالتفات هی أن هذه الأبنیة یُستفاد منها مدّة ثلاثة أیّام فقط وتبقی سائر أیّام السنة خالیة لا یُستفاد منها. واستقر رأیهم فی نهایة المطاف علی أن نصب الخیام أفضل! علی أن تکون خیاماً مجهّزة وکفیلة بتوفیر الراحة للحجاج والحیلولة دون حدوث مخاطر.

ص: ۶۳

وقاموا بأعمال كبيرة فی المدينة المنوّرة على جوانب الحرم الشريف.

وأنشأوا خارج المدينة تأسيسات للتهوية تمتدّ إلى مسافة سبعة أو ثمانية كيلومترات تحت سطح الأرض وتنتهی بمرأب للسيارات، وهو عمل جدير بالمشاهدة. كما وتوجد لديهم مشاريع لتوسيع جوانب الحرم الشريف. وأعتقد أنّ خطواتهم فی هذا المجال محسوبة ومنطقية فی ضوء الإنفاق السخی الذی يبذلونه فی هذا المجال، وانطلاقاً من المشاريع الموضوعة قيد التنفيذ.

: تعدّ صيانة الآثار الوطنية والدينية من جملة الأمور التی تُخصص لها استثمارات هائلة فی العالم كلّه. وقد لاحظنا فی السنوات الأخيرة أن تلك الآثار المذكورة قد دُمّرت أو أصبحت معرّضة للأفول بفعل زحف المشاريع العمرانية. فما العمل الذی ينبغی القيام به- فی رأی سماحتكم- من أجل أن تتواصل مشاريع العمران إلى جانب الحفاظ على الآثار الدينية القيّمة؟

الشيخ الهاشمی: لقد وضعتم اصبعكم دقيقاً على نقطة ضعف الحكومة السعودية، وقد نبهتُهم إلى هذا الموضوع أيضاً. عندما كُنّا فی الرياض أخذونا لمشاهدة قلعة كانت قد سقطت فی أيدی آبائهم السعوديين عندما أرادوا البدء بمحاربة خصومهم. وهذه القلعة موضوعة حالياً تحت حراسة مشدّدة وهم يحفظون حتّى بعض التفاصيل التاريخية عن الطرق التی دخلوا منها والمعارك التی دارت فيها. وبعد الانتهاء من زيارة تلك القلعة المثيرة كتبتُ فی دفتر المذكّرات الذی وضعوه هناك: أنّ الحفاظ على مثل هذه إجراء جدير بالثناء، ويا حبّذا لو يجری على الأماكن الأخرى فی هذا البلد.

يوجد فی كل شبر من أرض المدينة المنوّرة أثر ومَعْلَمٌ من عهد

ص: ۶۴

رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، وهناک ملیارد ونصف ملیارد مسلم مشدودة أبصارهم إلی هذه الأرض ویعشقونها من أعماق قلوبهم. فالأماکن التی جلس فیها الرسول صلی الله علیه و آله و سلم أوقام فیها بعمل تاریخی معیّن، وکذلک دُور الصحابة والتابعین والأئمّة المعصومین ینبغی أن لا تُهمل وتتعرّض للتخریب علی مرّ الزمان.

ومن جهة أخری اثرتُ هناک مبحثاً حول ما یُستشفُّ من القرآن الکریم من وجود آثار للأنبیاء السابقین فی العربیة السعودیة، أَلا ینبغی السعی فی سبیل إحیاء تلک الآثار واستخراجها من تحت الأرض؟ ألا یجب أن یجری إعداد تعریف بها وتقدیم دعوة عامّة إلی العالم الإسلامی لزیارتها؟ ومن المؤسف أن هذه الإجراءات لم تُنفَّذ، ویُعزی أحد أسباب ذلک إلی أننا لم تکن لدینا علاقات سلیمة مع المملکة العربیة السعودیة. ولو کانت لدینا فی السنوات السابقة مثل هذه العلاقات الحسنة الموجودة حالیاً مع هذا البلد؛ لکُنّا قد استطعنا المشارکة فی مشروع توسیع الحرم. ومن المؤسف أن بعض الآثار التاریخیة فی هذا البلد قد مُحیت من الوجود کلیاً ولا توجد إمکانیة لإعادة بنائها. ولکن یمکن بطبیعة الحال بناء أماکن مشابهة لها فی مواضع أخری، وقد عرضت علیهم هذا الاقتراح.

وأنا أعتقد بإمکانیة الحفاظ علی تلک الآثار التی تُعدُّ بمثابة هویة للعالم الإسلامی، إلی جانب مواصلة تجمیل المدن، ولکن توجد هناک فی السعودیة قیود فی هذا المجال وذلک بسبب وجود مذهب خاص وبسبب الرؤیة التی یحملها علماؤهم. وأنا لم تسنح لی الفرصة الکافیة للتباحث مع علمائهم. وهذه واحدة من النقاط التی یجب القیام بها حیث ینبغی أن نتباحث مع علمائهم ونثبت لهم أنّ العنایة بالبقاع الشریفة لا تُعتبر شرکاً أو عبادة أوثان. ولا ریب فی أنّ التباحث مع العلماء السعودیین والتوصّل إلی نقطة مشترکة من خلال هذه المباحث یعدّ أمراً واجباً وملحّاً.

ص: ۶۵

لا تواجه العربیـة السـعودیة مشـکلة مالیـة فی هذا المجال. وحتی إذا کانت لدیها، یمکنها أن تدرجها فی جدول أعمال منظمة المؤتمر الإسـلامی، کی تخصـص البلـدان الأخری مبالغ لغرض إحیاء الآثار التاریخیـة فی هـذا البلـد علی اعتبار أن هـذه المسألـة تخصّ العالم الإسلامی کلّه.

وعلی کـل الأحوال فأنا أظنّ تعصّب الزعماء السـعودیین أصـبح أقلّ علی إثر المباحثات التی أجریناها معهم، أو لأنّهم اکتسـبوا علی مرّ الزمن رؤیة أکثر انفتاحاً، وسنشهد فی المستقبل تطوّرات علی هذا الصعید بإذن اللّه.

: نظراً إلی أنکم تتحدّثون عن الحج وأعماله باندفاع وحماس فائق، وحینما تتحدّثون یبدو التأثر واضـحاً علیکم، سؤالنا فی هذا المجال هو:

فی أی أعمال الحج یبلغ الحج ذروة عظمته فی رأیکم؟

الشـیخ الهاشـمی: تجربتی الخاصّـة کما أشـرت سابقاً هی أننی انتابنی شـعور خاص عند ارتداء ثوبی الإحرام، وبقی هذا الشـعور یرتفع حیناً وینخفض حیناً آخر.

وفی الکعبـة وعرفات ومنی تبرز مثل هـذه الحالة أیضاً؛ خاصة فی منی. کان المبیت فی ذلک المکان مرهقاً جدّاً فی العام الذی ذهبتُ فیه، ونتیجـة لـذلک الإرهاق تتسامی روح الإنسان، غیر أن الذروة النهائیة وقمّة هذا المنحنی الافتراضـی تکون عند رؤیة الکعبة. وهذه تجربتی الذاتیة. ولعل تجربة الآخرین تکون علی نحو آخر.

: کانت إحـدی رؤی الإمام الخمینی للحـج هی إیجاد الوحـدة الإسـلامیة وإزالة أسـباب التوتّر، فکیف تقیّمون نجاح سـماحته فی هذا المیدان؟

الشـیخ الهاشـمی: عندما ذهبنا إلی مکّة قبل انتصار الثورة کُنّا قلقین حول کیفیة أداء الأدعیة والأعمال الخاصّة بالشیعة، وکانت تساورنا هواجس حول جواز

ص: ۶۶

أو عدم جواز المشارکة فی صلاة الجماعة للسُنّة.

ومن دواعی السرور أن سماحة الإمام الخمینی قد اقتلع هذه الهواجس من نفوسنا بسلاح الفتوی، وذلک بقوله: عندما تذهبون إلی هناک نحّوا النزعات المذهبیة جانباً وشارکوا فی صلاة جماعتهم وتصرّفوا مثلهم کی لا تکونوا مدعاة للفرقة... فجعل الحجّ أطیب طعماً عبر ما أبداه من تسهیلات فی هذا المجال.

وأری لزاماً علینا هنا أن نعرب عن تقدیرنا لآراء الإمام رحمه الله، ومن بعده للمراجع الآخرین الذین قدّموا فتاوی بالترخیص والتخفیف. ونحن لا نواجه فی الوقت الحاضر مشکلة فی هذا الجانب. وشباب الیوم أقل معرفة بالهواجس المثیرة للاضطراب التی کان یعانی منها حجّاج الأمس.

: کیف تقیّمون دور فتوی سماحة الإمام بشأن تعامل الإیرانیین مع سائر الحجّاج؟

الشیخ الهاشمی: کان لها تأثیر فاعل فی تخفیف حدّة الفرقة والاختلافات. وأدرک جمیع الناس بأنَّ الاتحاد وتآلف القلوب ینطوی علی قیمة أکبر من الجمود علی ظواهر بعض مناسکنا. وهناک طبعاً من یذهب إلی القول بأننا یجب أن نعطی الأصالة لهذا الجانب فی حین أن الأمر لیس کذلک.

: لاحظنا فی السنوات الأخیرة أن العلاقات الایرانیة السعودیة شهدت تطوّراً باهراً، وأخذت تسیر نحو التحسّن، وکان لسیادتکم دور أساسی فی ذلک. نرجو أن تبیّنوا لنا کیفیة بلورة هذا التطوّر ومدی ضرورته؟

الشیخ الهاشمی: قررت منذ أن أصبحت مسؤولًا تنفیذیاً أن أتعامل مع المملکة العربیة السعودیة من باب الصداقة. وکان واضحاً لدیَّ بأنّنا لو کانت لنا

ص: ۶۷

علاقات طیبة مع السعودیة وکانت هناک ثقة متبادلة بیننا، لکانت الأمور تسیر علی نحو أفضل فیما یخص قضایا النفط، والحرب، والتطوّرات السیاسیة فی المنطقة والنشاطات الدینیة والتعلیمیة التی نمارسها فی العالم.

بدأت نشاطی فی هذا الاتجاه منذ مؤتمر قمّة البلدان الإسلامیة الذی عقد فی السنغال. حیث کان الأمیر عبداللّه هناک، وتقرّر أن یجری لقاء بیننا. کان من المقرّر فی البدایة أن یأتی هو إلی الجناح الذی کنتُ أنا فیه من قاعة المؤتمر. ولکن اتّضح لاحقاً بأنّه کان یتوقّعنی أن أذهب أنا إلیه! وذهبت أنا إلیه وکان دافعی إلی ذلک سبب واحد وهو شعوری بأنّ هذا التنازل سیساعد علی تحسین العلاقات. ووجهت هناک دعوة إلی الملک «فهد» لزیارة ایران، ولکنّهم قالوا: بأنّه یعانی من مشاکل صحّیة فی رجله ورکبته ویتعذّر علیه السیر.

وعلی العموم فقد کنت طوال عهد مسؤولیتی مهتّماً بحلّ المسائل العالقة بین ایران والسعودیة. ولکن کانت هناک معوّقات ظاهریة من قبیل «مراسم البراءة»، وأخری خفیة تتمثّل فی العراقیل التی کانت تضعها أمریکا والآخرون علی هذا الطریق.

إلّا أنَّ الرسائل والزیارات المتبادلة کانت متواصلة ممّا أدّی إلی زوال حالة التنافر وإلی ترطیب أجواء العلاقات. وبلغ هذا النجاح ذروته فی إسلام آباد فی باکستان وفی آخر اجتماع لرؤساء بلدان المؤتمر الإسلامی، حیث کنّا قد اتّفقنا أنا والأمیر عبداللّه مسبقاً علی عقد لقاء بیننا. ولکن کان من المتوقّع أن یأتی هو إلیَّ هذه المرّة فی ضوء ما حصل فی اللقاء السابق حیث کنتُ أنا الذی ذهبت إلیه فی السنغال. ووصلنی الخبر بأنَّ الأمیر عبداللّه ینتظرکم! فقلت: نحن ننتظر أن یأتی هو.

ص: ۶۸

ومع ذلـک نهضتُ من مکـانی وذهبتُ إلی قرب غرفته، وفجـأةً خرج هو من غرفته وقـال: أریـد المجیء إلی غرفتک! قلتُ: لا فرق فی ذلک، ها أنا ذا قـد جئت الآن! هذه أیضاً غرفتنا. ولکنّه لم یوافق. ویبدو أن المعتمدین الذین کانوا ینقلون الرسائل الشـفویّة بین غرفتینا قد أخطأوا وألغوا الموعد الأوّل الذی کان من المقرّر أن یأتی فیه الأمیر عبداللّه إلی غرفتی. وقد یکون لذلک العمل سبب آخر.

وعلی کل حال، حینما وصلت الامور إلی هذا الحدّ، جاء هو إلی غرفتی وتحدّثنا هناک حول جمیع القضایا بشکل صریح. وکان أحد الموضوعات الأساسیة التی تحـدّثنا حولها هو أن یعقـد المؤتمر القادم لزعماء البلدان الإسـلامیة فی طهران. والعجیب فی ذلک هو أن البیان الذی صدر فی جدّة قبل ذلک اللقاء بیوم واحد کان قد عیّن مکاناً آخر لعقد المؤتمر القادم.

فطرحت المسألـة علی الأـمیر عبـداللّه فی ذلـک اللقاء وطلبت توضـیحاً لـذلک الموقف. وکان وزیر خارجیتهم موجوداً واسـتطعنا حلّ المسألة هناک.

وکانت تلک هی الثمرة الأولی لذلک اللقاء. وبعد ذلک حلَّ موعد الغداء وکُنّا فی حینها ضـیوفاً علی السـیّد نواز شریف رئیس وزراء باکسـتان آنـذاک، وفی تلک الأثناء رکب ولی العهد السـعودی فی سـیارتی وخرجنا وسط أجواء مثیرة مدهشة، وشاهد عدد کبیر من الأشـخاص هـذا الحـدث النادر. فأنتم تعلمون بأنّ للشخصـیات حمایة وموکب شـرف وکوکبة ومرافقین. إلّاأنّه ترکها کلّها ورکب فی سیـارتی، وکـان عمله هـذا خلافاً للأعراف السائـدة، وجاء کثمرة لـذلک الاجتماع الودّی والصـریح. وهو موقف لم یبق خافیاً علی من شاهدوه.

ومنذ ذلک الحین لاحظت أن الکثیر من المسائل التی کانت عالقة بیننا قد حُلَّت. وقرّر ولی العهد السـعودی بعد ذلک أن یدعم مؤتمر طهران، وجاء

ص: ۶۹

إلى طهران، وأُتحيت لنا الفرصة للتحدّث مع بعضنا أكثر. وساعد سفرى إلى المملكة العربية السعودية وسفر السيد الخاتمى إليها على إكمال هذا الشوط إلى حدٍّ بعيد.

: ما هى فى رأى سماحتكم التأثيرات التى تتمخّض عن توسيع العلاقات الايرانية السعودية، على الصعيد الدولى، خاصة فيما يتعلّق بالاستفادة من الحج إلى أقصى حدّ ممكن؟

الشيخ الهاشمى: تقييمى لهذا الجانب هو أنّ تحسين العلاقات بين ايران والسعودية يُعتبر ضرورة؛ لأنّ تعاون هذين البلدين يُعتبر أهم قاعدة لتقوية مواقف العالم الإسلامى على الصعيد السياسى والاقتصادى والأبعاد الأخرى.

والواقع هو أن أصدقاءنا وأصدقاء السعودية مُختلفون فى وجهات نظرهم، وتقليص الهوّة الفاصلة بيننا وبين السعودية ستكون له معطيات إيجابية فى الأوساط والمؤتمرات الدولية، وأحد تلك المعطيات يتعلّق بقضية النفط.

فقد لاحظنا أن جشع مستهلكى النفط وكيفية عرضه وطلبه فى الأسواق العالمية أدّى إلى هبوط قيمته إلى أقلّ من عشرة دولارات للبرميل الواحد. وهذا غبن فاحش للدول المنتجة للنفط خاصة للدول الإسلامية المطلّة على حوض الخليج الفارسى؛ لأنّ قوام وجودها مرتبط بهذه المادّة الحيوية. وقد أدّى تحسين العلاقات بين طهران والرياض إلى حلّ الكثير من المشاكل، وإلى تقليل حدّة التوتّر فى الخليج الفارسى.

قضية العراق مهمّة جدّاً بالنسبة لنا، ولو أننا تعاونّا لسكنت بؤرة التوتّر هذه فى المنطقة.

أمّا القضية الأساسية التى لم نتناولها على نحو جاد حتّى الآن فهى القضية الفلسطينية؛ إذ يوجد اختلاف طفيف فى وجهات النظر فى هذا المجال. ولو

ص: ۷۰

كان بيننا تعاون جاد بشأن القضية الأفغانية لما شاهدنا الوضع القائم حالياً.

وأعتقد أن تعاوننا بنّاء فى الكثير من قضايا العالم الإسلامى. ونأمل بتحقيق بعض النجاحات تدريجياً من خلال البحث وإقناع بعضنا الآخر.

وقد تحدّثت مع ولى العهد السعودى حول هذه الموضوعات فى الاجتماعات الخاصّة الودّية التى عقدناها. والأوضاع تسير نحو الأفضل تدريجياً.

: من المؤسف أن ايران والسعودية لم تكن بينهما فى السنوات الأخيرة علاقات على صعيد الأوساط العلمية والدينية والمذهبية، وقد لحقتنا بسبب ذلك خسائر كبيرة. فما هو رأيكم فى ذلك؟ وما مدى الأهمّية التى تعيرونها لإيجاد هذه العلاقة؟ وما هو اقتراحكم فى هذا الصدد؟

الشيخ الهاشمى: الأمر كما تقولون. ففى الوقت الحاضر لم يحصل تقارب خاصّ مع المملكة العربية السعودية على النطاق العلمى؛ سواء على صعيد الطاقات العلمية الجامعية أم على صعيد علماء الدين، بنفس المستوى الذى حصل فيه تقارب على مستوى العلاقات بين رجال الدولة والشخصيات السياسية. وأنا أعتقد بوجوب وضع برنامج يتيح لعلماء كلا البلدين لقاء بعضهما الآخر والتحاور بعيداً عن التعصّب من أجل تقريب وجهات نظرهم. فعلماء الدين فى كل من ايران والسعودية كان لهم دور مؤثّر فى بلدهم، وهناك ضرورة محسوسة للتقارب بينهما. إن دعامة العلاقات السياسية والاقتصادية الموجودة بيننا وبين السعودية هو التعاون الدينى، ويبدو موسم الحج فرصة مناسبة لتحقيق هذه الغاية. وعلى علماء الدين الذين يذهبون من ايران إلى الحجّ فى كل عام أن يتّخذوا الإعدادات الكفيلة بإقامة علاقات مع العلماء العرب ودعوتهم للسفر إلى ايران

ص: ۷۱

وزیارة مدن کمشهد وقم ومشاهدة حوزاتنا وجامعاتنا. فأنا لازلت استشعر فی نفسی تأثیر زیاراتی للجامعات والمراکز العلمیة فی المملکة العربیة السعودیة، حتّی إنّ هذا الشعور یزداد لدیّ أحیاناً.

: منذ سنوات وهناک کلام یدور هنا وهناک حول جعل مسؤولیة نقل الحجّاج إلی الدیار المقدّسة بعهدة القطاع الخاصّ بعد أن کان هذا الأمر بید الدولة (منظمة الحجّ والزیارة) ألَن یکون فی تطبیق هذه الفکرة- نظراً للظروف الخاصّة للمملکة العربیة السعودیة- ضرر لنا، إضافة إلی الأضرار التی لحقتنا من جرّاء تبنی القطاع الخاصّ سفر الزوار إلی سوریا؟

الشیخ الهاشمی: لست علی اطّلاع بمدی اثارة هذه المسائل. والکیفیة التی یُدار فیها الحج إلی الآن مرضیة لنا وللحجّاج وللمملکة العربیة السعودیة؛ حیث کانوا یقولون لنا فی السعودیة: بأنّ حجَّ ایران أکثر نظماً من حج جمیع العالم الإسلامی، ویُعزی هذا النظم إلی أنّ الدولة هی التی تتولّی إدارة شؤون الحجّ. ونحن لا ننظر إلی هذه القضیة بمنظار اقتصادی، إضافة إلی أننا نراعی جمیع الجوانب فی القضیة الاقتصادیة؛ فنحن لا نتقشّف فی الإنفاق إلی الحدّ الذی یحول دون رفاه الحجّاج ورضاهم، ولا ننفق إلی حدّ الإسراف.

الخلل الوحید البارز للعیان هو أنّ بعض الأشخاص سجّلوا أسماءهم للحجّ مبکّراً، وبعض آخر من الناس لا یستطیعون الذهاب إلی الحج فی السنة التی تتوفّر لهم فیها الاستطاعة. ویجب علینا العمل لحلّ هذه المعضلة.

فی السابق لم یکن من الممکن لنا التفاهم مع الحکومة السعودیة. غیر أن إمکانیة هذا التفاهم أصبحت متوفّرة لدینا فی الوقت الحاضر. وعلینا أن نسعی للوصول إلی مرحلة إرسال الحاجّ إلی مکّة فی السنة التی یرغب

ص: ۷۲

فیها. وعلی العموم فنحن- وکما أشرتم- لا نحمل ذکری طیّبة عن تجربة خصخصة السفر إلی سوریا.

: من جملة المکتسبات الکبری التی تمخّضت عن زیارتکم إلی الحرمین الشریفین هی أنّکم وفقتم للدخول إلی داخل الکعبة وضریح الرسول صلی الله علیه و آله و سلم. نرجو أن تبیّنوا لنا ما هو الشعور الذی راودکم أثناء دخولکم إلی تلک الأماکن؟ واشرحوا لنا الوضع فی داخل هذین المکانین المقدّسین. فرؤیة هذه الأماکن سعادة کبری قلّما ینالها شخص.

الشیخ الهاشمی: الحقیقة هی أنّ اللّه تعالی مَنَّ علیَّ بهذا التوفیق نتیجة لکثرة الدعاء.

فحینما دخلت ضریح الرسول صلی الله علیه و آله و سلم فقدت صوابی، ولم ألتفت إلی المسائل والدقائق التی یلتفتُ إلیها السائح عادةً. وفقدت نقوش الباب والجدران وشکل الضریح والستائر والسقف وأمثال ذلک أهمّیتها عندی. ولهذا السبب لم یبق شیء منها عالقاً فی بالی، وکلّ من سألنی عن شیء بهذا الخصوص بعد سفری ذاک، لم یکن لدیّ جواب أُقدّمه له. وهذه الحالة تختصّ طبعاً بمن یسافر إلی تلک الأماکن للمرّة الأُولی. أمّا فی المرّات اللاحقة فالقضیة تصبح عادیة تقریباً. ویعود سبب ذلک إلی أن المرء یشعر فی الزیارة الأولی وکأن أمنیة بعیدة المنال کان قد أقنع نفسه بتصویرها فی ذهنه عمراً طویلًا، قد تحقّقت أمام عینیه. ولکن هذه الحالة تصبح عادیة فی المرّات اللاحقة.

وعندما دخلتُ إلی الکعبة، کنتُ بصدد أداء الأعمال والمناسک الواردة فی هذاالخصوص، إذ من‌المستحب الصلاة فی عدّة نقاطمن ذلک المکان المقدّس.

وقمتُ بأداء ذلک العمل. وقد شعرتُ فی ذلک الموقف بسکینة خاصّة. وبعد الانتهاء من الصلاة، أخذت أتأمّل الآفاق المعنویة الموجودة فی ذلک

ص: ۷۳

المكان. فقد كان الجلال المعنوی هناك خليقاً عندی بالنظر والمشاهدة.

وقد راودنی شعور مشابه لهذا الشعور فی ضريح الرسول صلی الله عليه و آله و سلم؛ إذ كان هناكمرقدالرسول صلی الله عليه و آله و سلم وإلیهناك منه بيت السيّدة الزهراء عليها السلام أو قبر تلك السيدة الكريمة. وإن كانت الكتابات غير قابلة للقراءة بسبب ظلمة المكان.

وعند دخول البقيع انتابتنا حالة من نسيان الذات أيضاً، وقادتنا أقدامنا لا إرادياً نحو أقرب مسافة إلی قبور الأئمّة المعصومين، وجلسنا هناك علی الأرض.

: منذ سنوات والبقيع باقٍ علی حالته هذه. وأنتم تعلمون أنّ هذا المكان يؤلم قلب كلّ مسلم بسبب هذا الوضع الذی يظهر فيه أمام أعين الزوّار.

فهل تحدّثتم مع المسؤولين السعوديين حول إعادة بناء البقيع، وإذا كان ردّهم إيجابياً فما الذی قالوه فی هذا المجال؟

الشيخ الهاشمی: نعم تحدّثت مع الكثير من المسؤولين هناك. وقلت لهم: إنّكم تصرّفتم وفقاً لعقيدة علماء يحملون أصولًا غير منطقية، وعقيدتهم غير مقبولة لدينا، وتركتم هذه المقبرة علی حالها هذا. وهذا الوضع يؤلم الملايين من الشيعة المحبّين لأهل البيت الذين يأتون إلی هنا من أقصی بقاع العالم ويشاهدون هذا المشهد. فما الذی تجنونه من هذا الألم؟ إنّ هذا يمنع وحدة العالم الإسلامی ويتسبّب فی إيذاء قلوب المسلمين. وأضفتُ قائلًا: لدينا اطروحة معتدلة فی هذا الخصوص. وهی أن تأذنوا لنا برصف ساحة مقبرة البقيع بحجر ايرانی ونبنی حائطاً حول قبور الأئمّة، ونبنی ظلّاً للزوّار علی مسافة معقولة من المقابر.

ولم يقدّم لنا المسؤولون ردّاً سلبياً، وإنّما أوكلوا الأمر إلی موافقة العلماء.

وكنتُ راغباً فی التحدّث مع كبار العلماء فی السعودية حول هذا الموضوع.

ص: ۷۴

وفی مکّة تحدّثت مع متولّی الحرم وإمام الجمعة وکان شخصاً متنوّراً إلی حدٍّ بعید، ووجدته شخصاً یقبل التفاهم. ولکن أُعلِن وجوب استحصال رأی العلماء الأصلیین من أهل الفتوی مثل «ابن باز» فی هذا المجال. وقد وضعوا مقابلته ضمن جدول أعمالی، إلّاأنّ تلک المقابلة لم تتمّ.

ویبدو أنّهم لم یأخذوا انطباعاً حسناً عن الفکرة التی قدّمناها حول إصلاح ظاهر مقبرة البقیع، ولم یحصل لقاء حتّی مع العلماء الآخرین، وبقیت القضیة معلّقة. ومعنی هذا أنّها تحتاج إلی فرصة أخری.

وتحدّثت معهم أیضاً حول مقبرة «أُحد». فهذا المکان الذی یعتبر مزاراً للشهداء، لا یبدو مشهده لطیفاً. وبعد رؤیتی لذلک المکان قُلتُ للمسؤولین المعنیین: إنّکم لم تتصرّفوا مع المزارات الأخری علی هذا النحو. فما ضرَّ لو أوجدتم هنا أجواءً یمکن تحمّلها؟

: أثناء وجودکم فی المدینة المنوّرة ومشارکتکم فی صلاة الجمعة، أورد خطیب الجمعة فی صلاته بعض المطالب المهینة، وقد واجه ردّ فعل من قبل سماحتکم. ونحن نرغب فی سماع أصل القضیة من لسانکم- إن رأیتم مصلحة فی ذلک- لتدوّن فی التاریخ، ولیطّلع علیها قرّاء مجلّة «میقات الحجّ».

الشیخ الهاشمی: نعم، لقد کانت تلک القضیة مریرة، إلّاأنّ خاتمتها کانت طیّبة. فقد وصلنا فی ذلک الیوم إلی صلاة الجمعة ونحن فی حالة تعب مفرط من جرّاء السفر، ولم یکن لدینا غرض سوی الإسهام فی التقارب والوحدة. وجلسنا کما هو المعتاد لسماع الخطب؛ غیر أن خطیب الجمعة تکلّم فی أثناء خطبته بکلام غیر صحیح. وکان یجلس إلی جانبی أحد الوزراء فی الحکومة السعودیة، وکان یرافقنی عادة، فقلت له: «نظراً للکلام الذی قاله هذا

ص: ۷۵

الشخص، فنحن لا یمکننا الصلاة خلفه».

فقال الوزیر: «وأنا أیضاً لا أری تبریراً لهذا العمل».

کنتُ فی شکّ هل ذلک الخطیب قد انتبه أصلًا إلی مجیئی أم لا؟ لأنّ المسجد کان یغصُّ بالحاضرین، وکانوا قد حجزوا لنا مکاناً من قبل.

فنهضنا وذهبنا إلی غرفة مخصّصة لنا من غرف الحرم، وصلّینا مع الایرانیین والعرب الذین جاءوا معنا إلی الغرفة. ولم أنطق بعد ذلک بکلمة واحدة حول ذلک الموضوع. إلی أن جاءنی عالم من العلماء المتولّین لشؤون الحرم وقال لی: «هذا هو دأبه، وهو یتحدّث کما یشاء من غیر أن یأخذ سیاسة الدولة بنظر الاعتبار، فلا تضمروها فی قلبکم، وکونوا علی ثقة بأننا لن نترک هذا العمل بلا جواب، ونحن نشعر کأننا نحنُ أُهِنّا أیضاً.

والإساءة إلی الضیف جرم قبیح فی عاداتنا».

وبعد ذهابنا إلی الفندق اتصل بی الأمیر عبداللّه هاتفیاً وأعرب عن کامل أسفه، واعتبر کلام خطیب الجمعة تصرّفاً فردیاً صریحاً وإهانة للمسؤولین السعودیین. وقد حاولت التخفیف من شدّة غضب ولی العهد السعودی، فقلت:

«نحن ندرک حالات علماء الدین أکثر منکم، ونعلم أنّه تقع من بعضهم أمثال هذه الامور». فأکّد لی مرّة أخری بأنّکم ستشاهدون لاحقاً بأننا لا نتحمّل توجیه إهانة لضیوفنا، أو تصرّفاً مخالفاً لسیاستنا. والحقیقة أنّهم وفوا بعهدهم، مع أننا لم نطلب منهم متابعة القضیة.

: نرجو أن تبیّنوا لنا شیئاً من الذکریات المثیرة والمسائل المهمّة التی وقعت لکم فی سفرکم إلی المملکة العربیة السعودیة.

الشیخ الهاشمی: کان سفری إلی العربیة السعودیة طویلًا وکانت جمیع مراحله

ص: ۷۶

مثیرة. فقد عَنتْ لی أثناء زیارتی لمنی وعرفات اطروحات عرضتها علیهم، وکان بعضها موضع قبول لدیهم. وکان السفر إلی منطقة «أصحاب الحجر» فی العُلی سفراً جمیلًا عندی؛ حیث کان ذلک المکان موضع وقوع بعض قصص القرآن، وکنت راغباً فی مشاهدة ذلک المکان عن کثب. فالبیوت التی کانت منحوتة فی الجبال، والمکان الذی خرجت منه ناقة صالح، وبقاء المکان علی تلک الهیئة لیکون عبرة للآخرین کانت خلیقة بالمشاهدة. وقد سمعت أن المکان المذکور قد ازدهر وکثرت زیارة الناس له بعد زیارتنا لتلک المنطقة وإذاعة خبر تلک الزیارة.

کنتُ أطّلع طوال سفری علی المشاریع الاقتصادیة فی السعودیة وأوضاع الجامعات هناک. والحقُّ أقول: إنّ لدی السعودیین جامعات جیّدة وقد أحرزوا تقدّماً مشهوداً. وقد زرتُ مستشفیاتهم المجهّزة وحرسهم الوطنی وهو أشبه ما یکون بحرس الثورة الإسلامیة لدینا، ویضطلع هناک بمهمّة الأمن والمخابرات. وتعاملوا مع الاستیضاحات المتعلّقة بتلک الأجهزة الأمنیة برؤیة منفتحة تَنُمُّ عن مستوی صداقتنا وثقتهم بنا. وتحدّث قائد ذلک الحرس الوطنی وهو نجل الأمیر عبداللّه خلال اجتماع أُقیم فی قاعة واسعة وضمّ کبار القادة وحضرناه نحن أیضاً، وقال أثناء حدیثه: «قال لی أبی أن أجیب عن جمیع أسئلتکم». وقد حاولت أن أتجنّب طرح الأسئلة التی کانت الإجابة عنها أمام ذلک الحضور تنطوی علی محذور بالنسبة لهم، وترکت ذلک الأمر إلی اجتماعات أکثر خصوصیة.

توصّلت من خلال تجوالی فی مناطق «جبیل» الصناعیة إلی نتیجة، وهی أنّهم قد أحرزوا تقدّماً فی مجال الصناعة، وهم فی وضع أفضل منّا فیما یتعلّق

ص: ۷۷

بالصناعات البتروکیماویة.

وتفقّدت قوّاتهم البحریة فی ساحل الخلیج الفارسی، وقال قائد القوّة الجویة هناک: «لقد أمرونی أن لا أترک أسئلتکم بلا جواب، یمکنکم أن تسألونی عن کل ما تشاءُون».

وبما أننی لدیَّ إلمام بالمسائل العسکریة وأعرف التفاصیل الجزئیة المتعلّقة بقاعدتنا فی بندر عبّاس، فقد أخذت أطرح علیهم فی القاعدة السعودیة أسئلة فنّیة، وکان القائد المذکور یجیب عن أسئلتی. وعلى کلّ الأحوال فقد وجد هناک جوّ من الثقة بیننا.

بعد ذلک أخذونا إلى الطائف وشاهدنا هناک أشیاء جدیرة بالمشاهدة.

وقد رأینا تقریباً جمیع الأشیاء التی کنّا نرغب بمشاهدتها فی المملکة العربیة السعودیة من غیر أن یبخلوا علینا بشیء من ذلک. وإذا لم نکن قد حصلنا فی بعض الحالات على المعلومات، فذلک یُعزى إلى ضیق وقتنا.

وذهبنا أیضاً لرؤیة جامعة النفط فی الظهران، ورأینا الأوضاع هناک جیّدة، وکان لدیهم مرکز بحوث ومختبرات متطوّرة.

: أشکرکم على هذه التوضیحات. ما هو المقترح الذی تقدّمونه لمسؤولی الحج ولعموم أبناء الشعب للاستفادة من الحج بشکل أفضل؟

الشیخ الهاشمی: أعتقد أن المسؤولین عن إقامة شعائر الحج بما لدیهم من إحاطة وخبرة، وبما یحملونه من أفکار وطروحات فی هذا یعلمون أفضل منّی ما الذی یجب عمله، وأنا لا أعرف أکثر منهم. وأؤکّد فقط على توفیر أجواء یتسنّى لنا فیها عقد لقاءات بین العلماء فی أیّام الحجّ کی نتمکّن من إتمام المباحث غیر التامّة. وهذا الأمر یتوقّف إلى حدٍّ ما على طبیعة تعاملنا وجهودنا.

ص: ۷۸

: سنكون لكم شاكرين لو عرضتم لنا رأيكم بشأن مجلّة «ميقات الحجّ».

الشيخ الهاشمى: هذه المجلّة تعجبنى. وعندما تصلنى كلّ مرّة أنظر إلى عناوينها، وإذا أثار انتباهى فيها موضوع أقرأه. وإصدار هذه المجلّة عمل إيجابى.

قرن المنازل (۳)

ص: ۷۹

قرن المنازل (۳)

علی إبراهیم المبارک البحرانی

الهدی:

معجم البلدان (۱): هدی: بالفتح منقول عن الفعل الماضی من هدی یهدی إذا أرشد: موضع فی نواحی الطائف.

وقال: الهـدأة: موضع بین عُسـفان ومکـة، وکذا ضـبطه عبید البکری الأندلسـی، وقال أبو حاتم: یقال لموضع بین مکة والطائف الهَدَة، بغیر ألف وهو غیر الأول.

وقال أیضا فی نفس الصفحة: الهدَّة: وهو موضع بین مکة والطائف والنسبة إلیها هدوی، وهو موضع القرود وقد خفف بعضهم داله.

ووصـفه لها بأنها موضع القرود یـدل علی أنها هی الهـدی المعروفة الواقعة فی جبل کرا، والتی یقع عندها میقات وادی محرم حیث قد ذکر العیاش والکردی (۲):

أن جبل کرا مملوء بالقرود، ومع ذلک لم یذکر یاقوت أنها میقات أو مکان یحرم منه الحاج ولا یمرّ علی طریقها.

نعمان:

قال یاقوت فی (۳): نعمان بالفتح وآخره نون هو فعلان من نعمة العیش وهو

۱- ۱ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۵: ۵۹۳.

۲- ۲ مقتطفات من رحلة العیاشی: ۱۰۸- التاریخ القویم- محمد طاهر الکردی ۲: ۲۷.

۳- ۳ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۵: ۲۹۳.

ص: ۸۰

غضارته وحسنه، وهو نعمان الأراك: وهو واد یُنبته ویصب إلی ودّان، بلد غزاه النبیُّ وهو بین مکة والطائف، وقیل: وادٍ لهذیل علی لیلتین من عرفات. وقال الأصمعی: نعمان واد یسکنه بنو عمرو بن الحارث بن تمیم بن سعد بن هذیل، بین أدناه ومکة نصف لیلة، به جبل یقال له: المدراء، ونعمان من بلاد هذیل وأجبلاها الأصدار، وهی صدور الوادی التی یجیء منها العسل إلی مکة، وقول بعض الأعراب فیه دلیل علی أنه واد:

ألا أیها الرکب الیمانون عرجوا علینا فقد أضحی هوانا یمانیا

نسائلکم هل سال نعمان بعدنا وَحبَّ إلینا بطن نعمان وادیا

عهدنا به صیداً کثیراً ومشربا به ننقع القلب الذی کان صادیا

وقال أبو العمیثل فی نعمان الأراك:

أما والراقصات بذات عرق ومن صلّی بنعمان الأراك

لقد أضمرت حبّك فی فؤادی وما أضمرت حبّاً من سواك

ولم یذکر یاقوت فی نعمان کونه یمرّ علی المیقات ولا طریقاً للحاج، وأما قول ابن العمیثل: ومن صلی بنعمان الأراك، فإنه إنما ذکر الصلاة بنعمان لقربها من عرفة واتصاله بها، قال الفرزدق:

دعون بقضبان الأراك التی جنی لها الرکب من نعمان أیام عرفوا

محمد بن عبد المنعم الحمیری فی (۱): نعمان بفتح أوله وادی عرفة دونها إلی مکة، وهو کثیر الأراك قال الشاعر:

تضوع مسکاً بطن نعمان إذ مشت به زینب فی نسوة خفرات

وقال الفیروز آبادی (۲): نعمان کسیحان أیضا وادی وراء عرفة.

۱- ۴ الروض المعطار- عبد المنعم الحمیری: ۵۷۷.

۲- ۵ القاموس المحیط- الفیروزآبادی ۴: ۲۵۸.

ص: ۸۱

وکلام صاحب الروض المعطار مخالف لما فی القاموس؛ لأن ظاهر ما فی الروض أنه بین منی وعرفات، والصحیح ما ذکره القاموس.

کرا:

ذکرها یاقوت (۱)قال: ورواه ابن درید والغوری کَرَاء بالفتح والمد: ثنیة ببیشة وقیل بالطائف.

مقارنة المسافة بین مکة والطائف علی الطریقین:

من الشواهد التی تدلنا علی أن قرن المنازل هو السیل دون الهدی، هو المسافة بین قرن المنازل ومکة والطائف؛ لأنها إنما تناسب السیل دون الهدی، ولبیان هذه الدعوی نذکر المسافات بین قرن المنازل وبین مکة والطائف، ثم نقارنها بالمسافات بین کلّاً من السیل والهدی، وبین مکة والطائف، لنری أیّهما أنسب بقرن المنازل.

المسافة بین قرن المنازل ومکة:

اختلفت تعبیرات القدماء فی تحدید المسافة بین قرن المنازل ومکة فبعضهم حددها بمرحلتین (۲) وبعضهم قال: علی یوم ولیلة (۳) أو لیلتین (۴)، ولکن الاختلاف لفظی؛ لأنّ المرحلة مسیربیاض یوم أو سواد لیلة (۵) والمراد بالیوم هو الیوم الشرعی الذی هو النهار من طلوع الفجر إلی غروب الشمس (۶)، واللیلة من غروب الشمس إلی طلوع الفجر واللیلة تساوی مرحلة، فالمرحلة تساوی ۲۸ میلًا تقریباً قد تزید وقد تنقص. والمرحلتان تساوی ۴۸ میلًا.

وقال الحسن بن محمد المهلبی (۷): قرن قریة بینها وبین مکة ۱۵ میلًا.

إذاً المسافة بین قرن المنازل ومکة تتراوح بین ۴۸ میلًا (۵۵۲/ ۸۸) وبین ۵۱ میلًا (۴۲۰/ ۹۳).

بین قرن المنازل والطائف:

قال المهلبی (۸): وبینها وبین الطائف ذات الیمنین ۳۶ میلًا، وهو ما یساوی ب (۵۶. ۱۸۶) کیلو متراً.

۱- ۶ فی معجم البلدان ۴: ۴۴۲.

۲- ۷ الکردی فی التاریخ القویم ۴: ۲۸۸- مرآة الحرمین ۱: ۲۲۶- الریاض ۶: ۱۹۰- کشف اللثام ۱: ۳۰۶- الجواهر ۱۸: ۱۳۳.

۳- ۸ القاضی عیاض- معجم البلدان ۴: ۳۳۲.

۴- ۹ المبسوط.

۵- ۱۰ المصباح المنیر الفیومی: ۲۲۳.

۶- ۱۱ الحدائق الناضرة- البحرانی ۱۱: ۳۰۳

۷- ۱۲ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۴: ۳۳۲.

۸- ۱۳ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۴: ۳۳۲.

ص: ۸۲

وذکر الحربی والکردی (۱): أن الطریق بین مکة والطائف علی قرن المنازل ثلاثة أیام وهی تساوی ۷۲ میلًا، فإذا طرح منها یومان التی هی المسافة بین مکة وقرن بقی یوم وهو یساوی ۲۴ میلًا (۷۷۲/ ۴۳).

المسافة بین مکة والطائف علی قرن المنازل:

ذکر الحربی فی طریق الطائِف إلی مکة بقرن المنازل: أنه ثلاثة أیام فإذا کان الیوم کما تقدم یساوی ۲۴ میلًا (۷۷۶/ ۴۳) تکون المسافة ۷۲ میلًا وهی (۳۲۸/ ۱۳۱).

وما ذکره المهلبی: أنّ بین مکة وقرن المنازل ۵۱ میلًا، وبین قرن والطائف ۳۶ میلًا یکون المجموع ۷۸ میلًا، وتساوی (۸۸۶/ ۱۵۸) کیلومتراً.

هذه هی المسافات بین قرن المنازل وبین مکة والطائف والمسافة بین مکة والطائف علی الطریق المار بقرن المنازل، وقد عرفت أنّ هناک طریقین وهما مسلوکان قدیماً وحدیثاً، أحدهما الطریق السالک علی السیل، والآخر الطریق السالک علی الهدی، وإذا أردنا أن نعرف أن قرن المنازل واقع علی أیالطریقین؛ لیتعین أیهما هو قرن المنازل، فلا بد من معرفة المسافات علی کلا الطریقین، ومقارنتها بالمسافات المتقدمة فی قرن المنازل.

أولا: السیل:

بین السیل ومکة:

حدّدها دهیش (۲): تبعد عن مکة ۸۰ کم وعن الطائف ب ۳۵ کم، وحددها الفالح (۳) ب ۷۸ کم من بطن الوادی و ۷۵ من المکان الذی یحرم منه الحجاج والمعتمرون، کما حدّدها مغنیة (۴) ب ۹۴ کم، وفی خرائط المهندس زکی محمد علی فارسی (۵) یظهر أنّ بین السیل ومکة ۹۵ کم.

بین السیل والطائف

ذکر دهیش (۶) أنّ قرن المنازل یبعد عن الطائف ب ۵۳ کم.

۱- ۱۴ کتاب المناسک- إبراهیم الحربی: ۶۵۳- ۶۵۴؛ التاریخ القویم لمکة وبیت اللّه الکریم ۲: ۲۷.

۲- ۱۵ حاشیة کتاب أخبار مکة للفاکهی- عبد الملک دهیش ۵: ۱۰۰

۳- ۱۶ مواقیت الحج والعمرة المکانیة- مساعد الفالح: ۲۷.

۴- ۱۷ فقه الإمام الصادق- محمد جواد مغنیة.

۵- ۱۸ أطلس الطرق السعودیة: ت ۹

۶- ۱۹ حاشیة أخبار مکة للفاکهی ۵: ۱۰۰

ص: ۸۳

بین مکة والطائف علی طریق السیل

محمد صادق باشا (۱): والزمن الذی استغرقناه فی قطع الطریق من مکة إلی الطائف ۳۶ ساعة أمتطینا فیها الإبل.

من کلام دهیش یظهر أنّ المسافة بین مکة والطائف علی طریق السیل ۱۳۳ کم، کما أنّ مقدار مسیر ۳۶ ساعة علی الإبل تقدر ب ۲۴ فرسخاً وهی تساوی ۷۲ میلًا/ ۳۲۸/ ۱۳۱.

وذکر إبرهیم رفعت باشا (۲) فی جداول المسافات بین مکة ومهمات المدن الإسلامیة: أنّ بین الطائف ومکة ۴۰ میلًا، وهی تساوی ۹۶/ ۷۲ کیلومتراً.

ملحس (۳): الطائف تبعد عن مکة ۱۳۷ کم عن طریق السیل.

ثانیاً الهدی:

بین الهدی ومکة:

یظهر من فارسی (۴): أنّ بین الهدی ومکة ۵۹ کم. وذکر (۵): أن بین مکة والطائف ۸۸ کم وذکر أیضا (۶): أنّ بین الهدی والطائف ۱۵ کم، فتکون المسافة بین الهدی ومکة ۷۳ کم.

وفی معجم البلدان: (۷) أنها ۲۴ میلًا (۷۷۶/ ۴۳) کم.

بین الهدی والطائف:

ذکر فارسی أنها ۱۵ کیلو متراً، ویظهر من معجم البلدان، أنها ۱۲ میلًا وتساوی (۸۸۸/ ۲۱) کم.

إبراهیم رفعت باشا (۸): وبساتین الطائف قلیلة وأشهرها (الهدة) غربی البلد بثلاث ساعات.

فإذا کانت المرحلة التی هی مسیر یوم (۱۲ ساعة) تساوی ۲۴ میلًا، فثلاث ساعات تقارب ۶ أمیال/ ۱۱ کیلو متراً تقریباً.

۱- ۲۰ مرآة الحرمین- أبراهیم رفعت باشا ۱: ۳۴۷.

۲- ۲۱ مرآة الحرمین- أبراهیم رفعت باشا ۱: ۳۶۷.

۳- ۲۲ تعلیقة کتاب أخبار مکة للأزرقی ۲: ۱۵۷.

۴- ۲۳ أطلس الطرق السعودیة: ت ۹.

۵- ۲۴ أطلس الطرق السعودیة: جدول المسافات بین مدن المملکة الرئیسیة.

۶- ۲۵ أطلس الطرق السعودیة: ۱۸.

۷- ۲۶ کما هو المستفاد من قوله: مسیرة یوم للطالع من مکة- معجم البلدان ۴: ۸

۸- ۲۷ مرآة الحرمین- إبراهیم رفعت باشا ۱: ۳۴۷.

ص: ۸۴

بين مكة والطائف على طريق الهدى:

محمد صادق باشا (۱): ولها طريقان يقطع أقصرهم فى ۱۸ ساعة، وهى تساوى يوماً ونصفاً، وتساوى ۳۶ ميلًا (۶۶۸/ ۶۵).

وقال (۲)(۳): فتكون المسافة من الطائف إلى مكة خمس عشرة ساعة وربعاً بالبغال، وبعض الناس يقطعها فى ۱۳ ساعة.

ومقدار مسير ۱۵ ساعة وربع/ ۳۰ ونصف ميل/ ۶۳۲/ ۵۵، أو أقل؛ لأنّ مسير البغال أسرع من مسير القطار من الإبل الذى هو المقياس فى السير.

الكردى (۴): فتكون المسافة بين مكة والطائف عن طريق كرا الجديد حوالى ۸۵ كم.

و الحربى (۵): حدّد المسافة على طريق كرا بيومين وهى تساوى ۴۸ ميلًا/ (۵۲۲/ ۸۷).

زكى فارسى (۶): حدّدها ب ۸۸ كم.

الروض المعطار (۷): الطائف مخلاف من مخاليف مكة على مرحلتين من مكة.

والمرحلتان تساوى ۴۸ ميلًا/ (۵۲۲/ ۸۷) كم.

أقول: ما ذكره الروض المعطار وإن لم يذكر أنه على أىطريق إلا أنه لا يتفق إلا على طريق الهدى.

الحموى (۸): والطائف: هو وادى وج، وهو بلاد ثقيف، بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخاً، وهى تساوى ۳۶ ميلًا (۸۶۶/ ۶۵) كم.

أقول: وهو لاـ يتفق إلاـ على طريق الهـدى، والشاهـد على ذلـك أنه قـال فى ص ۸: وبالطـائف عقبـة وهى مسـيرة يوم للطالع من مكة ونصف يوم للهابط إلى مكـة، عمّرها عبد نوبى وزرّ لأبى الحسـين بن زياد صاحب اليمن فى حدود سـنة ۴۳۰، فعمر هذه العقبة عمارة يمشى فى عرضها ثلاثة جمال بأحمالها.

وهذه العقبة هى جبل كرا، واليوم يساوى ۲۴ ميلًا، ونصف اليوم يساوى

---

۱ – ۲۸ مرآة الحرمين– إبراهيم رفعت باشا ۱: ۳۴۴ نقلًا عن كتاب دليل الحج للوارد إلى مكـة من كلّ فج، لمؤلفه محمد صادق باشا من ضباط أركان الحرب ومن المهندسين.

۲ – ۲۸ مرآة الحرمين– إبراهيم رفعت باشا ۱: ۳۴۴ نقلًا عن كتاب دليل الحج للوارد إلى مكـة من كلّ فج، لمؤلفه محمد صادق باشا من ضباط أركان الحرب ومن المهندسين.

۳- ۲۹ مرآة الحرمين– إبراهيم رفعت باشا ۱: ۳۵۳.

۴- ۳۰ التاريخ القويم لمكة وبيت اللّه الكريم ۲: ۲۷.

۵- ۳۱ المناسك– إبراهيم الحربى: ۶۵۳، ۶۵۴.

۶- ۳۲ أطلس الطرق السعودية– زكى محمد على فارسى ۳۰

۷- ۳۳ الروض المعطار: ۳۷۹.

۸- ۳۴ وفى معجم البلدان ۴: ۹

ص: ۸۵

۱۲ میلًا، فیکون المجموع ۳۶ میلًا و هی تساوی ۱۲ فرسخاً و تساوی (۸۶۶/ ۶۵) کم.

المسافةقرن المنازل الهدی السیل

مکة ۵/ ۸۷- ۹۳ ۸/ ۴۳- ۵۹ ۷۸- ۹۵

الطائف ۷/ ۴۳- ۶/ ۶۶ ۲۱ ۵۳

المجموع ۱۳۱- ۶/ ۱۵۹ ۸/ ۶۴- ۸۰ ۱۳۱- ۱۴۸

الطریق بین مکة والطائف

علی قرن علی الهدی علی السیل

۱۳۱- ۷/ ۱۵۸ ۷/ ۶۵- ۵/ ۸۸ ۱۳۳- ۷/ ۱۵۹

بالمقارنة بین المسافات نجد أنّ المسافة بین قرن المنازل ومکة والطائف تقارب المسافة بین السیل وکلّ منهما، بینما یکون الفارق کبیراً مع مقارنة المسافات بینهما وبین قرن المنازل بالمسافة بینهما وبین الهدی، وکذلک أنّ مسافة الطریق بین مکة والطائف علی طریق قرن المنازل تتقارب جدّاً مع طریق السیل بینما یکون الفارق کبیراً مع طریق الهدی.

ومن هذا نستنتج أنّقرنالمنازل لایقع علیطریقالهدی، بل علی طریق السیل.

إشکال:

قد یورد علی کون قرن المنازل هو السیل وتأییداً لکونه الهدی؛

أنه ورد فی کلمات بعض اللغویین والفقهاء:

معجم البلدان (۱): قال الغوری: وهو میقات أهل الیمن والطائف.

وقال الحسن بن محمد المهلبی (۲): وهی میقات أهل الیمن.

قال ابن خربوذ (۳): قرن المنازل قریة عظیمة وهی میقات أهل الیمن للحج

۱- ۳۵ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۴: ۲۳۳.

۲- ۳۶ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۴: ۲۳۳.

۳- ۳۷ صبح الأعشی- أبو العباس القلقشندی ۵: ۴۳.

ص: ٨۶

یحرمون منها.

وقال الأزرقی (١): وعکاظ وراء قرن المنازل بمرحلة علی طریق صنعاء.

وذکر الحمیری (٢) فی موضع عکاظ: وقیل: هی وراء قرن المنازل بمرحلة فی طریق صنعاء.

کما ورد فی بعض الروایات أنّ قرن المنازل میقات أهل الیمن أیضاً.

عن علی بن رئاب (٣): قال: سألت أبا عبد اللّه علیه السلام عن الأوقات التی وقتها رسول اللّه للناس، فقال علیه السلام: إن رسول اللّه صلی الله علیه و آله وقت لأهل المدینة ذا الحلیفة وهی الشجرة، ووقت لأهل الشام الجحفة، ووقت لأهل الیمن قرن المنازل ولأهل نجد العقیق.

وروی علی بن جعفر (۴) عن أخیه موسی بن جعفر علیه السلام قال: سألته عن إحرام أهل الکوفة وخراسان ومن یلیهم وأهل مصر من أین هو؟

قال: إحرام أهل العراق من العقیق ومن ذی الحلیفة، وأهل الشام من الجحفة، وأهل الیمن من قرن المنازل، وأهل السند من البصرة أو مع أهل البصرة.

وفی قرب الإسناد (۵) عن عبد اللّه بن بکیر ... قال: فدخلنا علی أبی عبداللّه علیه السلام فقال ضریس بن عبد الملک: إنّ هذا زعم أنه لا ینبغی الإحرام إلا من العقیق.

قال: صدق، ثم قال: إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله وقت لأهل المدینة ذا الحلیفة، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل الیمن قرن المنازل، ولأهل نجد العقیق.

وهذا لا یتناسب مع کونه السیل، الذی یقع فی الشمال الشرقی عن مکة، وإنما یتناسب مع کونه وادی محرم القریب من الهدی، الذی یقع فی الجنوب الشرقی لمکة؛ لأنّ الیمن تقع إلی الجنوب من مکة مع انحراف إلی جهة الشرق.

والجواب:

أولاـ أنّ جلّ الفقهاء من العامة ذکروا أنّ قرن المنازل میقات أهل نجد وعلیه عامة روایاتهم، وعلماء الإمامیة اتفقوا علی أنّ قرن المنازل میقات أهل الطائف

١- ٣٨ أخبار مکة- أبو الولید الأزرقی ١: ١٩٠

٢- ٣٩ الروض المعطار- محمد بن عبد المنعم الحمیری: ۴١١.

٣- ۴٠ الوسائل ٨، باب ١ من أبواب المواقیت ح ٧.

۴- ۴١ الوسائل ٨، باب ١ من أبواب المواقیت ح ٨.

۵- ۴٢ قرب الإسناد للحمیری القمّی: ٨١.

ص: ۸۷

وعلیه أکثر الروایات، وقد ورد فی بعض الروایات أنه میقات أهل نجد، کما ورد فی بعضها کما مرّ أنها میقات أهل الیمن، کما أن فی بعض الروایات أن النبیّ وقت لأهل نجد العقیق، کما وقت لأهل الیمن یلملم.

وقد أجابوا (۱) عن هذا بأن لنجد طریقین أحدهما یمرّ بالعقیق والآخر بقرن المنازل، وقد أتفق الفقهاء علی أن المواقیت مواقیت لأهلها ولمن مرّ علیها من غیر أهلها، وأنه لو سلک أهل میقات طریقاً غیر طریق میقاتهم أحرموا من ذلک المیقات، ولا یلزمهم الرجوع إلی میقاتهم، وبمثل هذا الجواب نجیب عن هذا فإنّ للیمن طریقین: أحدهما یمرّ علی قرن المنازل، والآخر یمرّ علی یلملم، ونذکر ما یؤید ذلک:

۱- روی الشافعی فی الأم (۲): عن سعید بن سالم قال: أخبرنا ابن جریج قال: أخبرنی عطاء: أنّ رسول اللّه وقت لأهل المدینة ذا الحلیفة، ولأهل المغرب الجحفة، ولأهل المشرق ذات عرق، ولأهل نجد قرناً، ومن سلک طریق نجد من أهل الیمن وغیرهم قرن المنازل، ولأهل الیمن یلملم.

۲- قال أبو زید الکلابی (۳): نخلة واد من الحجاز بینه وبین مکة مسیرة لیلتین، إحدی اللیلتین من نخلة یجتمع بها حجاج الیمن وأهل نجد، ومن جاء من قبل الخط وعمان وهجر ویبرین فیجتمع حاجهم بالوباءة، وهی أعلی نخلة، وهی تسمی النخلة الیمانیة.

وقد بینا موقع النخلة الیمانیة والبوباة، فیتبین أنّ لأهل الیمن طریقاً یمرّ بقرن والنخلة الیمانیة.

۳- ذکر الحربی (۴) طریقین للیمن إلی مکة أحدهما طریق البحر والآخر طریق علی تهامة، [ثم ذکر طریق البحر من صنعاء ..... إلی أن قال]: ومن بیشة إلی تبالة، ومن تبالة إلی أجرب، ومن أجرب إلی کراء، وهی حرة بنی سلیم، ومن کرا إلی تربة، ومن تربة إلی صفن، ومن صفن إلی أوقح، ومن أوقح إلی الفتق، ومن

۱- ۴۳ الحدائق الناضرة: مواقیت الاحرام.

۲- ۴۴ الأم: ۱۳۷.

۳- ۴۵ المناسک: ۶۴۳.

۴- ۴۶ المناسک: ۶۴۶.

ص: ۸۸

فتق إلى قرن، ومن قرن إلى نخلة وهى البستان ومن نخلة إلى مكة.

وذكر الطريق الآخر وهو طريق تهامة من صنعاء [إلى أن قال]: ومن الليث إلى مركوب، ومن مركوب إلى يلملم، ومن يلملم إلى ملكان، ومنها إلى مكة (۱).

وذكر طريق حضرموت (۲) [إلى أن قال]: ومنها إلى وادى عقيل، ومنها إلى الكرا، ومنها إلى تربة، ومنها إلى صفن، ومنها إلى أوقح، ومنها إلى العقيق، ومنها إلى قرن، ومنها إلى نخلة، ومنها إلى مكة.

وكراء فى كلام الحربى ليس هى جبل كرا؛ لأنه عرّفها بأنها حرة بنى سليم، إضافة إلى أنّ جبل كرا لا تقع بين تبالة وتربة، وقال الجاسر (۳): كراء واد عظيم معروف ينحدر، فيشق الحرة حتى يفضى إلى واد، وقال: إنّ الصواب حرة بنى هلال وتسمى الآن حرة البقوم، وفى معجم البلدان (۴): وقيل: واد يدفع سيله فى تربة، وذكرالفرق بينها وبين جبل كرا: قال ابن السكيت فى قول عروة بن الورد:

تحل بواد من كراء مضلة تحاول سلمى أن أهاب وأحصرا

قال: كراء هذه التى ذكرها ممدودة هى أرض بيشة، كثيرة الأسد، وكرا غير هذه، مقصورة: ثنية بين مكة والطائف.

ووادى عقيل قال الجاسر (۵): المقصود منه عقيق عُقيل المعروف الآن بإاطم وادى الدواسر. وفى معجم البلدان (۶): ومنها العقيق الذى فى بلاد بنى عقيل. قال أبو زيد الكلابى: عقيق بنى عقيل فيه منبر من منابر اليمامة، وقال السكونى: عقيق اليمامة لبنى عقيل.

والعقيق الذى مرّ فى كلام الحربى أيضاً ليس هو العقيق الذى تقع فيه ذات عرق، والذى هو ميقات أهل العراق، بل هو عقيق اليمامة المسمى بعقيق تمرة. قال الحموى (۷) قال أبو منصور: وفى بلاد العرب أربعة أعقة وهى أودية عادية شقتها

۱- ۴۷ انظر هذه الأماكن فى أطلس الطرق السعودية خارطة ب ۱۷.

۲- ۴۸ حاشية كتاب المناسک: ۶۴۷.

۳- ۴۹ حاشية كتاب المناسک: ۶۴۴.

۴- ۵۰ معجم البلدان- ياقوت الحموى ۴: ۴۴۲.

۵- ۵۱ حاشية كتاب المناسک: ۶۴۸.

۶- ۵۲ معجم البلدان- ياقوت الحموى ۴: ۱۳۹.

۷- ۵۳ معجم البلدان- ياقوت الحموى ۴: ۱۳۹.

ص: ۸۹

السیول، وقال الأصمعی: الأعقة الأودیة، قال: فمنها عقیق عارض الیمامة: وهو واد واسع مما یلی العرمة یتدفق فیه شعاب العارض وفیه عیون عذبة الماء. قال السکونی: عقیق الیمامة لبنی عقیل فیه قری ونخل کثیر. ویقال: أهل عقیق تمرة، وهو عن یمین القرط منقطع عارض الیمامة فی رمل الجزء، وهو منبر من منابر الیمامة عن یمین من یخرج من الیمامة یرید الیمن، علیه أمیر.

وعن القاضی عیاض فی ذکر الأعقة: ومنها عقیق تمرة: قرب تبالة وبیشة، وقد مرّ وصفه فی زبیة، وقیل: عقیق تمرة هو عقیق الیمامة وقد ذکر ..

وقال: (۱) قال الواقدی: تربة وزبیة وادیان بعجز هوازن، وقال عرام: وفی حدّ تبالة قریة یقال لها: زبیة، وفیه عقیق تمرة (۲).

وبیشة وتبالة وتربة معروفات حتی الآن، ویمکنک مراجعة خرائط المملکة السعودیة (۳) لتعرف أماکنها، وتتعرف علی الطریق الذی ذکره الحربی فإنه لا یمرّ علی الهدی، وإنما یمرّ شرق الطائف إلی طریق قرن المنازل الذی هو السیل ثم نخلة.

الهدی أعلی قرن المنازل:

هناک محاولة من بعض الکتاب لإدخال الهدی فی قرن المنازل، نذکرها؛ لنری هل تعارض ما قدمناه من شواهد علی کون السیل هو قرن المنازل أم تکون مؤیدة له؟

الفالح (۴): وقد اشتهر اسم هذا المیقات الآن باسم السیل الکبیر، ویتصل هذا الوادی بوادی محرم المسمی قرناً، والذی یمرّ به الطریق المسمی کرا المتّجه إلی مکة.

أما وادی محرم فهو أعلی من قرن المنازل، وکذا من السیل الکبیر. ووادی محرم یطلق علیهما اسم قرن المیقات المذکور، فمن أحرم من أحدهما فقد أحرم من المیقات الشرعی، ولذلک لا یعتبر وادی محرم میقاتاً مستقلًا من حیث الاسم؛ لأنه هو قرن المنازل، فاسم قرن شامل للوادی کلّه سواء عن طریق ما یسمی بالسیل الکبیر، أو عن الطریق المسمی الآن بالهدا.

۱- ۵۴ معجم البلدان- یاقوت الحموی ۳: ۱۳۳.

۲- ۵۵ انظر أطلس الطرق السعودیة رقم ۳۱.

۳- ۵۶ أطلس الطرق السعودیة، رقم ۱۳، ب ۵۱- ۶۱.

۴- ۵۷ مواقیت الحج والعمرة المکانیة: ۲۷.

ص: ۹۰

وفی الحاشیة قال: وهذا ما أکده تقریر کتبته لجنة علمیة شکلت بتوجیه من سماحة الشیخ محمد بن إبراهیم حیث قال الشیخ: بعد أن سعی فی تسهیل طریق کرا، وغلب علی ظنی نجاح ذلک، صرت إلی مزید من الاحتیاط لهذا المیقات المسمی محرماً، فعمدت إلی لجنة علمیة، مؤلفة من عالمین فاضلین، لدیهما من الملکة العلمیة والخبرة الوطنیة والفقه والنباهة ما لا یوجد عند کثیر من أضرابهما، وهما: الشیخ عبد اللَّه بن عبد الرحمن بن جاسر رئیس هیئة التمییز للمنطقة الغربیة، والشیخ محمد ابن علی البیز رئیس محکمة الطائف، أن یذهبا إلی وادی محرم المذکور، وینظرا هو أعلی وادی قرن المسمی بالسیل، فذهبا ونظرا وبذلا وسعهما واستصحبا فی مسیرهما خبراء من أهل تلک الناحیة، وتحصل لدیهما أنه هو أعلی وادی قرن المنازل، وکتبا لنا بذلک کتابة صریحة واضحة بأنه هو أعلی وادی قرن المنازل، وقد صرحت کثیر من وثائق عقارات أهل وادی محرم الموجودة فی سجلات محکمة الطائف بما لا یدع مجالًا للشک: أن وادی محرم هو وادی قرن، ولا نظن أن تلک العقارات هی فی أسفل الوادی المسمی بالسیل، بل کلها أو أکثرها فی أعلاه إلی وادی محرم کالدار البیضاء وقریة المشائخ ونحوها.

نقل ذلک عن الشیخ ملخصاً فضیلة الشیخ عبد اللَّه البسام فی کتابه الاختیارات الجلیة من المسائل الخلافیة ۲: ۳۷۹.

ونستفید من هذا الکلام اموراً:

الأول: أنّ الطریق السالک قدیماً کان هو طریق السیل، وأنّ الناس کانوا یحرمون منه حتی سهل طریق کرا فأصبح صالحا لسلوک الحجاج، وهذا یظهر أیضا من تعبیر بعضهم- کالبلادی والکردی- عن طریق السیل بالقدیم.

الثانی: أنّ الشیخ محمد بن إبراهیم کان فی بدء أمره شاکاً فی کون وادی محرم من المیقات الشرعی، وأنه هل هو واقع فی وادی قرن بحیث یکون من المیقات الشرعی أم أنه خارج عن قرنٍ، وهذا التشکیک من مثل الشیخ محمد بن إبراهیم

ص: ۹۱

يكشف لنا عن عدم كونه معروفاً بأنّه من الميقات الشرعى من قبل.

الثالث: أنّ الشيخ محمداً لم يشك فى كون السيل هو الميقات الشرعى وأنه قرن المنازل بل هو قاطع بذلك، لذلك أوصى الشيخين بالذهاب إلى وادى محرم لينظرا:

هل وادى محرم أعلى وادى قرن المسمى بالسيل أم أنه خارج عنه؟

أما نتيجة تتبع هذه اللجنة وبحثها فهو أنّ وادى محرم هو أعلى وادى قرن، وقد اعتمدوا على أمرين:

الأول: ما أفاده أهل الخبرة أو من أهل المنطقة من أن وادى محرم أعلى وادى قرن.

الثانى: أنّ الوثائق المسجلة للعقارات الموجودة فى أعلى وادى السيل إلى وادى محرم كالدار البيضاء وقرية المشايخ مسجلة باسم قرن.

المناقشة:

ويمكننا أن نناقش فى هذه النتيجة بأمور:

أولًا: أننا لم نجد تصريحاً لأحد من المتقدمين بأنّ وادى قرن يشمل الهدى أو أن الهدى فى قرن المنازل، ولا أنه يصل إلى حد جبل كرا، بل أنّ كلّ الشواهد تشير إلى أنّ قرناً واقع عند النخلة اليمانية وقريباً من البستان.

أما أنّ إطلاق قرن على هذا الوادى فغير معروف من قبل، كما يظهر من كلام الذين وصفوا كلا الطريقين كالحربى والكردى وغيرهما، فإنه لم يذكر أحد أنّ طريق كرا يمرّ بقرن، ولو كان وادى قرن شاملًا للهدى لذكروا مرور طريق كرا (طريق الهدى) عليه كما ذكروا مرور طريق قرن بالنخلة اليمانية ويدعان وغيرها، وكما ذكروا مرور طريق الهدى بكرا وبنعمان الأراك وبعرفة ... الخ.

ثانياً: لو سلمنا بشمول قرن إلى وادى محرم الواقع عند قرية الهدى، فإنّ الشواهد التى ذكرناها فى تحديد الميقات كلها تشير إلى كونه فى أسفل الوادى، وهو ما يسمى بالسيل الكبير، وقد مرّت كلّها مفصلة، ومنها مكان إحرام الرسول الذى

ص: ۹۲

ذكرناه فى طريقه إلى مكة عائداً من غزوة الطائف حيث أحرم بالعمرة.

ثالثاً: أما السجلات فإنه قد تعدّ منطقة تابعة لمنطقة أخرى فى الإدارات، فتسجل العقارات والإجراءات القانونية والعمرانية فى البلديات والمحاكم وغيرها باسم تلك المنطقة المتبوعة، وهذا أمر متعارف فى هذه الأزمنة، لكنه لا يعنى شمولها لها حتى فى مثل المواقيت الشرعية، التى لا ربط لها بالمقررات الدولية والقوانين الوضعية.

وعلى أى تقدير فإنّ القدر المتيقن من الميقات الشرعى الذى هو قرن المنازل هو السيل الكبير، وهو المتسالم عليه الذى لا شك فيه ولا شبهة تعتريه.

مصادر البحث:

۱- الأزهار الأرجية- الشيخ فرج العمران.

۲- أخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه- عبد اللَّه بن محمد بن إسحاق الفاكهى- تحقيق عبد الملك بن عبداللَّه بن دهيش- ط الثانية ۱۴۱۴ ه، ۱۹۹۴ م- نشر دار خضر للطباعة والنشر- بيروت.

۳- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار- أبو الوليد محمد بن عبد اللَّه بن أحمد الأزرقى- تحقيق رشدى الصالح ملحس- ط الثالثة ۱۴۰۲ ه ۱۹۸۳ م- نشر دار الأندلس- بيروت.

۴- إرشاد السارى إلى مناسك ملا على القارى.

۵- أطلس الطرق السعودية ودليل السياحة- زكى محمد على فارسى- ط الأولى ۱۴۱۵ ه، ۱۹۹۵ م.

۶- الأغانى- أبو الفرج الأصفهانى.

۷- الأمّ- محمد بن إدريس الشافعى.

۸- أودية مكةالمكرمة- عاتق بن غيث البلادى- نشر دارمكة- طالأولى ۱۴۰۵ ه- ۱۹۸۵ م.

ص: ۹۳

۹- تاج العروس.

۱۰- التاریخ القویم لمکة وبیت اللّه الکریم- محمد طاهر الکردی- ط الأولی ۱۳۸۵ ه.

۱۱- تاریخ الطبری.

۱۲- تحفة الناسک بأحکام المناسک- سلیمان بن عبد اللّه بن عبد الوهاب- ط ۱۳۶۴ ه- مکة المکرمة.

۱۳- الجواهر- الشیخ محمد حسن النجفی- ط دار الکتب الإسلامیة قم ۱۳۷۳ ه.

۱۴- حاشیة أخبار مکة للفاکهی- عبد الملک بن عبد اللّه بن دهیش [مع کتاب أخبار مکة للفاکهی].

۱۵- حاشیة أخبار مکة للأزرقی- رشدی الصالح ملحس- مع کتاب أخبار مکة للأزرقی.

۱۶- حاشیة الجامع الصحیح.

۱۷- حاشیة کتاب المناسک للحربی- حمد الجاسر [مع کتاب المناسک].

۱۸- الروض المعطار- محمد بن عبد المنعم الحمیری- ط مکتبة لبنان.

۱۹- الحدائق الناضرة- الشیخ یوسف آل عصفور- ط جماعة المدرسین- قم.

۲۰- ریاض المسائل- السید علی العاملی- ط جماعة المدرسین ۱۴۱۵ ه.

۲۱- السیرة النبویة- ابن هشام.

۲۲- شرح السیوطی علی النسائی- السیوطی.

۲۳- صحاح اللغة.

۲۴- صبح الأعشی- أبو العباس القلقشندی- ط وزارة الثقافة والإرشاد القومی- مصر.

۲۵- فقه الإمام الصادق- محمد جواد مغنیة.

۲۶- القاموس المحیط- مجد الدین محمد بن یعقوب الفیروزآبادی- ط الأولی- دار إحیاء التراث العربی- بیروت- ۱۴۱۲ ه- ۱۹۹۱ م.

۲۷- کشف اللثام-- الطبعة الحجریة.

۲۸- لسان العرب- ابن منظور- ط الأولی الجدیدة المحققة- بیروت ۱۴۱۶ ه- ۱۹۹۵ م.

۲۹- مختار الصحاح. ۳۰- مراصد الاطلاع علی أسماء الأمکنة والبقاع- صفی الدین عبد المؤمن بن عبد الحق

ص: ۹۴

البغدادی- تحقیق علی محمد البجاوی- ط الأولی ۱۳۷۴ ه، ۱۹۵۵ م- نشر دار المعرفة للطباعة والنشر- بیروت.

۳۱- مرآة الحرمین- اللواء إبراهیم رفعت باشا- ط الأولی- مط دار الکتب المصریة- القاهرة سنة ۱۳۴۴ ه ۱۹۲۵ م.

۳۲- المصباح المنیر- أحمد بن محمد بن علی المقری الفیومی ط الثانیة ۱۴۱۴ ه- نشر دار الهجرة- إیران.

۳۳- معالم مکة التاریخیة- عاتق بن غیث البلادی- نشر دار مکة- ط الثانیة ۱۴۰۳ ه- ۱۹۸۳ م.

۳۴- معجم البلدان- یاقوت بن عبد اللَّه الحموی- ط دار إحیاء التراث العربی- بیروت.

۳۵- معجم متن اللغة- أحمد رضا.

۳۶- معجم مقاییس اللغة.

۳۷- المغازی.

۳۸- المغرب- المطرزی.

۳۹- المطالعة السعودیة- عبد الجبار الرفاعی.

۴۰- کتاب المناسک وأماکن طرق الحج ومعالم الجزیرة- إبراهیم بن إسحاق الحربی تحقیق حمد الجاسر- نشر دار الیمامة للبحث والترجمة- الریاض.

۴۱- مقتطفات من رحلة العیاشی (ماء الموائد)- لعبد اللَّه بن محمد العیاش (۱۰۹۰ ه)- حمد الجاسر- ط الأولی ۱۴۰۴ ه، ۱۰۸۴ م- نشر دار الرفاعی- الریاض.

۴۲- مواقیت الحج والعمرة المکانیة- مساعد بن قاسم الفالح- ط الأولی ۱۴۱۳ ه- ۱۹۹۳ م نشر مکتبة المعارف- الریاض.

۴۳- میقات الحج (مجلة)- عدد ۵- السنة الثانیة ۱۴۱۷ ه.

۴۴- النهایة- ابن الأثیر.

ص: ۹۵

الهوامش:

ص: ۹۶

مختارات شعریهٔ حسان بن ثابت یرثی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله

ص: ۹۷

مختارات شعریهٔ حسان بن ثابت یرثی رسول اللّه صلی الله علیه و آله

بِطیبَهَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ مُنِیرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمَدُ

وَلا تَنْمَحِی الآیَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَهٍ بِهَا مِنْبَرُ الْهَادِی الَّذِی کانَ یَصْعَدُ

وَوَاضِحُ آیَاتٍ وَبَاقِی مَعَالِمٍ وَرَبْعٌ لَهُ فِیهِ مُصَلًّی وَمَسْجِدُ

بِهَا حُجُرَاتٌ کانَ یَنْزِلُ وَسْطَهَا مِنَ اللَّهِ نُورٌ یُسْتَضَاءُ وَیُوقَدُ

مَعالِمُ لمْ تُطْمَسْ عَلی الْعَهْدِ آیُهَا أَتَاهَا الْبِلَی فالآیُ مِنْها تَجَدَّدُ

عرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وَعَهْدَهُ وَقبْراً بِهِ وَارَاهُ فی التُرْبِ ملْحِد

ص: ۹۸

ظَلِلْتُ بِهَا أَبْکی الرَّسُولَ فأَسْعَدَتْ عُیُونٌ وَمِثْلَاها مِنَ الْجَفْنِ تُسْعِدُ

تَذَکَّرُ آلَاءَ الرَّسُولِ وَما أرَی لَها مُحْصِیاً نَفْسِی فَنفْسِی تَبلَّدُ

مُفَجَّعَهٌ قَدْ شَفَّها فَقْدُ أَحْمَدٍ فَظَلَّتْ لِآلَاءِ الرَّسُولِ تُعَدِّدُ

وَمَا بَلغتْ مِنْ کلِّ أَمْرٍ عَشِیرَه وَلکِنَّ نَفْسِی بَعْضَ مَا فِیهِ تَحْمَدُ

أَطَالَتْ وُقُوفاً تَذْرِفُ الْعَیْنُ جُهْدَهَا علی طَلَلِ الْقَبْرِ الَّذِی فِیهِ أَحْمَدُ

فَبُورِکتَ یَا قَبْرَ الرَّسولِ وَبورِکَتْ بِلَادٌ ثَوَی فیها الرَّشیدُ المُسَدَّدُ

وَبُورِکَ لَحْدٌ مِنْکَ ضُمِّنَ طَیِّباً علیهِ بناءٌ من صفیحٍ مُنَضَّدُ

تَهیلُ علیْهِ التُّرْبَ أَیْدٍ وَأَعْیُنٌ علیهِ وَقَدْ غَارَتْ بذَلِکَ أَسْعُدُ

لَقَدْ غَیَّبوا حِلْماً وعِلْماً وَرَحْمَهً عشِیَّهَ عَلَّوْهُ الثَّرَی لا یُوَسَّدُ

وَراحوا بُحزْنٍ لَیْسَ فیهِمْ نَبِیُّهمْ وَقَدْ وَهَنَتْ منهُمْ ظُهورٌ وَأَعْضُدُ

یُبکُّونَ مَن تبکی السمواتُ یَوْمَه وَمَنْ قَدْ بَکَتْهُ الأَرْضُ فَالنَّاسُ أَکمَدُ

ص: ۹۹

وَهَلْ عَدَلَتْ يَوماً رَزِيَّةُ هَالِكٍ رَزِيةَ يَوْم مَاتَ فِيهِ مُحمدُ

تَقَطَّع فيهِ منزلُ الوَحْيِ عَنهُمُ وقَدْ كانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ ويُنْجِدُ

يَدُلُّ عَلى الرَّحمنِ مَنْ يَقْتَدِى بِهِ وَيُنْقِذُ مِنْ هَوْلِ الْخَزَايَا وَيُرْشِدُ

إمامٌ لَهمْ يَهْدِيهُم الحقَّ جاهداً مُعلِّمُ صدْقٍ إنْ يُطِيعوه يَسْعدُوا

عَفُوٌّ عن الزلاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ وَإنْ يُحْسِنُوا فَاللَّهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ

وَإنْ نَابَ أَمْرٌ لم يَقُوموا بحَمْدِهِ فَمِنْ عِنْدِه تيْسيرُ مَا يَتَشدَّدُ

فَبينا هُمُ فِى نِعْمةِ اللَّه بينَهُمْ دليلٌ به نَهْجُ الطَّرِيقةِ يُقْصَدُ

عزيزٌ عليْهِ أنْ يَحِيدُوا عن الهدَى حَرِيصٌ علَى أنْ يَسْتَقِيموا ويَهْتدُوا

عطُوفٌ عَليهم لَايُثَنِّى جنَاحَهُ إلَى كَنفٍ يَحْنُو عليهم وَيَمْهدُ

فَبَيْنَاهُمُ فى ذَلِكَ النُّورِ إذْ غدَا إلَى نُورهِمْ سَهْمٌ من المَوْتِ مُقْصِدُ

فأَصْبَحَ محمُوداً إلَى اللَّهِ رَاجعاً يُبَكِّيهِ جَفْنُ المُرْسَلَاتِ وَيَحْمَدُ

ص: ۱۰۰

وَأَمْسَتْ بِلَادُ الْحَرْمِ وحْشاً بقاعُها لِغَيْبَةِ مَا كانَتْ مِنَ الْوَحْيِ تَعْهدُ

قِفَاراً سِوَى مَعْمُورَةِ اللَّحْدِ ضافها فَقِيدٌ يُبَكِّيهِ بَلَاطٌ وَغَرْقدُ

وَمَسجِدُهُ فالمُوحِشاتُ لِفَقْدِهِ خَلاءٌ لَهُ فِيهِ مَقامٌ وَمَقْعَدُ

وَبالْجَمْرَةِ الْكُبْرَى لَهُ ثَمَّ أَوْحَشَتْ دِيَارٌ وَعَرْصَاتٌ وَرَبْعٌ وَمَوْلِدُ

فَبَكِّى رَسُولَ اللَّهِ يَا عَيْنُ عَبْرَةً وَلَا أَعْرِفَنْكِ الدَّهْر دَمْعَكِ يَجْمَدُ

وَمَالَكِ لَا تَبْكِينَ ذَا النِّعْمَةِ الَّتى على النَّاسِ مِنْها سَابغٌ يَتَغَمَّدُ

فَجُودِى علَيْهِ بالدُّمُوعِ وَأَعْوِلى لِفَقْدِ الَّذِى لامِثْلُهُ الدَّهْرُ يُوجَدُ

وَمَا فَقَدَ المَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ وَلَا مِثْلُهُ حَتى الْقِيامةِ يُفْقَدُ

أَعَفَّ وَأَوْفَى ذِمَّةٍ بَعْدَ ذِمَّةٍ وَأَقْرَبَ مِنْهُ نائِلًا لَايُنَكَّدُ

وَأَبْذَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدٍ إِذَا ضَنَّ مِعْطَاءٌ بمَا كانَ يُتْلِدُ

وَأَكرَمَ حَيًّا فِى الْبُيُوتِ إِذَا انْتَمى وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيّاً يُسَوَّدُ

ص: ۱۰۱

وَأَمْنَعَ ذِرْوَاتٍ وَأَثْبَتَ فِى الْعُلَى دَعَائِمَ عِزٍّ شَاهِقَاتٍ تُشَيَّدُ

وَأَثْبَتَ فَرْعاً فِى الْفُرُوعِ وَمَنْبِتاً وَعُوداً غَدَاةَ الْمُزْنِ فالْعُودُ أَغْيَدُ

رَبَاهُ وَلِيداً فَاسْتَتَمَّ تَمَامَهُ عَلى أَكْرَمِ الخيْرَاتِ رَبٌّ مُمَجَّدٌ

تَنَاهَتْ وَصَاةُ المُسْلِمينَ بِكَفِّهِ فَلَا الْعِلْمُ مَحْبُوسٌ وَلَا الرَّأىُ يُفْنَدُ

أَقُولُ وَلَا يُلْفَى لِقَوْلِىَ عائِبٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا عَازِبُ الْعَقْلِ مُبْعَدُ

وَلَيْسَ هَوَائِى نَازِعاً عَنْ ثَنَائِهِ لَعلِّى بِهِ فِى جَنَّةِ الْخُلْدِ أَخلُدُ

مَعَ المُصطَفى أَرْجُو بِذَاكَ جِوَارَهُ وَفى نَيْلِ ذَاكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجهَدُ

***

ما بَلُ عَيْنِكَ لَاتَنَامُ كَأَنَّمَا كُحِلَتْ مَآقِيهَا بكُحْلِ الأَرْمَدِ

جَزَعاً علَى المَهْدِىِّ أَصْبَحَ ثَاوِياً يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الحصَى لَا تَبْعُدِ

وَجْهِى يَقِيكَ التُّرْبَ لَهْفِى لَيْتَنى غُيِّبْتُ قَبْلَكَ فِى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ

بِأَبِى وَأُمِّى مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ فِى يَوْمِ الاثْنَينِ النَّبِىُّ المُهْتَدِى

ص: ۱۰۲

فَظلِلْتُ بَعْدَ وَفاتِهِ مُتَبلِّداً مُتَلَدِّداً يَا لَيْتَنى لَمْ أُولَدِ

أَأُقِيمُ بَعْدَكَ بالمَدِينَةِ بَينْهُمْ يَا لَيْتَنِى صُبِّحتُ سَمَّ الأسْوَدِ

أوْ حَلَّ أَمْرُ اللَّهِ فِينَا عَاجِلًا فِى رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أوْ فِى غَدِ

فَتقُومَ سَاعَتُنا فَنَلْقَى طَيِّباً مَحْضاً ضَرَائِبُهُ كَرِيمَ المَحْتِدِ

يَا بِكْرَ آمِنَةَ المُبَارَكِ بِكْرُهَا وَلَدَتْهُ مُحْصَنَةً بِسَعْدِ الأسْعُدِ

نُوراً أَضَاءَ عَلَى البَرِيَّةِ كُلِّها مَنْ يُهْدَ لِلنُّور المُبَارَكِ يَهْتَدِى

يَا رَبِّ فاجْمَعْنَا مَعاً وَنَبِيَّنَا فِى جَنَّةٍ تَثْنِى عُيُونَ الْحسَّدِ

فِى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ فاكْتُبْهَا لَنا يَا ذَا الجلَالِ وَذَا الْعُلَا وَالسُّؤدَدِ

وَاللَّهِ أَسْمَعُ مَا بَقِيت بِهَالِكٍ إلَّا بَكَيْتُ على النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

يَا وَيْحَ أَنْصَارِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ بَعْدَ المُغَيَّبِ فِى سَوَاءِ المَلْحَدِ

ضَاقَتْ بِالانْصَارِ الْبِلَادُ فأَصْبَحَتْ سُوداً وُجُوهُهُمُ كلَوْنِ الإثْمِدِ

ص: ۱۰۳

وَلَقَدْ وَلَدْنَاهُ وَفِينَا قَبْرُهُ وَفُضُولُ نِعْمَتِهِ بِنَا لَم يُجْحَدِ

وَاللَّهُ أَكْرَمَنَا بِهِ وَهَدَى بِهِ أَنْصارَهُ فی كُلِّ سَاعَةِ مَشْهَدِ

صَلَّى الإلهُ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرْشِهِ وَالطيِّبُون علَى المُبَارَكِ أَحَمدِ

***

آلَيْتُ مَا فِى جَمِيعِ النَّاس مُجْتَهِداً مِنِّى أَلِيَّةَ بَرٍّ غَيْرِ إِفْنَادِ

تَاللَّهِ مَا حَملَتْ أُنْثَى وَلَا وَضعَتْ مِثْلَ الرَّسُولِ نَبىّ الأُمَّةِ الْهَادِى

وَلا بَرَا اللَّهُ خلْقَاً مِنْ بَرِيَّتِهِ أَوْفَى بِذمَّةِ جَارٍ أَوْ بميعادِ

مِنَ الَّذِى كان فِينا يُسْتَضَاءُ به مُبارَكَ الأَمْرِ ذَا عَدْلٍ وَإرْشَادِ

مُصَدِّقاً لِلَّنبيين الأُلَى سَلَفُوا وَأَبْذَلَ النَّاسِ لِلْمَعْرُوفِ لِلْجَادِى

يَا أَفْضَلَ النَّاسِ إِنّى كُنْتُ فِى نَهَرٍ أَصْبَحْتُ مِنْهُ كَمِثْلِ المُفْرَدِ الصَّادِى

أمْسَى نِسَاؤُكَ عَطَّلْنَ الْبُيُوتَ فَمَا يَضْرِبْنَ فَوْقَ قَفَا سِتْرٍ بأَوْتَادِ

مِثْلُ الرَّوَاهِبِ يَلْبَسْنَ المُسُوحَ وَقَدْ أَيْقَنَّ بِالبُؤْسِ بَعْدَ النِّعْمَةِ الْبَادِى

البَيت العَتيق ... خَواطر وأشجان

البَيت العَتيق ... خَواطر وأشجان

محمّد النّقدى

تقديم: منذ عدة أشهر والحكومة السعودية تضرب طوقاً خشبياً حول الكعبة الشريفة، قِبلة المسلمين فى العالم، للقيام ببعض التعميرات وإصلاح الشقوق التى ألمّتْ بالسقف وترميم الخسف الحاصل بأرض البيت الحرام.

هذا الذى بين يديك، عزيزى القارئ، يضمّ مُشاهدات أحد رجال الدين الذين تشرّفوا بالدخول إلى عُمق البيت العتيق فى رحلة العمرة المفردة، نهاية شهريور عام ۱۳۷۵ شمسى (جمادى الأولى ۱۴۱۷ ه/ أيلول ۱۹۹۶ م).

الذين سُعِدوا ونالوا شرف زيارة مكة المكرمة يعلمون جيداً أىّ شعور ينتاب من تكتحل عيناه برؤية ذلك المكان الطاهر وهو يطوى الأرض باتّجاه المسجد الحرام. هناك تنقلب حاله بمجرد وقوع بصره على قبلة المسلمين وملاذهم الوحيد، فتسيل دموعه جارية دون إرادة، وتخرج الآهات المصحوبة باللّوعة من أعماق صدره خلال مناجاته ربّ الأرباب.

ص: ۱۰۵

إنّ عظمـة الكعبـة المشـرفة وبهاءَهـا، والأروقـة البديعـة المحيطـة بالمسـجد الحرام، ومقام إبراهيم وحجر إسـماعيل، والميزاب الـذهبىّ المُشرِف من سطح البيت العتيق، ... كلّ واحد من تلك المشاهد المقدسة والمعالِم الطاهرة تنبئ بالجلال والعظمة، وتأسر فؤاد أىّ ناظر إليها لا محالـة، ومهيّجـة فى نَفس الملهوف عليها ذكريات تأريخيّة خالدة، لا يمحوها الزمن ولا تغيّرها الأيام. لكن أكثر ما يُلفت النظر فى ذلـك المكـان المهيب، هى حالـة المناجـاة التى تعترى الزائرين المجتمعين فى تلـك البقعـة المقدسـة الوافـدين من كلّ الأصـقاع والأمصار، الحافّين بالكعبة المشرفة كالفَراش الذى يحيط بالسراج.

ومـا أروع نشـيد «لبّيـك» وهو ينطلق من حنـاجر ملايين المؤمنين المُلبّين دعوة إبراهيم خليـل اللّه، وهم يرسـمون أجمل لوحـة وأبهى صورة، رغم اختلاف ألوانهم وتعـدّد ألسـنتهم وتفاوت قوميّاتهم، طائفين حول الكعبة الحبيبة فى حركة هادئة وانسـجام تامّ! والمسـجد الحرام هو الوحيـد من بين مساجـد الدنيا الذى يحمل فى ثناياه ذكرى طواف نحوٍ من ألف نبىّ وصـلاتهم فيه (۱)، وهو المكان الذى تزول عنـده الاعتبارات الظاهرية، حيث يقف المَلك والفقير والسلطان والصّعلوك والأبيض والأسود والكبير والصـغير جنباً إلى جنب صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص، معبّرين بدموعهم وآهاتهم عن أقصى حالات العجز والخضوع والعبودية. إنّه حقّاً لمشهد مؤسر تَصغر دونه المشاهد.

وليت شـعرى ما بالُ فنّانينا المسـلمين الملتزمين لا يحـذون حَـذوَ باقى فنّانى الشـعوب الأخرى.. يقيمون النّصب التذكاريـة الخالـدة لِما خلّفه الأنبياء والصالحون والشـهداء والصّديقون، ويحيون طقوسـهم وشـعائرهم التى وردت فى الكتب السـماوية المقدسة، ويُفرغون ما بـداخلهم من إبـداع وآثار فنيّـة.. يصوّرون بـذلك هـذا الطواف الرائع الـذى لا يُضاهى والمُعبِّر عن جوهر التوحيد، والذى يروى قصـة ماضٍ تليد يمتدّ آلاف السنين فى عُمق التأريخ، ويحكى عن ارتباطه بسائر الأديان

۱- ۱ مستدرک الوسائل ۲: ۱۴۵.

ص: ۱۰۶

التوحيديّة الأخرى بآصرة لاانفصام لها.

إنّ لليالي المسجد الحرام، لو اطّلعتَ عليه من الطابق الثاني أو الثالث، روعةً وجمالًا وخلوداً في الذاكرة لا توصَف.

رویَ عن أحد الأئمة المعصومين عليهم السلام أنّ هناك مئة وعشرين باباً للرحمة حول الكعبة، جُعِلت ستون منهاللطائفين وأربعونللمصلين وعشرون للناظرين إليها (۱).

نعم، إنّ ها هُنا بَيتاً يُثاب النّاظرُ إليه بعبادة سنين.

*** ما أسطّره من خواطر هنا يرجع تأريخها إلى جمادى الاولى من عام ۱۴۱۷، أثناء رحلتي الأخيرة لمكة المكرمة بقصد العُمرة.

إنّ الكعبة الشريفة، وإن كانت جغرافياً تقع في شبه جزيرة العرب، إلّاأنّها تقطن في الواقع قُلوب المُلهفين إليها والمتيمّنين بها في بقعة من بقاع المعمورة، ويتطلّعون إلى اليوم الذي يتمكنون فيه من زيارتها ورؤيتها عن كثب، فيطوفون حولها، ويؤدون المناسك الخاصة بها على أكمل وجه. ولقد مُنِحتُ أنا العبد الفقير هذا الشرف الكبير مرةً أخرى بفضل اللّه وبركة صاحب العصر والزمان (عجّل اللّه تعالى فرجه الشريف)، إذ كنتُ قد سُعِدتُ بزيارة الكعبة قبل هذا عدة مرات، وما كنتُ في خضمّ ذلك الجمّ الغفير إلّاكقطرة من ماء في بحر لجيّ متلاطم الأمواج من البشر، الذين وفدوا على الحرم الإلهيّ الطاهر الآمِن ليؤدّوا واجب الولاء والخشوع. لكنني حُرِمتُ في رحلتي الأخيرة هذه، على غير توقّع وانتظار، من إمتاع ناظريّ بجدران الكعبة، حيث ضُرِبَ حولها طوق من الألواح الخشبية الشبيهة بألواح الفايبر، طول الواحدة منها متران وعرضها متر واحد، وسُدَّت كلّ المنافذ الواصلة إليها. وبلغ الطوق المذكور، الذي غطى جهات البيت الأربع، من الارتفاع بحيث كان يتعذّر علينا رؤية الكعبة حتى من الطابق الثاني للمسجد الحرام. كان السور الخشبيّ العالي هذا، والذي طُليَ باللون الأبيض، لكنّه أشبه

۱- ۱ كتاب الوسائل، باب الحج ۲: ۳۰۳.

ص: ۱۰۷

بسحابهٔ سوداء، تُحيط بالبيت الذى وضع إبراهيم الخليل أساسه. زرعت الحسرهٔ فى قلوب كلّ المشتاقين.

كـانت المسافـهٔ من السـور المـذكور إلى الكعبـهٔ الشـريفهٔ (من جهـهٔ مقـام إبراهيم) نصف مطـاف كامـل، وغطى السور كـذلك حجر اسـماعيل بصورهٔ تامـهٔ بل وجاوزه الى بُعـد ثلاثـهٔ أمتار. كان الزحام أشـدّ عنـد باب الكعبـهٔ والركن اليمانى فى الجهـهٔ المقابلهٔ، وذلك لوجود رافعـهٔ عملاقهٔ نُصِبت هناك أُحيطت بسور بلغ ارتفاعه حوالى (۱۵) متراً، وقـد وُضِعَت فى الفناء الذى يَلى الرافعهٔ مواد إنشائيهٔ مختلفهٔ.

ولايَبعد السور الخشبىّ عن الركن اليمانىّ والكعبهٔ الشريفهٔ إلّاقرابهٔ مترين فقط.

وهكذا لَم تَبِن من البيت العتيق إلّازاويهٔ صغيرهٔ عند ركن الحجر الأسود لا تكاد تَكفى لتَقبيله أو لَمسه.

ولم أكن الوحيـد من بين الزائرين لبيت اللَّه الـذى بهُت ودهش بمشاهـدته ذلـك المنظر الغريب، بل لقـد بَهُتَ كـذلك كلّ الواردين على المسـجد الحرام، وأصـابتهم الحيرهٔ والدهشـهٔ عنـد دخولهم إلى سـاحته ورؤيتهم ذلك السور الجاثم على أنفاس الكعبـهٔ الشـريفهٔ كالضـباب الكـثيف الغليـظ. فخيّم عليهم، وأنـا منهم، حزن كبير وألمٌ شديـد، وظـلّ الحزن والأـلم مصـاحبَين لى حتى اليوم الأـخير من رحلتى تلـك، فكنتُ كمَن يبحث عبثاً عن ضالّته. كنتُ أتمنى أن يُسعفنى الحظّ فأبكى ذنوبى عنـد حائط الكعبـهٔ ثم أمسـح الـدموع بجـدارها. ربّ قائل يقول: إنّ هـذا الجـدار إنّما هو حجارهٔ ولِبن، وهذا صـحيح، لكن ما تحمله هذه الحجارهٔ وذلك اللّبن من ذكريات عزيزهٔ ومعـانٍ جليلـهٔ تتمثـل فى الإحساس بوجود بصـمات مُعظم الأنبياء والأولياء يفوق الحبّ والعشق، ويجعله جـديراً بأن يُقَبَّل ويُشَمّ، ولم يكن ذلك فى تصوّرى، بل وفى تصوّر الجميع، إلّاجُزءاً لا يتجزّأ من العبادهٔ والتّقرّب إلى البارئ عزّوجلّ.

كنتُ وجميع زائرى بيت اللَّه الحرام مُنهمكين طيلـهٔ أسـبوع بالطواف حول البيت المعمور وإقامهٔ الصـلاهٔ وتلاوهٔ القرآن، وذلك بالطّبع بعد الانتهاء من أداء

ص: ۱۰۸

مناسك العمرة ... لكنّ حسرة لقاء بيت المَعشوق ظلّت راسخة فى عُقر فؤادى ومُقيمة فى أعماقى.

وأملًا منى فى أن أحظى بلَمس البيت الحرام جلستُ (يوم الثلاثاء ۳/ ۷/ ۱۳۷۵/ ۲۴/ ۹/ ۱۹۹۶/ ۱۰/ جمادى الاولى/ ۱۴۱۷) بالقرب منه بعد انتهائى من ختم القرآن وأداء صلاة الظهر، منتظراً مترقّباً فرصة السماح لى بذلك.

كانت أشعة الشمس مُحرقة، يحول لظاها وحرّها دون المكوث هناك طويلًا. ومع ذلك فقد انظمّت إلىّ مجموعة أخرى من المشتاقين للكعبة آملين أن يُفتَح لنا الطريق بين لحظة وأخرى، لكنّ التعامل الخشن لأفراد الشرطة وقوات الأمن الذين كانوا يأمرون الناس جميعاً بالإبتعاد عن البيت زاد من درجة يأسنا المشحونة داخلنا، فرأى بعضهم العدول عن الأمر، وإعادة الكَرّة وقت صلاة العصر من جديد.

وبالرغم ممّا شاهدته من تعنّت وصلابة لا مبرّر لهما من قِبَل أفراد الشرطة وقوات الأمن، لكنّ نَفسى لم تُطاوعنى على الرجوع والعدول عن تصميمى وترك المكان، فكنتُ أتنقّل هنا وهناك بحُجج مختلفة، وتمّ لى الطواف حول الكعبة مرات عدة منتظراً اقتناص الفرصة المناسبة.

وفى هذه الأثناء، لفتَ أعرابىّ لبس لباساً عادياً انتباهى وهو يُدخِل مجموعة من الزوار، الواحد تلو الآخر، إلى داخل «المنطقة الممنوعة!» موصياً إيّاهم بعَدَم التّجمهر فى مكان واحد. وما إن هممتُ بالانضمام إلى تلك الجماعة حتى ازداد الزحام واشتدّ التّدافع بيننا، لكننى، مع ذلك، وُفِّقتُ بالانضمام إليهم على أيّة حال، حتى بلغ الأمر حدّاً فقدت فيه الشرطة سيطرتها على الجموع الهائجة، فأغلقوا الباب الرئيسية وشرعوا يطردون كلّ من صادفهم عندها بقسوة وفظاظة لا نظير لهما ... وهكذا خاننى الحظّ ثانية وحُرِمتُ من الدخول إلى الكعبة الشريفة. فقلتُ لنَفسى: «يبدو أنّ صحيفة أعمالى سوداء إلى الحدّ الذى لم أُعطَ فرصة الدخول إلى بيت حَبيبى ...»، فأجابَتنى على الفور: «تُكثِرُ الحَزّ وتُخطِئ المَفْصِل!».

ص: ۱۰۹

خرجت بعد ذلک، أجرّ ورائی أذیال الخیبة والخسران، والندم والحرمان، وبدأتُ باغتنام الفرصة فقمتُ بالطواف حول البیت منهمکاً فی الدعاء والمناجاة مع ربّ العزة.

وبعد مرور قلیل من الوقت، صادفنی بعض العمال الباکستانیّین الذین کانوا یرتدون زیّاً خاصاً ویحملون بطاقات دخول خاصّة بهم، فقلتُ لأحدهم: «هل لی بالدخول معکم إلی حیث تقصدون؟!» فأجاب: «علیک باستحصال الإذن أولًا من الشرطة، فهذا لیس بمقدورنا!». فعاودنی الیأس من جدید وکان یشدّنی إلی ترک المکان والرحیل، لکنّ ذلک لم یکن ما أرید ولا ما عانیتُ من أجله. فعاودتُ الطواف ثانیة حتی عدتُ إلی سابق مکانی، وهناک لمحتُ أحد المواطنین العرب ممّن یلبسون العقال والکوفیة مصطحباً معه شخصین أو ثلاثة، قاصداً إدخالهم إلی داخل الکعبة الشریفة، وبعد اصطدامه بالجموع المزدحمة هناک، فرّقهم ودخل إلی البقعة الممنوعة بعصبیة وغضب کبیرین. فتبعتهم دون وَعی أو شعور منی بالخطر الذی قد یلمّ بی، بل وسبقتهم بالدخول، وسرتُ معهم جنباً إلی جنب بصمت وهدوء مصحوبین بالحذر الشدید حتی وصلنا إلی إحدی الأبواب. وحال وصولنا إلیها أوصدها السدنة بوجهنا بقوة، ثم فُتِحَت منها نافذة صغیرة (۱۰* ۲۰ سم) لتُغلَق هذه أیضاً بعد قلیل. ولمّا رأی العربیّ ذلک غضب وطرق الباب بشدة منادیاً أحد الأشخاص باسمه، ففتح الشخص المُنادی الباب، ولما وقعت عیناه علی العربیّ رحّب به واستقبله بحفاوة وتکریم، فدخل الجمیع ودخلتُ معهم کذلک. ثم خَطونا نحو الباب الرئیسیة التی تبعد عن الساحة الأولی حوالی خمسة أمتار أو ستة. ولا أُکذبکم الخبر، فقد کان الخوف متمکّناً منی ویتملّکنی القلق ممّا سیحدث. علی کلّ، وصلنا الباب الثانیة ودخلنا. هناک، کان أنین الأیام وحُزن السنین یحکیان قصة المکان من خلال حدیث مُسهب ذیشجون، وشُغِل کلّ مجنون منّا بلیلاه، فانقلب حالنا، وآل المآل إلی حیث أراد شدید المحال ...

ص: ۱۱۰

لقـد وقع بصـرنا أوّل ما وقع على سـقالات حديدية نُصـبت على طول ارتفاع البيت الكريم غطّته من جهاته الأربع، وكنا نسـير على ممرّ ثلاثى الطبقـات من الخشب يمرّ بحجر إسـماعيل ويتحـول منه إلى سـلّم خشـبىّ أيضـاً حتى وصوله إلى الركن الـذى يقع عنـد مقـام إبراهيم، ثم ينتهى بنـا إلى داخـل البيت الشـريف. فعبرنا الألواح ووصـلنا إلى باب البيت العتيق الـذى أزيل عنه مصـراعاه، ووضع بـدل ذلـك داخل إطار حديـدىّ مُحكم. دخلنا هـذا الباب إلى داخل البيت، فوجـدنا حوالى ۱۰ أو ۱۵ شـخصاً كلّهم كانوا مشغولين بإقامة الصـلوات وكان معظمهم من عمّال البناء، منهم من نزل إلى السـجود وآخرون بين قيام وقعود. فأسرعتُ إلى الصلاة موجّهاً وجهى نحو إحـدى أركان البيت الحرام. لقـد كان حال الموجودين منقلباً انقلاباً شديداً، وكان صوت بكائهم الممزوج بالرهبة والخوف والخشوع يتردّد صداه فى زوايا البيت وحناياه. كانت بصـمات الدهر الماضـى واضحة المعالِم فى كلّ نقطة وبقعة من الجدران الداخلية، ولحسن الحظ لم تمتـدّ إليهـا يَـد التّعمير بعـد. وعلى عكس الأحجـار التى تُرى من الخارج، كانت أحجار الجـدار غير المصـقولة من الـداخل تتراوح بين حجر كبير وآخر صـغير ... كأنّها طُليت بالإسمنت وحسب ...! كان واضحاً أنّ أرضية البيت التى غطّاها الإسمنت حتى حافة باب البيت، قد خضـعت لبعض التعميرات فى السابق، باستثناء بعض السنتيمترات التى خُصّصت لقطع وصقل أحجار المرمر. لكنّ الذى لفتَ انتباهى هنا هو أنّ الإسـمنت الموجود لم يكن من نوع الإسـمنت الذى نعهده، إذ كان يبدو ممزوجاً ببعض المواد الغريبة الأخرى ...! أما أرضـية البيت فقـد سُوّيت بدقّة متناهية، وكانت تُلاحَظ وجود طبقة من العازل (عازل الرطوبة) بسُـمك ۱۰ سنتيمترات واضحة للعيان من خلال حافّات الإسمنت المصبوب على الأطراف، والتى ستزول لا محالة سريعاً بعد إكساء الأرضية بالمرمر.

وبدا لى كذلك أنّ السقف قد أُزيل أيضاً واستحدث مكانه سقف جديد

ص: ١١١

يتكوّن من طبقتين يمكن تمييزهما عن بعضـهما بوضوح، مفتوح فى إحدى زواياه عند باب الكعبة المنتهى بحجر إسـماعيل بمقدار ٥/ ١* ٥/ ١ متر مربّع لأجل القيام بأعمال البناء ومرور الرافعة من خلاله كذلك. وكان السـقف العلوىّ مغطّى بأخشاب ضـخمة بنّيّة اللّون، وأمـا السـفلىّ فمن الخشب الرقيق البنىّ اللون والمزيّن بـالخطوط. ثم رأيت عمودين إسـطوانيّين جميلين يتوسّـطان ساحـة الـبيت حيث تفصل بينهما مسافة ۴ أمتار، وقد اسـتقرّ الأول عند جهة حجر إسماعيل والآخر على بعد مترين من الجدار (من جهة الركن اليمانىّ إلى ركن الحجر الأسود)، قيل: إنّهما إنّما وُضِـعا لُيمسكا السقف، لكننى لم أستطع معرفة المواد التى يتكون منهما هذان العمودان المَطليان بلون بنىّ.

وكما أشـرتُ، فقـد أزيل عن باب البيت العتيق مصـراعاه ووضع داخل إطار حديدىّ جميل مُحكم، وربما كان ذلك موجوداً من قبل، ورفِعت كذلك روابط الأحجار عنده على أمل شدّها بأربطة جديدة أخرى بعد وضع الباب ثانية فى المستقبل. وكانت توجد فى أعلى الباب لوحة خشبية كبيرة بنّيّة اللون يزيد عَرضها على عرض الباب، ويبلغ سمكها حوالى ٣٠ سنتيمتراً تحتوى على بعض الثقوب.

أمّا جدران الكعبة من الداخل فقد غُطّيت من الأرضية وحتى ارتفاع (٥/ ٢- ٣ أمتار) بطبقة من المعدن الذى ثُبت على الجدار بالبراغى والصامولات وبفاصلة (١٠) سـنتيمترات وهى مكان للأغطيـة التى سـتوضع فيما بعـد والتى قد تكون من المرمر أو ما شابه ذلك. والى الأعلى من الطبقة المعدنية يمكن مشاهدة الجدران الأصـلية على حالها. وعند الركن اليمانى قِبالة الباب كان الوضع شبيهاً بوضع الباب السابقـة للكعبـة التى كـانت مُغطـاة بـالمرمر. ويتوسـط البيت صـندوق من الخشب المُزخرف والُمخرّم يبلغ طوله ۴ أمتـار وارتفاعه متراً واحـداً وعرضه حوالى ۶٠ إلى ٧٠ سـنتيمتراً، موضوع عليه قطعـة من المرمر الأخضـر المطعّم بـالعروق السود الشبيهـة بالفيروزج الرائع الجميل.

ص: ۱۱۲

وهكذا، فقد صلّيتُ ركعتين أخيرتين باتجاه مقام ابراهيم في الوقت المتبقي لي.

وكان ألطف ما خطر ببالي وأجمل ما سكن خيالي أثناء القنوت هو الدعاء بطلب السلامة و العافية لمولانا صاحب الزّمان عليه السلام.

ثم قام السدنة با ستعجالنا للخروج فقمتُ بلمس جدار الكعبة مودّعاً إيّاه و طالباً منهعدم جَعلذلك آخر العهد مني لزيارته ...!

وعند خروجي من البيت الشريف لاحظتُ غياب أحجار الشاذروان بأكملها من حوالي البيت، وصُبّ الإسمنت تحت المرمر بشكل مشابه لِما هو موجود في الداخل وغطّي بأكياس الجوت، وكان العمال يرشّون الماء عليه. فلم يَعُد هناك أيّ وجود للشاذروان أو السلّم الذي كان موجوداً عند جهة حجر اسماعيل وتحت الميزاب الذهبي، وكانت أرضيّته منخفضة بعض الشيء.

واغتنمتُ هذه الفرصة كذلك وصليّتُ ركعتين تحت الميزاب الذهبي، وهنا شعر أحد رجال الشرطة بوجودي، لكنّه تركني وشأني بسبب انشغالي بالصلاة واتّجه الى داخل البيت الحرام. وبعد فراغي من الصلاة عند حجر اسماعيل شرعتُ بتَقبيل جدران البيت واستشمام عبيرها الفردوسيّ الطاهر وكان معي أحد الباكستانيين (من العمّال المشتغلين بالتعميرات الجارية على الكعبة). كان رجلًا لطيفاً ودمث الأخلاق، فقد كان يمسح رأسي ووجهي وصدري بيده، وقد إغرورقت عيناه بالدموع وهو يكرّر من قول: «أنا من عمال الكعبة ...!».

وخلال صيحات أفراد الشرطة، قمتُ باختلاس نظرة أخيرة من بيت اللّه العزيز، توجّهتُ بعدها الى المسجد الحرام.

أللهمّ أرزقنا في كلّ عام زيارة بيتكَ الحرام، بحقّ محمّد وآله عليهم السلام.

الهوامش:

الحجّ عبر الحضارات والأمم (۳) القدس- الكعبة

ص: ١١٣

الحجّ عبر الحضارات والأمم (٣) القدس- الكعبة

ماجدة المؤمن

القدس، هل كانت مركزاً لحج الأنبياء؟

بيت المقدس أو القدس، مدينة تاريخية قديمة عرفت فى التاريخ مدينة مقدسة، اهتمت بها الأديان الرئيسية الثلاثة: الديانة اليهودية والديانة المسيحية والدين الإسلامى الحنيف...

ولفرط قداستها اعتبرها اليهود رمزاً لبيت اللَّه تعالى، واعتبرها النصارى رمزاً لروح القدس، واعتبرها المسلمون أولى القبلتين ومحل إسراء الرسول صلى الله عليه و آله...

وقد حفلت هذه المدينة بالأماكن المقدسة كقبة الصخرة والمسجد الأقصى و هيكل سليمان وحائط المبكى و... مما تقدسه الأديان الثلاثة.

ومن هنا جاء اهتمام التاريخ والأديان بها والصراع عليها، وكلٌ يستطيع أن يؤدى شعائره وطقوسه فيها...

وقد عاش فيها عدد من الأنبياء والمرسلين، فهى فى حقيقتها مدينة الأنبياء والأولياء، وليس هناك مدينة فى تاريخ العالم تمتعت بقدسية مستديمة منذ أن أسسها

ص: ١١۴

(اليبوسيون الكنعانيون) (١) قبل نحو خمسة آلاف عام حتى يومنا هذا، مثل مدينة أورشليم، (بيت المقدس الحالية): فهى الأرض المباركة «دار السلام» كما سمّاها الأقدمون، وقد حمل ملوكها القدماء لواء عقيدة التوحيد للإله العلى لأول مرة فى التاريخ البشرى، على ما يرى كثير من المؤرخين (٢).

وقد خصّها اللَّه تعالى بالعديد من الأنبياء حتى قيل: إنّ بناءها تم على أيديهم وسكنوها وعمروها «ومافيها موضع شبرإلّا وقد صلّى فيه نبى أو قام فيه ملك» (٣)، كما خصّها اللَّه تعالى بإسراء خاتم الأنبياء، ثم إنها قبلة اليهود والنصارى وصلّى إليها المسلمون مع رسول اللَّه محمد صلى الله عليه و آله فى بداية الدعوة الإسلامية فترة قصيرة حتى منَّ اللَّه تعالى على رسوله المصطفى بقبلةٍ يرضاها:... فلنولينك قِبلةً ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثُ ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره وإنّ الذين اوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحقّ من ربّهم وما اللَّه بغافلٍ عما يعملون (۴)

.

وبالرغم من هذه القدسية لبيت المقدس لكننا لم نجد فى القرآن الكريم ما يشير الى أن اللَّه تعالى، ينسبه إلى نفسه فى الكيفية، التى نتلمسها فى الكعبة والتى تختص بها دون غيرها، كما فى قوله تعالى: بيتى (۵)

و بيتك. كما ورد فى قوله ابراهيم عليه السلام مناجياً ربّه عند بيتك المحرم (۶)

. ولو رجعنا إلى التوراة التى دونها اليهود أنفسهم فى الأسر، بعد السبى البابلى وبعد مضى ثمانمئة عام من نزول الوصايا العشر على موسى عليه السلام وتعاليم الشريعة الموسوية، ثم حشر تاريخ بنى اسرائيل فيها والتشويه والتحوير الذى جاء لخدمة مقاصد خاصة وأهداف معينة، حيث اتخذت من شخصية النبى موسى عليه السلام قوة دينية تتشبث بها ضد أعدائها، كما اتخذت من إرجاع أصلها إلى إبراهيم الخليل عليه السلام وحفيده «يعقوب عليه السلام» النسب الأصيل الذى يجعلها أهلًا لتكون «شعب اللَّه المختار»، ومن بيت المقدس عقيدة (الوطن الموعود) الذى يفيض عليها قدسية وروحانية، وعزت كلّ ذلك إلى الإله «يهوه» والى ابراهيم الخليل ويعقوب وكلهم بريئون منها، ولو رجعنا إلى الانجيل فحاله حال

١- ١ اليبوسيون: أقدم سكان أورشليم يرجع الخبراء تاريخ وجودهم فى المدينة إلى ما قبل خمسة آلاف سنة حين نزحوا من جزيرة العرب. وكوّنوا فى موطنهم الجديد حضارة ذات حكومة وصناعة وتجارة وديانة، المصدر: العرب واليهود فى التاريخ: ٣٩١.

٢- ٢ العرب واليهود فى التاريخ، د. أحمد سوسة: ٣٨۶.

٣- ٣ معجم البلدان، ياقوت الحموى ١: ١١٢.

۴- ۴ البقرة: ١۴۴.

۵- ۵ البقرة: ١٢۵. الحج: ٢۶.

۶- ۶ ابراهيم: ٣٧.

ص: ١١٥

التوراة، ومع كلّ ما شوهت وكتبت ودست لكننا لا نلمس أثراً ولا نصاً يقول: إنّ اللّه تعالى نسبه إلى نفسه أو أمر الناس أن يحجوا إليه بينما وجدنا ابراهيم الخليل عليه السلام عندما أقام البيت الحرام (الكعبة) جاءه الخطاب الإلهى وأذّن فى الناس بالحج... وجاء تأكيد القرآن الكريم أولوية الكعبة فقال: إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة.

هجرة النبى ابراهيم عليه السلام إلى القدس

لقد توصل علماء الآثار فى أحدث بحوثهم إلى أن ابراهيم الخليل عليه السلام ظهر فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد أى قبل حوالى أربعة آلاف عام فى بلاد الرافدين، وعاش فى زمن نمرود، الملك الذى دفعته أحلامه المزعجة إلى مراقبة الحوامل وقتل الذكور من المواليد.

وزار عُملاؤه والدة ابراهيم عليه السلام ليكشفوا ما فى بطنها قبل أن يأتيها المخاض، وجسّوا جانبها الأيمن، فاختفى الجنين فى الجانب الأيسر، وجسّوا الأيسر، فاختفى فى الجانب الأيمن، فانصرفوا دون أن يظفروا بما ستلد، الأمر الذى اضطر أمَّ ابراهيم أن تلجأ إلى كهفٍ بالقرب من «كوثا» (١)، وهناك رأى ابراهيم الخليل نور الحياة للمرة الأولى (٢).

ولما بلغ ابراهيم رشده، كما ورد فى القرآن الكريم، من محاورته لأبيه وقومه من عبدة الأوثان، قال تعالى: ولقد آتينا ابراهيم رُشدَه من قبلُ وكُنّا به عالمين* إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون* قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين* قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلالٍ مبين* قالوا أجئتنا بالحقِّ أم أنت من اللاعبين* قال بل ربّكم ربّ السماوات والأرض الذى فطرهُنَّ وأنا على ذلكم من الشاهدين (٣)

.

ثم صمم ابراهيم عليه السلام على تحطيم أصنامهم وأقسم باللّه على ذلك وتاللّه لأكيدن أصنامكم بعد أن تُوَلّوا مدبرين* فجعلهم جُذاذاً إلّاكبيراً لهم لعلهم يرجعون*

١- ١ كوثا: مدينة فى العراق بالقرب من مدينة بابل الحالية، وكانت مركزاً مهماً للساميين.

٢- ٢ نقله الطبرى، الثعلبى، الكسائى، ابن ميمون، الزمخشرى، البيضاوى، ابن الأثير مع اختلاف بسيط فى التعابير والألفاظ.

٣- ٣ الأنبياء: ٥١- ٥٦.

ص: ۱۱۶

قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين* قالوا سمعنا فتًى يذكُرهم يُقال له ابراهيم (۱)

.

وكانت هذه القضية سبباً لمحاكمته العلنية أمام الأشهاد، وانتصر ابراهيم عليهم من خلال محاججته المنطقية والموضوعية: قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون* قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم* قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون* فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون* ثم نُكسوا على رؤوسهم لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون (۲)

.

وبهذا فشل القوم مع ابراهيم عليه السلام، وزادتهم العِزةُ بالإثم عناداً وعداءً لإبراهيم عليه السلام، وأصروا على التخلص منه: قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين* قُلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم* وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين* ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين (۳)

.

من هنا اتخذ ابراهيم عليه السلام خليل الرحمن، رأياً محدداً فى تقرير مصيره، فحين نجّاه اللَّه تعالى من النار التى أضرمها القوم للقضاء عليه، صمم الرحيل والهجرة عن الوطن إلى الأرض المباركة (المقدسة) التى باركها اللَّه تعالى للعالمين كما ذكرتها الآية الكريمة.

أجل إنها كانت مُقدسة، وكان فيها العابد الكاهن الموحّد للَّه‌تعالى المؤسس لبيت المقدس (ملكى صادق) الذى بارك لإبراهيم عليه السلام كما ذكر المؤرخون والباحثون، وذكروا أيضاً أنّ (ملكى صادق) من سلالة كنعان، وكان محافظاً على سُنة اللَّه القديمة بين شعب وثنى، وقد عُرف بالتقوى والزهد، وقيل: إنه كان يسكن هو وقومه فى الكهوف، وكان أول من اختط (أورشليم) القدس وبناها وكان محباً للسلام حتى أطلق عليه «ملك السلام» ومن هنا جاء اسم المدينة «سالم» اى مدينة السلام، ثم «شالم» و «شليم» فهى اليوم «أورشليم» (۴).

۱- ۱ الأنبياء: ۵۷- ۶۰.

۲- ۲ الأنبياء: ۶۲- ۶۵.

۳- ۳ الأنبياء: ۶۸- ۷۱.

۴- ۴ انظر العرب واليهود فى التاريخ: ۳۸۵- ۳۸۷.

ص: ۱۱۷

هاجر ابراهيم خليل اللَّه مع زوجه سارة ولوط وعـدّة من أتباعه تحفهم رعاية اللَّه ورحمته إلى مدينة (حاران) (حرّان الحالية) ومنها إلى أرض كنعان «شليم» فلسطين الحالية، ليستقر هو وأتباعه بالقرب من الرجل الصالح «ملكى صادق».

أمّ إبراهيم تخفى ولدها فى كهف بالقرب من «كوثا»

ص: ١١٨

وبعد فترة، أصاب المدينة قحط وغلاء، فانحدر ابراهيم عليه السلام وزوجه إلى مصر، ثم غادرها عائداً إلى «شليم» وأقام فى حبرون مدينة الخليل الحالية، ثم رزقه اللَّه ذكراً من الجارية المصرية هاجر أسماه اسماعيل الذى فداه اللَّه تعالى بالذبح العظيم كما ذكرنا سابقاً بعد بناء الكعبة الشريفة.

من خلال ما وصل إلينا من أخبار المؤرخين ومن بحوث المنقبين فى الآثار ومن القرآن الكريم وغيرها، لم يذكر أحدهم أنّ ابراهيم عليه السلام هاجر إلى القدس ليحج فيها، أو رجع من مصر ليؤدى مراسم الحج فى القدس، أو أنه اتخذها مكاناً للحج أو دعا للحج فيها، بل هى دار هجرته وغربته كما تذكر التوراة: «تغرب ابراهيم فى أرض الفلسطينين» (١). وكذلك «وسكن يعقوب فى أرض غربة أبيه فى أرض كنعان» (٢).

وهذا ما قد عرفنا أنّ وطن ابراهيم الأول هو بلد وادى الرافدين أى فى العراق الحالى، بل انه عراقى المولد كنعانى الأصل يرجع إلى الجزيرة العربية التى انحدر منها آباؤه وأجداده إلى بابل. والجزيرة العربية أصبحت بعد ذلك موطن ذريته من اسماعيل بعد أن أسكنه هو وأمه فيها...

القدس فى عهد يوسف عليه السلام

ورزق اللَّه ابراهيم عليه السلام فى شيخوخته ولداً آخر سمّاه (اسحاق) أسكنه وأمه العجوز سارة فى مدينة حبرون (الخليل الحالية)، وآلَ أمر اسحاق عليه السلام أن يكون نبياً ويرزق بيعقوب نبياً، وشاء اللَّه تعالى ان يرزق يعقوب أحدَ عشرَ ولداً ذكراً من زوجاته الأربع من بينهم كان يوسف الأثير عند أبيه يعقوب يخصّه بقسط عظيم من محبته ويميزه على اخوانه، وكان يوسف عليه السلام حسن السيرة، جميل الصورة، كثير الأحلام الصادقة، مما جعل يعقوب عليه السلام يهتم به ويؤثره عليهم فسبب ذلك حقد اخوته عليه، ثم كان سبباً فى محنته وغُربته عن الوالد حوالى ثلاثين عاماً لكنها- المحنة والغربة- كانت خيراً وبركة عليه وعلى الأمم القريبة من مصر وعلى

١- ١ العهد القديم، التوراة، سفر التكوين.

٢- ٢ المصدر نفسه.

مصر نفسها وعلى اورشليم موطن غربتهم...

وذُكرت قصة يوسف عليه السلام فى القرآن الكريم بشكل مفصل وجميل كما ذكرتها التوراة مع فارقٍ بسيط، وفى هذا الحديث لا يهمنا من قصة يوسف وأحداثها سوى أنه عندما خرج من بيت المقدس مباعاً إلى «فاطيفور» (۱) الجندى الفرعون، ثم دخل مصر. هل رجع إلى القدس حاجاً لها؟... هذا ما ستبينه المفاجآت فى حياة يوسف عليه السلام!

تغرب يوسف عليه السلام عن الأهل والأحبة والاخوان عدداً من السنين، وبعد معاناة طويلة صار وزيراً على مصر كلّها، فبعث وراء أبويه وعشيرته عن طريق اخوته الذين أرسلهم أبوهم (يعقوب عليه السلام) نتيجة القحط والفقر والجدب الذى أصاب مدينة «أورشليم» وما حولها من البلدان الا مصر بشهامة يوسف عليه السلام وعقله الناضج، حيث ادّخر المواد الغذائية فى المخازن المصرية الفرعونية فى أيام الوفرة لأيام القحط (۲)...

واستقر آل يعقوب «بنو اسرائيل» (۳) فى مصر الفرعونية، حتى وفاة يعقوب عليه السلام حيث جهزه يوسف عليه السلام مع وفد من أهل بيته ورجاله فى موكب عزٍّ وجلال ودُفن فى منطقة «بئر الحى الرائى» (۴) بالقرب من قبر أبيه اسحاق وجده ابراهيم عليه السلام، فى مدينة الخليل الحالية.

وبقى بنو اسرائيل فى مصر وتوفى يوسف عليه السلام، ولم يذكر التاريخ لنا أو الآثار أو التوراة أو أى كتاب سماوى أن يوسف عليه السلام خلال مدة إقامته فى مصر أنه حجَبيت المقدس أو دعا القوم للحج إليه، بل كلّ ما وصلنا أنّ بيت المقدس وما حولها فى عهد يوسف عليه السلام أصابها جدب وقحط وقلة فى الأمطار حتى تركها الأغلبية من سكنها طلباً للماء والغذاء.

إذن دخول بنى اسرائيل- بنى يعقوب- مصر وكان عام (۱۶۵۶) ق. م عن طريق يوسف عليه السلام فى عهد الملك (أبو فيس) ملك الهكسوس فى الأسرة السادسة

۱- ۱ نقلت المصادر التاريخية وكذلك التوراة أن الذى اشترى يوسف عليه السلام من اخوته كان هذا الجندى، راجع التوراة، العهد القديم، سفر التكوين.

۲- ۲ راجع القرآن الكريم الآيات الشريفة من سورة يوسف، والتوراة، العهد القديم، سفر التكوين.

۳- ۳ يعقوب: هو اسرائيل وتعنى بالعربية عبداللَّه وسمّىَ ابناؤه باسمه بنو اسرائيل.

۴- ۴ راجع، التوراة، العهد القديم، سفر التكوين.

ص: ۱۲۰

عشرة، وكان عددهم كما ورد في التوراة سبعين شخصاً بقيادة يعقوب عليه السلام (۱)...

واستقرت هذه الأسرة حوالي (۴۰۰) عام حتى ظهر موسى عليه السلام بينهم...

هذا ما كان للقدس منذ زمن اسحاق عليه السلام حتى موسى عليه السلام فلم يحج أحدهم إليها رغم قدسيتها ومقامها عند الجميع، والقدسية شيء والأمر الإلهي شيءٌ آخر.

موسى الكليم عليه السلام والقدس

وقصة موسى عليه السلام، قصة العظات والعبر والدروس، ذكرها القرآن الكريم بكامل تفاصيلها لأهميتها، ولبيان حماقة قومه الذين كانوا مستضعفين ومضطهدين، فأنجاهم موسى عليه السلام ليسير بهم إلى الأرض المقدسة، فيسكنهم فيها، لكنهم لجوا وكفروا فباءوا بغضبٍ من اللَّه إلى يوم يُبعثون.

وذكرت التوراة قصته بما يشابه ما قصّه القرآن الكريم في ذكر عنادهم ولجاجتهم، إلّاأن التوراة حوّرت في نهاية مطاف بنى اسرائيل مع موسى عليه السلام وأخبار الأجداد والسلف منهم في شرعية استحلال القدس ودخولها وقتل أهلها وسلبهم وحرق ما حلى لهم من ممتلكات سكان أهلها. فقد ذكروا أنّ ابراهيم الخليل حين دخل مدينة «ملكى صادق» باركه الرب وقطع معه ميثاقاً هذا نصّه:

«لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير إلى نهر الفرات» (۲).

وفي موضع آخر من التوراة نجد النص التالي: «وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك. كلّ أرض كنعان لك ملكاً أبدياً» (۳).

ولو رجعنا إلى كليم اللَّه موسى عليه السلام واستقرأنا تاريخه منذ الولادة حتى الوفاة والرحيل إلى الملكوت الأعلى، لنفهم ما هي علاقته عليه السلام بالأرض المقدسة وبيت المقدس، وهل كان يزورها ويحج إليها؟... هذا ما ستمليه علينا النصوص الواردة فيه.

وموسى عليه السلام: هو ابن عمران بن قاهان بن لاوى بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وُلد في مصر، وتربى في بيت «رمسيس الثاني» (۴) الملك الفرعوني

۱- ۱ فرعون موسى، د. سيد كريم، الهلال، العدد ۵: ۷۵.

۲- ۲ العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح، الفقرة.

۳- ۳ المصدر نفسه، الاصحاح، الفقرة.

۴- ۴ وهذا هو فرعون موسى! نجيب فرج، اكتوبر، مجلة عام ۱۹۷۶: ۲۶، وفرعون موسى، د. سيد كريم، العدد ۵: ۷۳ وغيرها.

ص: ١٢١

وعدو بنى اسرائيل، الذى كان يتوقع أن تلد بنو اسرائيل ذكراً يقضى على عرشه وسلطانه (١).

كبر موسى عليه السلام فى البيت الفرعونى، وبلغ أشده، فأنعم اللّه تعالى عليه بالعلم والحكمة بالاضافة إلى ما تعلمه من علوم فى بيت مربيه، ولما بَلَغَ أشده واستوى آتيناه حُكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين (٢)

.

لقد أعدَّ اللّه تعالى موسى عليه السلام لرسالته ودعوته بعد محنٍ كثيرة وغُربة وهجرة وابتلاءات، اصطفاه نبياً ورسولًا، وأمره بالدعوة إلى اللّه، فسأل موسى عليه السلام من اللّه أن يشرك أخاه هارون معه فى هذه المهمة، واجابَ اللّه سؤله، وأمره أن يذهب هو وأخوه إلى فرعون مؤيدين بالآيات والمعجزات، وأمرهما أن يقصداه بالذات لأنه طغى وفسد فى الأرض (٣)، وبعد جدال ومحاججات، أيقن فرعون انه لم يقهر موسى وأخاه، بل هم قهروه وانتصروا عليه، فضاق فرعون ذرعاً بموسى، فأتمر على قتله والخلاص من دعوته، ومن قوة بيانه التى قد تؤثر فى القوم.

فجاءَ الأمر الإلهى لموسى عليه السلام بالخروج من مصر مع بنى اسرائيل المعذبين فيها، فانطلق بهم سرّاً متوجهاً إلى الأرض المقدسة...

خاطب موسى عليه السلام قومه فى صحراء سيناء، مذكراً إياهم نعم اللّه تعالى عليهم، وخروجهم من رقّ العبودية، وهدايتهم فى بعثه نبياً فيهم و...

رغم استمرار موسى عليه السلام فى إصلاحهم وهدايتهم، لكنهم عارضوا وعاندوا وقسوا، وغضب اللّه عليهم مراراً ثم تابوا ثم أنعم عليهم ثم عصوا ولجّوا ثم تابوا ثم عصوا. وكان سلوكهم مع نبى اللّه موسى الكليم هكذا، حتى اشرفوا على حدود الأرض المقدسة، طلب موسى عليه السلام منهم الدخول فيها، بعد أن أرسل رواداً للاستطلاع على الأوضاع هناك، (وهذا دليل على أنّ موسى عليه السلام لم يدخلها قبل هذا الوقت ولم يعرف عنها شيئاً، وأنه سيدخلها لأول مرة فى حياته)، فلما رجع الرواد أخبروهأن قومها أقوياء طوال الهامات، وأنمدنها حصينة، فارتاعبنو اسرائيل ولم

١- ١ كان الفرعون قد أخبرته السحرة والكهنة ان ذكراً من بنى اسرائيل يقضى على عرشه فجعل يقتل الذكور من مواليدهم، لكن موسى عليه السلام نجى، بايحاء اللّه تعالى لأم موسى فقال: «إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى* أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدوٌ لى وعدوٌ له» سورة طه ٢٨- ٢٩.

٢- ٢ القصص: ١۴.

٣- ٣ القرآن الكريم، الآيات ۴٢- ۴٧ من سورة طه و ١٨- ٢٢ من سورة الشعراء.

ص: ١٢٢

يمتثلوا لأمر موسى عليه السلام بمباشرة الغزو بل قالوا له: إنّ فى هذه الأرض جبابرة لا طاقة لنا بهمفلن ندخلها ماداموا فيها، فإذا خرجوا منها نلبى طلبك وندخلها، قال تعالى:

وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة اللّه عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين* يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب اللّه لكم ولا ـ ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين* قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارين وإنّا لن نَدخُلها حتى يَخرجوا منها فإن يخرُجُوا منها فإنّا داخلون (١)

.

هكذا كانت نهاية المطاف مع موسى عليه السلام نهاية الجهد والتعب والسفر الطويل والعناء فى سبيل دخول الأرض المقدسة، أن يقول بنو اسرائيل لموسى عليه السلام: لن ندخلها أبداً ما داموا فيها* فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون* قال ربّ إنّى لا أملك إلّانفسى وأخى (٢)

ثم دعا عليهم فقال: فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين* قال فإنها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين (٣)

. فاستجاب اللّه تعالى دعاءه وأخبره بأنّ الأرض المقدسة لن يدخلوها وسيتيهون فى صحراء سيناء أربعين سنة فلا يأخذه الحزن عليهم، إنهم خارجون عن طاعة اللّه تعالى...

وبعدسنينالتيه وقبل دخول الأرضالمقدسة، أمر اللّه تعالى موسى عليه السلام أن يذهب إلى جبل «نبو» وأن ينظر إلى الأرض المقدسة ولا يدخلها، فصعد موسى عليه السلام، ونظر إليها منفوقالجبل، وتوفى فوق الجبل، ودُفن على الفسجة وهو الكثيب الأحمر (۴).

يقول البيضاوى نقلًا عن النجار عن المدينة المقدسة التى نظر إليها موسى من الجبل، يقول: «إنّ المدينة هى بيت المقدس أى «أورشليم» أو «أريحا». ولعل القول بأنها «أورشليم» الذى دعا أهلها لأن يسموا أحد أبوابها «باب حطة» والقرآن لم يبين المدينة، والتوراة لم يذكر المسألة أصلًا» (۵).

١- ١ المائدة: ٢٠- ٢١.

٢- ٢ المائدة: ٢۴.

٣- ٣ المائدة: ٢٣- ٢۶.

۴- ۴ انظر: قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار: ٢٩٨.

۵- ۵ المصدر نفسه.

ص: ۱۲۳

ومما سبق یتبین لنا- خلال عرض حیاة موسی علیه السلام- أنّ القدس «بیت المقدس» کانت «بیت حج» موسی علیه السلام أو أنه دعا قومه أن یدخلوها لیحجوا إلیها ویطوفوا حولها، کلُّ ما فی الأمر أنهم کانوا قد استضعفوا عند الفراعنة حیث قال اللَّه تعالی عن تلک الفترة التی عاشوها فی مصر: وإذ نجّیناکم من آل فرعون یسومونکم سوء العذاب یُذبّحون أبناءَکم ویستحیون نساءَکم وفی ذلکم بلاءٌ من ربّکم عظیم (۱).

وحین استضعفوا وظُلموا أرسل اللَّه تعالی لهم موسی علیه السلام لیخرجهم من الظلمات إلی النور، لکنهم أبوا أن یطیعوا اللَّه ورسوله، فحرمهم من الأرض المقدسة وغضب علیهم.

سلیمان یبنی الهیکل المقدس

دخل بنو اسرائیل مدینة «أورشلیم» القدس بقیادة «یوشع بن نون» سبط یوسف علیه السلام، بعد وفاة موسی وهارون علیهما السلام، وکان أول بلد احتلوه هو مدینة «أریحا»، وقیل: «أورشلیم»، وقد أمرهم ربّهم أن یدخلوا باب المدینة خاشعین متذللین للَّه‌تعالی، وأن یقولوا «حطّة» أی حطّ یا رب عنّا خطایانا، ولکن هؤلاء القوم خالفوا أمر اللَّه تعالی- کعادتهم- فدخلوا متکبرین، وفسقوا بدل أن یستغفروا ربهم کما دعاهم لذلک (۲). وولی یوشع أمرهم حتی وافاه الأجل فولیَ أمرهم بعده قضاة حکموا فترة من الزمن دون أن یکون لهم ملک ذو سطوة وعزّة، وکانوا عرضة لغزوات الأُمم المجاورة لهم، وکانت العادة المتبعة عندهم أنهم إذا خاضوا حرباً ضد أعدائهم جعلوا «تابوت العهد» (۳) أمامهم یستنصرون به لتقوی عزائمهم.

وکان بنو اسرائیل فی عهد القضاة فی حالة بدویة، وکانت عصبتهم تتجه نحو القبلیة واستمروا کذلک حتی عام (۱۰۴۰) ق. حین ظهر فیهم زعیم وحد شمل قبائلهم وجمعها تحت رایة واحدة، وقبض بیده علی زمام الحکم وکان بذلک أول

۱- ۱ البقرة: ۴۹.

۲- ۲ انظر الآیات الکریمة ۵۸- ۵۹ من سورة البقرة.

۳- ۳ تابوت العهد: صندوق من خشب حفظ فیه موسی ألواح الشریعة التی أُنزلت علیه فی جبل سیناء، استولی‌علیه الفلسطینیون إثر انتصارهم فی معرکة افیق، ووضعوه فی قریة «یعاریم». وقام داود من ثَمّ بنقله فی موکب رسمی إلی أورشلیم حیث بنی له سلیمان هیکلًا. وحفظه فی قدس الأقدس. وزال تابوت العهد أثناء حریق الهیکل عام ۵۸۷ أو ۵۸۶ ق. م علی ید نبوخذ نصر، انظر معجم الحضارات السامیة، هنری س. عبودی: ۲۶۴.

ص: ١٢۴

ملك في بني اسرائيل، وقد عُرف في التاريخ اليهودي باسم «شاول» وسمّاه القرآن الكريم «طالوت».

ظهر لطالوت عدوٌ جبار عرف باسم «جالوت» وشاع شرّه وفساده، دعا طالوت قومه للجهاد في سبيل اللّه وحثهم على قتال أعدائهم، وخرج جالوت ووقف وسط الوادي ونادى صفوف بني اسرائيل أن يختاروا رجلًا منهم لمبارزته وقال: إن استطاع رجلكم أن يغلبني صرنا لكم عبيداً، وإن ظفرت أنا به وقتلته تصيروا لنا عبيداً، فارتاع بنو اسرائيل واحجموا عن محاربته، وظل يتحداهم أربعين صباحاً ومساءً، حتى برز شاب يرعى غنمه، جاء يتفقد اخوته الذين اشتركوا مع جنود طالوت، أرسله أبوه ليخبره بحال أولاده، وكان هذا صغيرهم المسمى «داود»، حين رأى بأمّ عينيه توعدات جالوت لبني اسرائيل وتمرجله عليهم، لم يطق داود الموقف، فقذف جالوت بحجر أخرجه من مقلاعه، فضربهُ على جبهته فخرَّ الجبار على أثرها على الأرض يتلوى، وفي سرعة البرق الخاطف وثبَ عليه داود واستل سيفه وقطع رأسه، فبهرت بنو اسرائيل من هذا الموقف الجبار، وأكبرت داود وجعلته مقدماً بين رجال الحرب في بني اسرائيل... ثم ما لبث فترة حتى صار ملكاً عليهم.

«وتولى داود الحكم في بني اسرائيل، فجمع كلّ بنياسرائيل وذهب معهم «أورشليم»... وأقام في الحصن «حصن صهيون» لذلك دعيت «مدينة داود».

وبنى مستديراً من القلعة... واختار القسم الشمالي... وبنى فيه مذبحاً للرب» (١).

ثم جعل داود ابنه سليمان وليَّ عهده قبل أن يموت، ولمّا ولىّ سليمان عرش الملوكية، أتَمَّ أعمال أبيه وواصل الفتوحات ونظّمَ المملكة تنظيماً حديثاً وشيّد الهيكل، وأوتي الحكمة، وجمع بين النبوةِ والملك، والحُكم والعدل، ودعا ربّه قائلًا:

ربِّ اغفر لي وهبْ لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنك أنت الوهاب (٢)

فاستجاب له ربه، فقال تعالى: فسخّرنا له الريح تجري بأمره رُخاءً حيث

١- ١ العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة: ٣٩٨.

٢- ٢ و ٣٧ سورة ص: ٣٥- ۴٠.

ص: ١٢٥

أصاب* والشياطين كلَّ بناءٍ وغواص* وآخرين مقرنين في الأصفاد* هذا عطاؤنا فأمنن أو أمسك بغير حساب* وإنَّ له عندنا لزُلفى وحُسن مآب (١)

.

مَلّكَ اللّه تعالى سليمانَ ما يشاء من الملك، فوسع سليمان بيت المقدس وبنى الهيكل المسمى ب «هيكل سليمان» (٢)، ويسمى الآن موضع الهيكل القديم (الحرم الشريف) وفي وسطه- في الوقت الحاضر- مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى الى الجنوب منه.

إذن فالهيكل المعروف في القدس كان من إنشاء نبي اللّه سليمان عليه السلام، لكن هذا الهيكل العظيم الضخم، لم يرد فيه أنّ سليمان بعد اتمامه للبناء أنه أذن في الناس للحج فيه، أو أنه حجَّ إليه يوماً من الأيام بأمرٍ من اللّه تعالى...

وهنا لنا أن نتساءل من أين جاء تشريع الحج لليهود والنصارى إلى الهيكل أو الى بيت المقدس واقامة الطقوس التي يمارسونها الآن في بيت المقدس؟

زكريا ويحيي وخدمة الهيكل

زكريا عليه السلام من أنبياء بني اسرائيل، قضى عمره الشريف في الدعوة إلى اللّه وخدمة الهيكل المقدس في بيت المقدس «أورشليم» وعلى هذا فهو «لاوى» لأن خدّام الهيكل «لاويّوا» النسب، أي من نسل لاوى بن يعقوب النبي عليه السلام.

كان زكريا عليه السلام قد بلغ من الكبر عتياً، وامتلأ رأسه شيباً، وكانت امرأته عجوزاً عاقراً غير قادرة على الإنجاب، وبلغ زكريا درجة اليأس من أن يكون له ولد يخلفه في خدمة الهيكل المقدس والدعوة إلى اللّه تعالى؛ لأنّ أقاربه- بني اسرائيل- أصبحوا شِرار القوم- حسب تعبيره عليه السلام- ويخاف أن لا يقيموا أمور الدين ولا يتولوا الناس بالعدل بعد موته، لعلمه بحالهم وعدم تمسّكهم بالشريعة الإلهية وخاف تحريفها، فدعا اللّه تعالى بنداء خفي يطلبُ منه الولد، وحفزه ما يراه من إكرام اللّه تعالى مريم، إنه كلما دخل عليها المحراب فيسألها يا مريم أنى لك هذا (٣)

تجيبهُ قائلةً: هو من عند اللّه إن اللّه يرزق من يشاء بغير حساب (۴)

١- ١..

٢- ٢ هيكل سليمان: بناء ضخم ومحل عبادة، بلغ ارتفاعه ١٨٠ قدماً حين بناه سليمان عليه السلام، مرصع بالذهب، وكانالذهب يغشى أجزاء كثيرة من الهيكل، وجيءَ بمعظم مواد بنائه من فينيقية، وكان يقوم بمعظم الأعمال الفنية صنّاع من صيدا وصور... واستمر بناؤه والعمل في تشييده سبع سنين، كان فيه ١٠٠ حوض من الذهب، وكانت الحجارة الكريمة ترصع أجزاء متفرقة منه، كما كان ملكان مغطيان بصفائح الذهب يحرسان تابوت العهد، وهذا الصرح الضخم لم يبق منه حجر واحد، بل إن موضعه نفسه لا يعرفه أحد على وجه التحقيق، انظر قصة الحضارة مج ١، ٢: ٣٣۶ فما بعد...

٣- ٣ آل عمران: ٣٧.

۴- ۴ آل عمران: ٣٧.

ص: ۱۲۶

وحفزه مـا يراه من عبـادة مريم عليهـا السـلام وخـدمتها للهيكـل المقـدس، فطرق باب الـدعاء إلى اللّه تعالى، واسـتجاب له ربه: فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن اللّه يبشّرك بيحيى مصدقاً بكلمة من اللّه وسيداً وحصوراً (۱)

.

أجل... اسـتجاب اللّه تعالى دعاء نبيه زكريا عليه السلام خادم الهيكل والمسؤول عنه والمبشر والنذير لبنى اسرائيل المعاندين، استجاب له بولد يخلفه فى النبوة والرسالة والهداية، وأرسل إليه ملائكة تبشّره بذلك، واختار له اللّه تعالى اسـماً لم يكن أحد من قبله قد سمى بذلك الاسم: يا زكريا إنّا نبشّرك بغلامٍ اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً (۲)

تعجب زكريا عليه السـلام بهـذه البشـرى وقال: ربِّ أنّى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقـد بلغت من الكبر عتياً قال كذلك قال ربك هو علىَّ هينٌ وقد خلقتك من قبلُ ولم تكُ شيئاً (۳)

.

وتحققت إرادة اللّه تعالى وحملت زوجة زكريا واسمها «اليصابات»، ويقول أهل الكتاب: كان حملها فى الزمن الذى كانت مريم حاملًا فى عيسى. ولا دليل على صحة هذا الادعاء عندنا- فى وقت الحمل وزمنه-.

لقد كان يحيى عليه السـلام على أكمل أوصاف الصـلاح والتقوى منذ صـباه، وقد أوتى الحكمة، قال تعالى: يا يحيى خذ الكتاب بقوةٍ وآتيناه الحكم صبيا (۴)

. وكذلك خصّه اللّه تعالى بحنانه ورحمته لتقواه منذ الصبا، وحناناً من لدنا وزكاةً وكان تقياً (۵)

. هذا ما كان من حياة زكريا وعلاقته فى الهيكل المقدس، وبعد وفاة زكريا عليه السـلام، وقيل قُتِلَ، حسب ما جاء فى انجيل برنابا: «أنّ عيسى قال لليهود:

ستأتى عليكم دماء الأنبياء الذين قتلتموهم إلى دم زكريا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح» (۶).

فتسـلم يحيى زمام الأمور بعـد زكريا عليه السـلام فى امور الدين والقضاء وخدمة الهيكل المقدس والصـلاة والعبادة فى معبد الهيكل، وكان بارعاً فى الشريعة الموسوية- شريعة موسى عليه السلام- ومرجعاً مهماً لكلّ من يستفتى فى أحكامها...

۱- ۱ آل عمران: ۳۹.

۲- ۲ مريم: ۷.

۳- ۳ مريم: ۹.

۴- ۴ مريم: ۱۲.

۵- ۵ مريم: ۱۳.

۶- ۶ قصص الأنبياء/ عبدالوهاب النجار: ۳۶۸. بيروت- لبنان.

ص: ۱۲۷

وتذكر كتب التاريخ والتفسير أنّ فى زمن نبوةِ يحيى عليه السلام كان أحد حكام فلسطين يقال له «هيرودس» وكانت له بنت أخ تدعى «هيروديا» بارعة الجمال، عشقها عمّها وأراد الزواج منها. وكانت البنت وأمها ترغبان فى ذلك، غير أن يحيى عليه السلام كان معارضاً لهذا الزواج؛ لإنه محرّم فى الشرائع السماوية، وكان يحيى آنذاك سيداً نبياً يُحترم كلامه، ولما عرفت أم الفتاة أن يحيى معارضاً لهذا الزواج، هيأت بنتها فى كامل زينتها وأخرجتها على عمّها، ورقصت البنت أمامه، فسَرَّت قلبه، فقال لها: اطلبى ما تتمنين لأَسُرَّ قلبك، وكانت أُمّها قد لقّنتها أن تطلب منه رأس يحيى بن زكريا فى طبق، ففعلت ووفى لها عمّها وأمر بقتل يحيى فى محرابه ومحراب أبيه بين الهيكل المقدس ومذبح الرب (۱).

وبذلك صار هذا المحراب له قدسية خاصة عند أتباع زكريا ويحيى، يُطافُ حوله فى مراسم حجّهم السنوى فى ذكرى يوم الغدر بهما.

منطقة الهيكل فى ادوارها الثلاثة من عهد سليمان حتى العهد الاسلامى «عن كتاب» دليل فلسطين التاريخى

۱- ۱ المصدر السابق: ۳۶۸- ۳۶۹. وكذلك فى كتاب مع الأنبياء فى قصّة يحيى.

ص: ١٢٨

ومن خلال ما تقدم لم نجد أن زكريا أذن للناس بالحج في بيت المقدس ومحراب صلاة زكريا أو ابنه يحيى مع أنهم كانوا في خدمة بيت المقدس من الناحية الدينية.

روح اللَّه عيسى عليه السلام والقدس

الى جذع النخلة في الموضع الذي فيه مدينة (بيت لحم)، على بضعة كيلومترات من بيت المقدس، جاءت بنت عمران «مريم القديسة» لتستتر أو لتعتمد على النخلة اليابسة، وهي في حالة المخاض قالت في نفسها: يا ليتني‌متُّ قبل هذا وكنتُ نسياً منسياً* فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً* وهزي اليك بجذع النخلة تُساقط عليك رطباً جنياً* فكلي واشربي وقرى عيناً (١)

.

لقد أراد اللَّه تعالى أن يسكن روع مريم القديسة العذراء، ولتعلم أن من أوجد لها الرطب من النخلة اليابسة في الشتاء، وأوجد لها الماء الجاري في تلك الهضبة التي كانت عليها من الجبل- جبل صهيون- قادر أن يرد عنها كلّ سوء وحتى عيب العائبين، وقذف القاذفين، وسيأتي المولود الذي خلقه اللَّه بكلمة «كن» على غير الطريقة العادية في التوالد، وهذا الولد اسمه المسيح عيسى، وسيجعله اللَّه تعالى ذا مكانة في الدنيا وذا جاه وشرف وعلو قدر، كما أنه في الآخرة من الصفوة المقربين الى اللَّه تعالى... وإنه خاتم أنبياء بني اسرائيل، ومَثَلُ خلقهِ كمثل آدم عليه السلام: إن مثل عيسى عند اللَّه كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (٢)

.

وضعت مريم العذراء مولودها! وهي وجلة من القوم وبما سيرمونها من الفاحشة والفجور، لكنَّ الملك جبرئيل «الوحي» علّمها بأمرٍ من اللَّه تعالى، أنها إذا أتت قومها أن تقول لهم: إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً (٣)

.

وجاءت قومها تحمله، سألوها يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أُمك بغياً (۴)

فأشارت إلى وليدها، وتكلم بإذن اللَّه تعالى قائلًا:

١- ١ سورة مريم: ٢٣- ٢٦.

٢- ٢ آل عمران: ٥٩.

٣- ٣ مريم: ٢۶.

۴- ۴ مريم: ٢٨.

ص: ۱۲۹

إنّى عبد اللَّه آتانى الكتاب وجعلنى نبياً* وجعلنى مباركاً أينَ ما كنتُ وأوصانى بالصلاهٔ والزكاهٔ ما دمتُ حيّاً... (۱)

.

وبذلك ظهرت براءهٔ مريم العذراء العابدهٔ القديسهٔ المنذورهٔ لبيت المقدس والعاكفهٔ على صلاتها فيه.

ومضت ثلاثون عاماً (۲) على هذه المعجزهٔ لمريم عليها السلام أتتها المعجزهٔ الأخرى أن بُعث عيسى روح اللَّه عليه السلام نبياً ورسولًا فى بنى اسرائيل وأُنزل عليه الإنجيل، وبدأ بالدعوهٔ إلى اللَّه، ففريق صدّقوه واتبعوه حقاً، وفريقٌ كذّبوه وحاربوه، وفريقٌ ثالث انبهرت عقولهم به وبشخصه ومعجزهٔ مجيئه إلى الدنيا من غير أب ومن إحيائه الموتى وشفائه للأكمه والأبرص وغيرها من المعاجز التى جاء بها عليه السلام، هذا الفريق من الناس جعلوه إلهاً يُعبد أو إبناً للَّهالكبير وأنه نظير للمعبود الأب وغيرها من الاصطلاحات التى ميزووا به بقيهٔ مخلوقات اللَّه تعالى...

أجل... أنزل اللَّه تعالى على عيسى عليه السلام الإنجيل: وقفّينا بعيسى بن مريم و آتيناه الإنجيل (۳)

. ولكن اين هو الإنجيل الذى من عند اللَّه والذى ذكره القرآن الكريم؟

لقد ضاع «الإنجيل الأصل» وبقيت أناجيل متعددهٔ محرّفهٔ كتبتها أيادى النصارى، أو بكلمهٔ أخرى ألّفها تلاميذ المسيح عليه السلام من بعده بزمن طويل، وهى عبارهٔ عن تعريف بأحوال المسيح وأعماله وأقواله وعظاته ومعجزاته وخوارق العادات التى أجراها اللَّه تعالى على يده.

أهم الأناجيل التى تعترف بها الكنيسهٔ، أربعهٔ هى:

۱- انجيل متى ۲- انجيل مرقس ۳- انجيل لوقا ۴- انجيل يوحنا.

«إنّ هذه الأناجيل وغيرها من الأناجيل الكثيرهٔ، لم تكتب زمن عيسى عليه السلام بل بعد عهده بفترهٔ، قام بعض تلامذته وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم وكتبوا قصصاً كثيرهٔ. وكلّ واحد يسمى ما كتبه «انجيلًا» حتى قيل: إنّ الأناجيل بلغت:

۱- ۱ مريم: ۳۰- ۳۱.

۲- ۲ بموجب روايات الإنجيل انه بُعث نبياً بعمر الثلاثين.

۳- ۳ الحديد: ۲۷.

ص: ١٣٠

نيفاً ومائة انجيل» (١).

والجدير بنا بيانه: أن هذه الأناجيل فى الظاهر لا ذكر فيها للأمر بالحج إلى بيت المقدس أو إلى أماكن ذكريات عيسى عليه السلام أو مسقط رأسه مثلًا، ولكنّا نرى النصارى يحجون إلى بيت المقدس والى جبل صهيون حيث مسقط رأس المسيح عليه السلام وبيت لحم. هذا المكان فى القدس بدأ الحج إليه منذ أن بُنيت أول كنيسة هناك...

«... وبيت لحم، بعثها الامبراطور قسطنطينوس الأول الكبير، بعثها مدينة دينية وبنى فيها عام ٣٢۶ م كنيسة إلى جانب مغارة يرجح أن يكون المسيح ولد فيها، وهى لا تزال قائمة إلى اليوم، كما بنى فيها (يوستينيانوس) الأول ۵۲۶- ۵۶۵ كنيسة مزخرفة بالفيسانوس...» (٢).

وعلى هذا، فليس هناك مجال للاعتقاد بأنّ المسيح عليه السلام جعل أوامر الحجمكان مسقط رأسه الشريف، وإنما طقوس وألاعيب نسجت بعده عليه السلام.

إسراء محمد صلى الله عليه و آله إلى القدس

وبُعث محمد صلى الله عليه و آله بعد ميلاد المسيح ب (۶١٠) أعوام؛ ليكون خاتماً لجميع الأنبياء والرسل وسيدهم، وخصه اللَّه تعالى بخصائص ومعجزات كثيرة كان منها الإسراء والمعراج.

لقد أسرىَ بالرسول الأكرم صلى الله عليه و آله من المسجد الحرام فى مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى (٣) فى بيت المقدس، ثم عُرج به من بيت المقدس إلى السموات العُلى، وقد اتفقوا على وقوع الإسراء والمعراج لوجود النصّ عليهما فى القرآن والسُّنة، قال تعالى: سبحان الذى أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا... (۴)

.

جاء عن القمى عن أبيه عن ابن أبى عُمير عن هُشام بن سالم عن أبى عبداللَّه عليه السلام فى تفسير هذه الآية قال: جاء جبرئيل وميكائيل وإسرافيل بالبراق إلى

١- ١ قصص الأنبياء، النجار: ٣٩٩.

٢- ٢ معجم الحضارات، هنرى س. عبودى: ٢۵٣.

٣- ٣ المسجد الأقصى: مكان للعبادة ولفظة مسجد مأخوذة من الفعل سَجَدَ، فالمسجد موضع السجود، وحين أُسرى بالرسول الأكرم، لم يكن فى ذلك المكان بناء معروف بالمسجد الأقصى، وانما سمى فى الآية الكريمة ب المسجد الأقصى لأنه مكان يُسجد فيه فى العبادة.

۴- ۴ الاسراء: ١.

ص: ١٣١

رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأخذ واحد باللجام وواحد بالركاب وسوى الآخر عليه ثيابه، فتضعضعت البراق فلطمها جبرئيل ثم قال لها: اسكنى يا براق فما ركبك نبىّ قبله ولا يركبك بعده مثله.

قال: فرفَّت به ورفعته ارتفاعاً ليس بالكثير ومعه جبرئيل يريه الآيات من السماء والأرض. قال: فبينا أنا فى مسيرى إذ نادى منادٍ عن يمينى: يا محمد فلم أجبه ولم التفت إليه، ثم نادى منادٍ عن يسارى: يا محمد فلم أجبه ولم التفت إليه، ثم استقبلتنى امرأة كاشفة عن ذراعيها من كلّ زينة الدنيا فقالت: يا محمد انظرنى حتى اكلمك فلم التفت إليها، ثم سِرتُ فسمعتُ صوتاً أفزعنى فجاوزتُ، فنزل بى جبرئيل فقال: صلِّ فصليتُ. فقال: أتدرى أين صليتَ؟ قلتُ: لا، فقال: صليتَ بطورِ سيناء حيث كلّم اللَّه تعالى موسى عليه السلام تكليماً، ثم ركبتُ فمضينا ما شاء اللَّه ثم قال لى: انزل فصلِّ فنزلتُ وصليتُ فقال لى: أتدرى أين صليتَ؟ فقلتُ: لا، قال:

صليتَ فى بيت لحم، وبيت لحم بناحية بيت المقدس حيثُ ولد عيسى بن مريم.

ثم ركبتُ فمضينا حتى انتهينا إلى بيت المقدس، فربطتُ البراق بالحقة التى كانت الأنبياء تربط بها، فدخلتُ المسجد ومعى جبرئيل إلى جانبى، فوجدنا إبراهيم وموسى وعيسى فيمن شاء اللَّه من أنبياء اللَّه عليهم السلام فقد جمعوا إلىَّ واقيمت الصلاة ولا أَشُكُ إلّاوجبرئيل يستقدمنا، فلما استووا أخذ جبرئيل بعضدى فقدمنى وأممتهم ولا فخر.

ثم أتانى الخازن بثلاثِ أوانٍ وإناء فيه لبن وإناء فيه خمر وإناء فيه ماء، وسمعتُ قائلًا يقول: إن أخذ الماء غرق وغرقت أُمته، وإن أخذ الخمر غوى وغويت أُمته، وإن أخذ اللبن هدى وهديت أُمتُه، قال: فأخذتُ اللبن وشربتُ منه، فقال لى جبرئيل: هديت وهديت أُمتك. ثم قال لى: ماذا رأيت فى مسيرك؟ فقلتُ: نادانى منادٍ عن يمينى فقال: أوأجبتهُ؟ فقلتُ: لا ولم ألتفت إليه فقال: داعى اليهود، لو أجبتهُ لتهودت أمتك من بعدك، ثم قال ماذا رأيت؟ فقلتُ: نادانى منادٍ عن يسارى

ص: ۱۳۲

فقال لی: أوأجبته؟ فقلتُ: کلا ولم ألتفت إلیه فقال: ذاک داعی النصاری ولو أجبته لتنصرت أمتک من بعدک.

ثم قال: ماذا استقبلک؟ فقلتُ: لقیتُ امرأة کاشفة عن ذراعیها علیها من کلّ زینة الدنیا، فقالت: یا محمد انظرنی حتی أکلمک. فقال: أوکلمتها؟ فقلتُ: لم أکلمها ولم ألتفت إلیها فقال: تلک الدنیا ولو کلمتها لاختارت أمتک الدنیا علی الآخرة (۱).

الصخرة المشرفة، منها عرج رسول اللَّه صلی الله علیه و آله إلی السماء

سبحان الذی أسری بعبده لیلًا من المسجد الحرام إلی المسجد الأقصی

ومن بیت المقدس انتقل النبی محمد صلی الله علیه و آله إلی السماء- فکان المعراج- وهناک فُرض علیه وعلی أُمته الصلوات الخمس فی الیوم واللیلة وغیرها، ثم عاد

۱- ۱ نقله القمی فی تفسیره للآیة الأولی من سورة الاسراء، والطباطبائی فی المیزان، ومحمد جواد مغنیة فی الکاشف، وسید قطب فی تفسیره فی ظِلال القرآن، ونقله کُتّاب التاریخ الإسلامی باتفاق السُنة والشیعة، فراجع.

ص: ١٣٣

رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى مكة وجَرى ذلك كُله فى ليلة واحدة (١)...

ومن تلك الليلة قدّس المسلمون المسجد الأقصى فى بيت المقدس، وتوجهوا إليه فى صلاتهم بأمرٍ من اللَّه ثلاثة عشر عاماً وبضعة أشهر.

المسجد الأقصى حالياً

ولم يكن عجباً أن يتخذه المسلمون مكاناً مقدساً لهم، وأن يكون عندهم بالمنزلة الثانية من الحرم المكّى والمدنى من حيث القداسة والصيانة والرعاية...

فصلاة النبى فيه إماماً لأنبياء اللَّه دليلًا على أن اللَّه تعالى يورث الأرض لعباده

١- ١ المصدر السابق.

الصالحين، ودليلًا على قدسية هذا المكان العظيم، لكن القدسية شيء والحج الذى نحن بصدده شيء آخر.

فالمسلمون يقدسون بيت المقدس، ويعتبرونه من مقدساتهم المهمة، لكنهم لم يحجوا إليه لأنهم لم يؤمروا بذلك... ولم تأمر به الأديان السماوية السابقة.

والجدير بالذكر أنّ النبى محمداً صلى الله عليه و آله قيّد البراق بالصخرة المقدسة (١) حين بلغ به الإسراء إلى بيت المقدس، وحتى يومنا هذا يُسمى الجدار الغربى للحرم القدسى بجدار البُراق (٢)، وجاء فى الروايات أيضاً أنّ النبى صلى الله عليه و آله صلى على أطلال هيكل سليمان إماماً لإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وبقية الأنبياء...

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى من معجزات حبيب اللَّه محمد صلى الله عليه و آله وهى تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، إلى محمد صلى الله عليه و آله خاتم النبيين، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أُريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الخاتم لمقدسات الرُسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات، وارتباط رسالته بها جميعاً، قال تعالى: إن الأرض للَّهيورثها من يشاء من عباده (٣)

.

وهذه أروع رابطة وأروع علاقة بين الإسلام وبيت المقدس (محل عبادة الأنبياء)، وقد مثلها النبى الأكرم محمد صلى الله عليه و آله.

لقد احترم الإسلام بيت المقدس، فهو فعلًا بيت مقدس ومحل عبادة للَّه تعالى، وفيه مقدسات الأنبياء من أولهم حتى خاتمهم صلى اللَّه تعالى عليهم جميعاً وسلم، ولكن مع هذا لم يجعله لحظة واحدة مركزاً للحج ولا أخبر نبيه الكريم أنه أمر أحداً من الأنبياء بالحج إليه، بل الاتجاه المأمور به منذ خلق البشرية إلى نهاية الأرض، بالحج إلى مكة المكرمة حيث بيت اللَّه العتيق، فالإذن إليه لا لغيره.

١- ١ الصخرة المقدسة: صخرة ذات تاريخ قديم جدّاً قدسها أهل أورشليم وتصوروا أنها نزلت من السماء كالحجرالأسود فى الكعبة.

٢- ٢ جِدار البراق: هو الحائط الذى ربط فيه رسول اللَّه محمد صلى الله عليه و آله البُراق الدابة فى ليلة الاسراء فسمى بجدارالبُراق.

٣- ٣ الأعراف: ١٢٨.

ص: ۱۳۵

الكعبة لا القدس مركزاً لحج الأنبياء...

من كلّ ذلك، ومن خلال ما أوردناه من حياة الأنبياء، لم نقرأ أنهم حجوا بيت المقدس، كما قد يتبادر إلى الذهن من خلال اسم البيت وقدسيته، ووجود الأنبياء فيه وممارستهم بعض شعائرهم... وعباداتهم و...

لكن البيت الحقيقى الذى حجّه الأنبياء ومارسوا فيه شعائر اللَّه تعالى، هو بيت اللَّه العتيق والكعبة الشريفة، كما وردت فى الروايات عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله وعن آله الأطهار أنه أول بيت وضع للحج فيه، وهو أول بيت للّهعُبد اللَّه تعالى فيه، وهو أول بيت أسست شعائر الحج فيه، إلّاأنّ المنحرفين عن الجادة المستقيمة، اتّخذوا أماكن حج وشعائر حج على غرار الحج لبيت اللَّه.

وكما أنّ لبيت اللَّه الأولوية فى كلّ شىء، فإنه أعظم بيت وضع على الأرض، فقد قال الأزرقى: حدثنى جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: «أخبرنى ابن جريج، قال: بلغنا أنّ اليهود قالت: بيت المقدس أعظم من الكعبة؛ لأنه مهاجر الأنبياء، ولأنه فى الأرض المقدسة، وقال المسلمون: الكعبة أعظم، فبلغ ذلك النبيّ محمداً صلى الله عليه و آله فنزل: إنّ أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً حتى بلغ فيه آيات بينات مقام ابراهيم وليس ذلك فى بيت المقدس، ومن دخله كان آمناً وليس ذلك فى بيت المقدس» (۱).

وبيت المقدس بيت مُقدّس واقعاً، وبيت عُبد فيه اللَّه، وكلّ بيت يُعبد فيه اللَّه فهو مسجد، وكُلُّ مسجد هو بيت اللَّه، لكن الكعبة شىء آخر، ولها شأنٌ آخر، فقد قال اللَّه تعالى لآدم عليه السلام: «سأجعلُ فيها (۲) بيوتاً ترفع لذكرى، ويسبحنى فيها خلقى، وسأبوئك فيها بيتاً أختاره لنفسى، وأختصّه بكرامتى، وأوثره على بيوت

۱- ۱ أخبار مكة، الأزرقى ۱: ۷۵.

۲- ۲ أى فى الأرض.

ص: ١٣٦

الأرض كلّها باسمى، فأسميه بيتى، وأنطقه بعظمتى، وأجوزه بحرماتى، وأجعله أحقّ بيوت الأرض كلّها وأولاها بذكرى، وأضعه فى البقعة التى اخترتُ لنفسى، فإنى اخترتُ مكانه يوم خلقت السموات والأرض... ومن عظّم شأنه عظم فى عينى، ومن تهاون به صغر فى عينى، ولكلّ ملك حيازة ما حواليه، وبطن مكة خيرتى وحيازتى وجيران بيتى وعمارها وزوّارها... فأجعله أول بيت وضع للناس ...» (1).

المسجد الحرام

١- ١ أخبار مكة، الأزرقى ١: ۴۶- ۴۷، منشورات الشريف الرضى.

ص: ۱۳۷

الكعبة فى التاريخ

لا أعتقد أنّ أحداً يجهل قِدم الكعبة الشريفة، فلهذا البيت الشريف تاريخ طويل وتاريخ عريق موغل فى القِدم، فهو- كما ذكرنا- أول بيت وضع للناس ليعبدوا فيه اللَّه سبحانه، من هنا جاءت تسمية «بيت اللَّه العتيق».

ولا- أظنّ أحداً يجهل القداسة التى تمتع بها هذا البيت الشريف، الذى حاز من الشرف فى امتداد تاريخه الطويل، أن يُعتق زائره وقاصده، من ذنوبه وآثامه ومعاصيه، ويخرج منه كيوم ولدته أُمه، ويحصل على مراده فى الدعوة فيه، إضافة الى ذلك فقد كان مركزاً لحج الملائكة قبل آدم عليه السلام بألفى عام، ثم حج إليه أبو البشر آدم عليه السلام وولده من بعده...

ولماجاءزمن نوح عليه السلام والطوفان الكبير الذى حدث فى أيامه، زالت معالم البيت، وقيل رُفع إلى السماء، وبقى أثره على الأرض فقط، حيث كان أكمة حمراء مدرة لا تعلوها السيول. والناس يعرفون أنّ هذا المكان هو موضع بيت اللَّه الكريم، وكان يزوره المظلوم والهارب من جور الأرض وظلمها، فيدعو اللَّه فيه فيستجاب له، حتى بوّأه اللَّه تعالى لإبراهيم الخليل عليه السلام، ومَنَّ مرةً أخرى على عباده بالحج لهذا البيت الشريف المقدس والعبادة فيه والدعاء وطلب الحاجة من اللَّه تعالى فيه للدنيا والآخرة ...

أما الموقع الجغرافى للكعبة الشريفة: فهى فى منتصف الجزيرة العربية الغربى، على بُعد ثمانية وأربعين ميلًا من البحر الأحمر فى وادٍ غير ذى زرع، تحيطها جبالٌ جرداء تكادُ تُطبقُ عليها من جميع الجهات، صيفها حار لا يُطاق. وموقعها هذا جعلها محطة صالحة فى طرق القوافل الطوال التى تجمع فى بعض الأحيان ألف جمل بعضها وراء بعض، والتى تحمل المتاجر بين جنوبى بلاد العرب (ومن ثم بين الهند وافريقية الوسطى) وبين مصر، وفلسطين، وبلاد الشام. وكان التجار أصحاب هذه التجارة يؤلفون فيما بينهم شركات محاصة، ويسيطرون على أسواق

ص: ١٣٨

عُكاظ (١).

ويقومون بالشعائر الدينية المجزية حول الكعبة وحجرها الأسود المقدس (٢).

وقد وصف الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة الكعبة، بقوله: «أَلا ترونَ أنّ اللَّه سبحانه اختبر الأولين من لدُن آدم- صلوات اللَّه عليه- إلى الآخرين من هذا العالم بأحجارٍ لا تضر ولا تنفع، ولا تُبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذى جعله للناس قياماً، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقلَّ نتائق الدنيا مدراً، وأضيق بطون الأودية قُطراً، بين جبالٍ خشنة ورمالٍ دَمِثة، عيون وشلة، وقُرًى منقطعة، لا يزكو بها خُفّ، ولا حافر ولا ظلف» (٣).

ثم بيّن عليه السلام قِدم الكعبة بقوله: «ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابةً لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم، تهوى إليه ثمار الأفئدة. من مفاوزِ قفار سحيقة، ومهاوى فجاج عميقة، وجزائر بحارٍ منقطعة حتى يهزّوا مناكبهم ذُللًا، يُهلّلون للَّهحوله، ويرملون على أقدامهم شُعثاً غُبراً له. قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم و...» (۴).

وعن تاريخ بناء الكعبة وإعادة بناءها وتجديدها يحدثنا وِل ديورانت قائلًا:

«إنّ الكعبة بُنيت ثم أُعيد بناؤها عشر مرات، فقد بناها فى فجر التاريخ ملائكة السماء، وبناها فى المرة الثانية آدم أبو البشر، وفى المرة الثالثة ابنه شيث ثم بناها فى المرة الرابعة إبراهيم وإسماعيل... وبناها فى المرة السابعة قُصى زعيم قبيلة قريش، وبناها فى المرة الثامنة كِبارُ قُريش فى حياة محمد صلى الله عليه و آله عام (۶۰۵) م وبناها فى المرتين التاسعة والعاشرة زُعماء المسلمين فى عامى ۶۸۱ و ۶۹۶ م والكعبة كما بُنيت فى المرة العاشرة هى كعبة هذه الأيام فى معظم أجزائها» (۵).

وفى بيان قِدم الكعبة يقول الإمام الباقر عليه السلام: «لما أراد اللَّه تعالى أن يخلق الأرض أمر الرياح فضربن متن الماء حتى صار موجاً، ثم أزبد فصار زبداً واحداً

١- ١ أسواق عُكاظ: أسواق تجارية مهمة، تدر بالأرباح المالية الهائلة خصوصاً فى موسم الحج قبل الاسلام وبعده.

٢- ٢ قصة الحضارة، وِل ديورانت مج ١، ١: ١٨.

٣- ٣ نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢ القاصعة: ٢٩٣ منشورات دار الهجرة إيران. قم

۴- ۴ الخطبة نفسها.

۵- ۵ قصة الحضارة، وِل ديورانت مج ٧، ١: ١٨.

ص: ۱۳۹

فجمعه فی موضع البیت، ثم جعله جبلًا من زبد، ثم دحا الأرض من تحته وهو قول اللّه عزّوجل: إن أول بیت.. فأول بیت خُلق من الأرض الکعبهٔ، ثم مدت الأرض منها» (۱).

هذا موجز سریع استعرضتُ فیه تاریخ الکعبهٔ؛ لیکون مدخلًا ومقدمهٔ لقراءتها من التاریخ وتمهیداً للتفصیلات اللاحقهٔ...

هبوط آدم علیه السلام وبناء الکعبهٔ

آدم علیه السلام، الکعبهٔ الشریفهٔ، قَدِما الینا من أعماق التاریخ، قَدِما مجملین، فقد ورد ذکر آدم علیه السلام ضرباً فی القرآن الکریم ووردت قصته وأمر خلقه وهبوطه الأرض، ووردت الکعبهٔ کمرکز مقدس هام فی القرآن الکریم أیضاً... ولکن متی بُنیت؟ وهل کان آدم علیه السلام فعلًا هو بانیها أم هناک غیره؟ فذلک ما حدثتنا به الروایات، والروایات فی هذا الموضوع کثیرهٔ تحکی صراحهً بأنّ بانی الکعبهٔ الأول هو آدم، ومن هذه الروایات الکثیرهٔ فی بناء آدم علیه السلام الکعبهٔ حین هبوطه إلی الأرض، نذکر ما ذکره الأزرقی فی کتابه «أخبار مکهٔ»:

فقد ورد عنه: «وحدثنی جدی قال: وحدثنی إبراهیم بن محمد بن أبی یحیی عن الزهری، عن عبداللّه بن عبداللّه عتبهٔ بن مسعود، عن ابن عباس رضوان اللّه تعالی علیه قال: کان آدم علیه السلام أول من أسس البیت، وصلی فیه حتی بعث اللّه الطوفان ...» (۲).

وفی الروایات الأخری تفصیلات یطول ذکرها... ولکن الحقیقهٔ أنّ القراءهٔ الدقیقهٔ والتفصیلیهٔ، لا مجال لها فی هذا الموضوع، وإنما أردنا مجرد ذکر ما ورد فی تاریخ بناء الکعبهٔ، وهذه روایهٔ أخری عن ابن عباس ونکتفی بها؛ لأن ما جاء فی هذا الأمر روایات یشابه بعضها الآخر.

یقول ابن عباس: «لما أهبط اللّه تعالی آدم من الجنهٔ کان رأسه فی السماء ورجلاه فی الأرض وهو مثل الفلک فی رعدته، قال: فطأطأ اللّه عزّوجل منه ستین

۱- ۱ الکافی، الکلینی ۱: ۱۸۹.

۲- ۲ أخبار مکهٔ، الأزرقی ۱: ۴۰.

ص: ١٤٠

ذراعاً، فقال يا رب مالى لا أسمع أصوات الملائكة ولا أحسهم؟ قال: خطيئتك يا آدم ولكن اذهب فابن لى بيتاً فطف به واذكرنى حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى، قال: فأقبل آدم عليه السلام يتخطا، فطويت له الأرض وقبضت له المفاوز فصارت كلّ مفازة يمرّ بها خطوة وقبض له ما كان من مخاض ماء أو بحر فجعل له خطوة، ولم تقع قدمه فى شىء من الأرض إلّاصار عمراناً وبركة حتى انتهى مكة فبنى البيت الحرام، وإنّ جبرئيل عليه السلام ضرب بجناحيه الأرض فأبرز عن أسٍ ثابت على الأرض السُفلى، فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلًا، وإنه بناه من خمسة أجبل: من لبنان، وطور سيناء، والجودى، وحواء، وطور زيتا حتى استوى على وجه الأرض» (١).

فإن صحت هذه الأخبار والروايات التى وصل إلينا منها الحشد الكثير، فيكون البانى والمؤسس والحاج الأول للكعبة الشريفة هو أبو البشر آدم عليه السلام، ولكن القرآن الكريم لم يخبرنا بهذه التفاصيل إنما جاءت قصة آدم عليه السلام مجملة مختصرة...

إنّ ارتباط آدم عليه السلام بالكعبة الشريفة، ووجودها فى زمانه، وفى عمق التاريخ يعطيها أهمية كُبرى فوق أهميتها الذاتية الحقيقية، التى أعطاها اللَّه تعالى، ونسبها اليه عزّوجل...

لقد كرّمها اللَّه تعالى يومَ خُلقت، ويوم حجّها أول إنسان، والى اليوم ما زالت ذلك الصرح الإلهى المقدس العظيم...

زوال معالم الكعبة فى الطوفان

كلّ شىء آيل إلى التغير والتبدل والزوال، على مستوى الدنيا، ولا يبقى سوى اللَّه تعالى كلّ شىء هالك إلّاوجهه (٢) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام (٣).

ولكن عين اللَّه تعالى التى لا تنام، حارسة لمن تحب وما تحب وما تريد أن يبقى

١- ١ أخبار مكة، الأزرقى ١: ٣٦- ٣٧.

٢- ٢ القصص: ٨٨.

٣- ٣ الرحمن: ٢٧.

ص: ١۴١

الی قیام الساعة.

فحین غضب اللّه تعالی علی قوم نوح علیه السلام وطغی الطوفان الکبیر علی سطح الکرة الأرضیة، لم تکن الکعبة المشرفة بمنأی عن هذا الطوفان، فغرقت ضمن ما غرق من موجودات الکرة الأرضیة، ولکونها مرکزاً إلهیّاً مقدساً لم تکن کسایر أشیاء الأرض التی غرقت وانتهی کلّ شیء، وإنما أراد اللّه لها شیئاً آخر، أراد لها اللّه بقاءً أبدیاً إلی قیام الساعة؛ لتکون نقطة الاتصال المرکزیة بین العبد وربّه، من هنا ومن خلال اللطف الإلهی الشامل لکلّ الوجود، قیض اللّه لها نبیاً من عظماء الأنبیاء ألا وهو إبراهیم الخلیل علیه السلام وابنه الحلیم اسماعیل علیه السلام لیعیدا بناءها من جدید، ولیرفعا قواعد البیت... وهکذا بلغ أمر اللّه وتربعت الکعبة علی سطح الکرة الأرضیة؛ لتکون شامخة وعالیة، وامتداداً بین السماء والأرض.

والقرآن الکریم لم یتحدث عن الطوفان بشکل مفصل، وکیف کانت الکعبة وکیف زالت(١)، وإنما ذکر الموضوع بشکل مجمل، تعرض بشکل أساس عن العبرة والموعظة دون التفاصیل والجزئیات والأجزاء والأماکن.

أما الروایات التی تحکی حال الکعبة الشریفة فی الطوفان الکبیر فهی کثیرة جدّاً، لا یسعنا سوی ذکر واحدة أو اثنتین ونکتفی بها.

عن ابن عباس رضوان اللّه علیه قال: «فکان أول من اسس البیت وصلّی فیه وطاف به آدم علیه السلام حتی بعث اللّه تعالی الطوفان: وکان غضباً ورجساً. قال: فحیث ما انتهی الطوفان ذهب ریح آدم علیه السلام قال: ولم یقرب الطوفان أرض السند والهند، قال: فدَرَسَ موضع البیت فی الطوفان حتی بعث اللّه تعالی ابراهیم واسماعیل فرفعا قواعده وإعِلامه...» (٢).

وفی روایة مجاهد قال الأزرقی: قال: «بلغنی أنه لما خلق اللّه عزّوجل السماوات والأرض کان أول شیء وضعه فیها البیت الحرام وهو یومئذ یاقوتة حمراء جوفاء لها بابان أحدهما شرقی والآخر غربی فجعلهُ مستقبل البیت المعمور،

١- ١ لیس من اختصاص القرآن الکریم ذکر التفاصیل فی طرح التاریخ وغیره، وانما یُشیرُ إلیها بما ینسجم والعبرةوالبیان، والتفاصیل تؤخذ من الأحادیث الشریفة والأخبار والروایات.

٢- ٢ أخبار مکة، الأزرقی ١: ٣٧.

ص: ۱۴۲

فلما كان زمن الغرق رُفع فى ديباجتين فهو فيهما إلى يوم القيامة، واستودع اللّٰه عزّوجل الركن أبا قبيس قال: وقال ابن عباس: كان ذهباً فرفع زمان الغرق فهو فى السماء. وعن سعيد عن مقاتل يرفع الحديث إلى النبى صلى الله عليه و آله فى حديث حدّثَ به آدم عليه السلام قال: أى ربّى إنّى أعرف شقوتى، إنى لا- أرى شيئاً من نورك يعبد، فأنزل اللّٰه عزّوجلّ عليه البيت المعمور على عرض هذا البيت فى موضعه من ياقوتة حمراء، ولكن طوله كما بين السماء والأرض، وأمره أن يطوف به، فأَذهبَ اللّٰه عنه الغم الذى كان يجده قبل ذلك، ثم رُفع على عهد نوح عليه السلام» (۱).

ابراهيم عليه السلام يجدد بناء الكعبة

والنبى العظيم أبو الأنبياء خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام، جاء ليعيد مجد الكعبة الشريفة التى درسها الفيضان والطوفان النوحى، ولكن من أين بدأ؟ وأين كان مكانها؟ وفى أية بقعة من بقاع الكرة الأرضية؟ إنّ موضع الكعبة كان قد خُفى ودرس فى زمن الغرق فيما بين عهد نوح عليه السلام وابراهيم عليه السلام، وقد ذكر مجاهد، كان موضع الكعبة أكمة حمراء مدرة لا تعلوها السيول غير أنّ الناس يعلمون أنّ موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعه، وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض ويدعو عنده المكروب، فقلَّ من دعا هنالك إلّااستجيب له، وكان الناس يحجون الى موضع البيت حتى بوأ اللّٰه تعالى مكانه لإبراهيم عليه السلام لما أراد من عمارة بيته وإظهار دينه وشرائعه، فلم يزل منذ أهبط اللّٰه تعالى آدم عليه السلام إلى الأرض معظماً محرماً بيته تتناسخه الأُمم والملل أمة بعد أمة وملّة بعد ملّة، قال: وقد كانت الملائكة تحجهُ قبل آدم عليه السلام (۲).

وقد ذكرنا فى الفصل الثالث، كيفية بناء إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل عليه السلام البيت الحرام، والكعبة الشريفة بالتفصيل، وهنا نضيف كيفية مجىء ابراهيم عليه السلام إلى هذا المكان المقدس، كيف كان والى اين آل.

فقد خرج ابراهيم عليه السلام من الشام، أو من مدينة أورشليم «بيت المقدس» يحمل

۱- ۱ المصدر السابق: ۵۰- ۵۱.

۲- ۲ أخبار مكة، الأزرقى ۱: ۵۲- ۵۳.

ص: ۱۴۳

زوجته وولده الوحيد اسماعيل عليه السلام، فخرج بهم ومعه جبرئيل عليه السلام يدله على موضع البيت ومعالم الحرم، يقول محمد بن إسحاق: «فخرج... لا يمرّ ابراهيم عليه السلام بقرية من القرى إلّاقال: يا جبرئيل أبهذا أُمرت؟ فيقول له جبرئيل عليه السلام: أمضه حتى قدم

الحجر الأسود

مكة وهي إذ ذاك عضاة من سلم وسمر، وبها ناس يُقال لهم العماليق خارجاً من مكة فيما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة. فقال ابراهيم عليه السلام لجبريل: أهاهنا أُمرتُ أن أضعهما؟ قال: نعم! قال: فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه، وأمر

دو فصلنامه «ميقات الحج»، ص: ۱۴۴

هاجر أمّ اسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً ثم قال: ربنا إنّى أسكنتُ من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع (۱)

ثم انصرف إلى الشام وتركهما عند البيت الحرام (۲)، فى رعاية اللَّه ورحمته.

وقال ابن جريج: «وبلغنى أنّ جبرئيل عليه السلام حين هزم بعقبة فى موضع زمزم قال لأُم اسماعيل:.- وأشار لها إلى موضع البيت- هذا أول بيت وضع للناس، وهو بيت اللَّه العتيق، وأعلمنى أنّ ابراهيم واسماعيل يرفعانه للناس ويعمرانه فلا يزال معموراً، محرماً، مكرماً إلى يوم القيامة، ويضيف ابن جريج: أنّ أمّ اسماعيل ماتت قبل أن يرفعه ابراهيم وإسماعيل، ودُفنت فى موضع الحجر» (۳).

زواج إسماعيل عليه السلام وولاية أبنائه الكعبة

ليس من المحتم أن ندرك حكمة اللَّه تعالى للوهلة الأولى، فقد يأمر اللَّه أمراً يبدو فى الظاهر غير مناسب، ولكن مناسبته وأهميته تظهر أخيراً، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحالة الإنسانية، إلى استعجال الانسان فى الأمور وطلب الحقيقة فوراً دون تأنٍ، قال تعالى: خلق الانسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون (۴).

وهذا ما حدث لهاجر زوجة النبى ابراهيم عليه السلام المؤمنة باللَّه الطائعة لأمره وأمر نبيه، والدة اسماعيل عليه السلام الحليم الممتثل لأوامر اللَّه تعالى، وصاحب تلك الاطاعة المثالية فى الذبح وبناء الكعبة وغيرها من الأمور...

ولمثالية النبى اسماعيل عليه السلام وسلوكه القويم منحه اللَّه تعالى ولاية أقدس بقعة من بقاع الأرض، وأحبّها إلى اللَّه، الكعبة الشريفة ومن بعده ولاية أبنائه عليها...

وإذا رجعنا إلى قصة ابراهيم عليه السلام وزوجه هاجر ووحيدهما اسماعيل عليه السلام والمكان المقفر الذى أُنزلوا فيه، فسنجد الحكمة والموعظة والمعجزة.

لقد استجاب النبى ابراهيم عليه السلام لأمر ربه الكريم، إذ أخذ هاجر وطفلها الرضيع اسماعيل من الشام إلى أرضٍ قفراء خالية بعيدة عن العمران، ولا ماء ولا غذاء،

۱- ۱ إبراهيم: ۳۷.

۲- ۲ أخبار مكة، الأزرقى ۱: ۵۴.

۳- ۳ المصدر السابق: ۵۶.

۴- ۴ الأنبياء: ۳۷.

ص: ۱۴۴

ص: ۱۴۵

فأنزلهما وقفل راجعاً، تبعته هاجر ملتاعة وقالت له، إلى أين تذهب؟ ولمن تتركنا بهذا الوادى الموحش المقفر؟ قالت له ذلك مراراً خائفة وجلة، مستعطفة، وهو يمضى فى سبيله، عندئذ قالت: اللّه آمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا اللّه، وحُسن ظنها وإيمانها باللّه تعالى طمأن قلبها، وقيل: إن جبرئيل عليه السلام طمأن قلبها، أن أخبرها أنّ هذا المكان سيكون مكان خير وبركة ومهوى الأفئدة.

وقد خطهُ اللّه تعالى لها ولابنها أن جعل البركة فى إسماعيل وحيدها، وجعله أمة، وجعل ذلك المكان المقفر تهوى إليه أفئدة الناس، وجعل الخير والبركة والأمن والأمان فيه.

عن ابن عباس قال: لما أخرج اللّه تعالى ماء زمزم لأم إسماعيل، فبينا هى على ذلك إذ مرَّ ركب من جرهم قافلين من الشام فى الطريق السفلى فرآى الركب الطير على الماء، فقال بعضهم: ما كان بهذا الوادى من ماء ولا أنيس، يقول ابن عباس:

فأرسلوا رجلين لهم حتى أتيا أمّ اسماعيل فكلّماها ثم رجعا إلى ركبهما، فأخبراهم بمكانها، قال: فرجع الركب كلّهم حتى حيّوها فردت عليهم وقالوا: لمن هذا الماء؟

قالت أم اسماعيل: هو لى، قالوا لها: أتأذنين لنا أن ننزل معك عليه؟ قالت: نعم! (۱) ويضيف ابن عباس قائلًا: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: القى ذلك أمّ اسماعيل وقد أحبت الأنس بهم، فنزلوا وبعثوا إلى أهاليهم، فقدموا إليهم وسكنوا تحت الدوح، واعترشوا عليها العرش فكانت معهم هى وابنها، حتى ترعرع الغلام وأنفسوا فيه وأعجبهم، وتوفيت أم اسماعيل، فلما بلغ أنكحوه جارية منهم .(۲)

وقد ذكر المفسرون والمؤرخون، أنّ اسماعيل عليه السلام طلّقَ زوجته الأولى (تلك الجارية) بطلب من ابراهيم عليه السلام (۳)، وتزوج بأخرى بنت مضاض بن عمرو الجرهمى، فولدت له اثنى عشر رجلًا. وقد ذُكرت أسماؤهم وأحوالهم فى كتب الصحاح وأخبار مكة وغيرها من كتب الخاصة والعامة. وجاء ما يشابه ذلك من الأسماء فى التوراة. والذى يهمنا من ولد اسماعيل عليه السلام «نابت» و «قيدار» كبار ولد

۱- ۱ أخبار مكة، الأزرقى ۱: ۵۷، وصحيح البخارى، عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه و آله.

۲- ۲ المصدر نفسه.

۳- ۳ انظر، الأزرقى، أخبار مكة، ج ۱، وكتب الصحاح، وتفاسير القرآن الكريم، والتوراة، سفر التكون وفى‌التوراة جاءت قصة اسماعيل وهاجر مع زيادات ونقصان كثير وكذب وتحريف أشهر من نارٍ على علم.

ص: ١۴۶

اسماعيل ومنهما نشر اللّه العرب، وبعد وفاة اسماعيل عليه السلام تولى نابت إمارة البيت المعمور، وبعد أن توفى نابت بن اسماعيل عليه السلام ولىَ أمرها- أمر الكعبة- جده لأمّه (مضاض بن عمرو الجرهمى) وضمَّ بنى نابت وبنى اسماعيل عليه السلام إليه فصاروا مع جدهم أبى أمهم ومع أخوالهم من جرهم.

وهكذا توارث آل اسماعيل (وهم فى الحقيقة آل ابراهيم عليه السلام) الكعبة البيت الحرام. وهكذا كرّم اللّه تعالى ابراهيم واسماعيل عليهما السلام.

جُرهم وولايتها الكعبة

بعد وفاة اسماعيل عليه السلام وابنه نابت نصّبت قبيلة جُرهم (الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمى) (١) ملكاً عليهم، وفى نفس الوقت ضعنت قبيلة قطورا (وهم من العماليق) من اليمن إلى مكّة فولّوا عليهم (السميدع) (٢) ملكاً، فلما نزلوا مكة رأوا بلداً طيباً وماءً وشجراً فأُعجبوا بها، فكان الحارث بن مضاض ومن معه قد نزلوا أعلى مكة وقعيقعان، ونزل السميدع ومن معه أسفل مكة وأجيادين، وكان (الحارث) يعشّر (٣) من دخل مكة من أعلاها، وكان السميدع يعشّر من يدخل مكة من أسفلها، لا يدخل واحد منهما على صاحبه فى ملكه، ثم إنّ جرهماً وقطوراً بغى بعضهم على بعض وتنافسوا الملك بها واقتتلوا بها حتى نشبت الحرب بينهم على المُلك وولاة الأمر بمكة، وصارت ولاية البيت إلى العماليق، ثم كانت لجُرهم عليهم، وأقامت جُرهم بولاية البيت نحو ثلاثمائة سنة، وكان آخر ملوكهم الحارث ابن مضاض الأصغر بن عمرو بن الحارث بن مضاض الأكبر وزادوا فى بناء البيت، ورفعته على ما كان عليه من بناء ابراهيم واسماعيل عليهم السلام (۴).

وقال ابن اسحاق: ثم نشر اللّه تعالى بنى اسماعيل بمكة، وأخوالهم من جُرهم إذ ذاك الحكّام بمكة وولاة البيت، كانوا كذلك بعد نابت بن اسماعيل عليه السلام، فلما ضاقت عليهم مكة وانتشروا بها، انبسطوا فى الأرض وابتغوا المعاش والتفسح فى الأرض، فلا يأتون قوماً ولا ينزلون بلداً إلّاأظهرهم اللّه عزّوجل عليهم بدينهم فوطئوهم،

١- ١ قال الأزرقى ونصبت قبيلة جُرهم مضاض بن عمرو فى أخبار مكة، أما المسعودى فقد ثبتَ عنده أنه الحارث بن مضاض فى مروج الذهب ٢: ۵۴.

٢- ٢ السميدع: هو ملك العماليق، وهو ابن هوبر بن لاوى بن قيطور بن كركر بن حيدلا، مروج الذهب، المصدرالسابق.

٣- ٣ التعشير: هو ضريبة تعادل عُشر قيمة البضاعة يدفعها المار من الناس والتّجار لسيد الأرض، مروج الذهب، المصدر السابق.

۴- ۴ انظر أخبار مكة، للأزرقى ١: ٩٠- ٩٣ منشورات الشريف الرضى، ومروج الذهب ٢: ۵۴.

ص: ١٤٧

وغلبوهم عليها حتى ملكوا البلاد ونفوا عنها العماليق، ومن كان ساكناً بلادهم التى كانوا اصطلحوا عليها من غيرهم، وجُرهم على ذلك بمكة ولاة البيت لا ينازعهم إياه بنو اسماعيل لخؤولتهم وقرابتهم وإعظام الحرم أن لا يكون به بغى أو قتال (١).

أما المسعودى فيقول: «وكثر ولد إسماعيل وصاروا ذوى قوة ومَنَعَة فغلبوا على أخوالهم جُرهم وأخرجوهم من مكة، فلحقوا بجُهينة، فأتاهم فى بعض الليالى السيل فذهب بهم، وكان الموضع يُعرف (بإضم) وقد ذكر ذلك أمية بن أبى الصّلت الثقفى فى شعر له فقال:

وجُرهم دفنوا تُهامة فى الد هر فسالت بجمعهم إضَمُ (٢)

خُزاعة وولاية الكعبة

حكمت جُرهم فترة طويلة فى مكة كما ذكرنا سابقاً مع ولايتها على الحرم والكعبة «ولما طالت ولايتهم استحلوا من الحرم أموراً عظاماً، ونالوا ما لم يكونوا ينالون، واستخفوا بحرمة الحرم، وأكلوا مال الكعبة الذى يُهدى إليها سِرّاً وعلانية، وكلّما عدا سفيه منهم على منكر وجد من أشرافهم مَنْ يمنعه ويدفع عنه، وظلموا من دخلها من غير أهلها» (٣).

ويذكر المؤرخون والرواة أنّ جرهماً بعد أن صاروا أكثر سُكان مكة رجالًا وأموالًا وسلاحاً وأعزهم عزة، طغوا وتنازعوا أمرهم بينهم واختلفوا، وضعفوا بعد ذلك، فقام (مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض الجُرهمى) ناصحاً لهم (۴). ولم ينفع النصح فيهم، فدخل عمرو بن عامر نازحاً من اليمن مع أهله وأمواله وكاهنة لهم تُدعى (طريفة الكاهنة) مُطاعٌ أمرُها عندهم، فكانوا لا يطأون بلداً إلّاغلبوا عليه وقهروا أهله حتى قاربوا مكة واقتتلوا مع جُرهم ثلاثة أيام فانتصروا وانهزمت جُرهم، فلم ينفلت منهم إلّاالشريد، وكان مضاض بن عمرو ابن الحارث قد اعتزل جرهماً ولم يعنِ فى ذلك، فرحل هو وولده وأهل بيته حتى

١- ١ انظر أخبار مكة، ١: ٨٠- ٩٠.

٢- ٢ مروج الذهب ٢: ٥٥.

٣- ٣ أخبار مكة ١: ٩٠.

۴- ۴ يذكر الأزرقى خطبتهُ لهم فى كتابه أخبار مكة ١: ٩٠- ١٠٣.

ص: ۱۴۸

نزلوا قنونا وحلى أودية على ساحل البحر الأحمر.

وتشتت جُرهم، وفُنيت البقية الباقية بالسيف، وجاء دور خزاعة فی ولاية الكعبة، فحازت أمر مكة وصاروا أهلها، وجاءهم بنو اسماعيل فسألوا السكنی مع خزاعة فأذنوا لهم. فلما رأی ذلک (مضاض بن عمرو بن الحارث) أرسل‌خزاعة يستأذنها فی الدخول عليهم والنزول معهم بمكة فی جوارهم ومتَّ إليهم برأيه وتوديعه قومه عن القتال وسوء السيرة فی الحرم واعتزاله الحرب، فأبت خزاعة أن تقررهم ونفتهم عن الحرم كلّه ولم يتركوهم ينزلون معهم، فقال عمرو بن لحی وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر لقومه: من وجد منكم جرهمياً قد قارب الحرم فدمهُ هدر (۱).

وبذلک سيطرت خزاعة علی مكة وأخرجت جُرهماً منها ونفتهم عن آخرهم الی اليمن، وحزنت جُرهم حزناً شديداً، وندموا علی ما فعلوا فی مكة ندماً ذريعاً، وبكوا علی مكة وألفوا الأشعار فيها (۲).

هذا... وحازت خزاعة ولاية البيت الحرام والكعبة الشريفة، وحُكم مكة، ثلاثمائة عام، وقد تعرضت مكة إلی عدوان أرادوا تخريبها وهدمها، ودافعت خزاعة دفاعاً عظيماً، وقاتلت دونها قتالًا شديداً... وقيل: إن عمرو بن لحی الخزاعی كان يلی البيت وولده بعده خمسمائة سنة حتی كان آخرهم حليل بن حبشة بن سلول بن كعب بن عمرو، الذی تزوج قصی بن كلاب ابنتهُ «حُبی» (۳).

وقال المسعودی: كان أول من ولی البيت من خزاعة عمرو بن لُحی، واسم لحی حارثة بن عامر، فغيّر دين إبراهيم وبَدّله، وبعث العرب علی عبادة التماثيل، حين خرج إلی الشام ورآی قوماً يعبدون الأصنام، فأعطوه منها صنماً فنصبه علی الكعبة، وقويت خزاعة، وعمَّ الناس ظلم عمرو بن لُحی (۴).

ولمّا أكثر عمرو بن لحی من نصب الأصنام حول الكعبة، وغلب علی العرب عبادتها، وانمحت الحنيفية منهم إلّالمعاً، قال فی ذلک شحنة بن خلف الجرهمی:

۱- ۱ المصدر نفسه.

۲- ۲ أخبار مكة ۱: ۱۰۵.

۳- ۳ المصدر نفسه.

۴- ۴ مروج الذهب، المسعودی ۲: ۶۱.

ص: ١٤٩

يا عمرو، إنك قد أحدثت آلهةً شتى بمكة حول البيت أنصابا

وكان للبيت رَبٌّ واحدٌ أبداً فقد جعلتَ له فى الناس أربابا

لتعرفَنّ بأنّ اللّه فى مَهَل سيطفى دونكم للبيت حُجّابا (١)

ولاية قصى بن كلاب الكعبة

تذكر كتب التاريخ عن قصى عندما توفى والده كلاب كان طفلًا رضيعاً فتزوجت أمّه (فاطمة بنت عمرو) ربيعة بن حزام، فخرجت معه من مكة إلى بلاده أرض عذرة من أشراف الشام وحملت معها قصيّاً لصغر سنه، فولدت من ربيعة «رزاح» (٢) ولما شب قصى حدث بينه وبين رجل من قضاعة شيء، فقال له القُضاعى: ألا تلحق بنسبك وقومك فإنك لست منا؟ فرجع قصى إلى أمه وقد وجد فى نفسه مما قال له القضاعى، فسألها عما قال له، فقالت: واللّه أنت يا بنى خيرٌ منه وأكرم، أنت ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وقومك عند البيت الحرام وما حوله. فأجمع قصى للخروج إلى قومه واللحاق بهم وكره الغُربة فى أرض قُضاعة (٣).

دخل قصى مكة فى شهر الحج أحد الأشهر الحُرم، وكان رجلًا جليداً حازماً بارعاً، فلما أنهى حجةُ دخل على حليل الخُزاعى خاطباً ابنتهُ «حُبى»، فلما عرف حليل نسب قُصى رغب فيه وزوجه، وحليل يومئذ ولىُ أمر الكعبة ومكة. ولما حضرت حليل الوفاة نظر إلى قصى والى ما انتشر له من الولد من ابنته، فرآى أن يجعل إمارة الكعبة وحكمها فى ولد ابنته فدعا قصياً، فجعل له ولاية البيت وسلّم إليه مفتاح الكعبة (۴).

وقال حليل لقصى: إنها لا تقوم بفتح الباب وغلقه (۵)، فجعل ولاية البيت إليها وفتح الباب وغلقه إلى رجل من خزاعة يُعرف بأبى غبشان الخزاعى، فباعه أبو غبشان إلى قصى ببعير وزق خمر، فأرسلت العرب ذلك مثلًا، فقالت: «أخسرُ من صفقة أبى غبشان» وفى بيعه لولاية البيت ببعير وزق من الخمر، ونقله ولاية

١- ١ المصدر السابق.

٢- ٢ انظر أخبار مكة، الأزرقى ١: ١٠۴.

٣- ٣ المصدر نفسه.

۴- ۴ المصدر السابق ١: ١٠٧.

۵- ۵ أى «حُبى» لأن فتح الباب وغلقه تحتاج إلى قوة رجل أما الولاية فلها بالوراثة.

ص: ۱۵۰

البيت من قومه من خُزاعة إلى قُصى بن كلاب، يقول الشاعر:

أبو غبشان أظلم من قصيٍّ وأظلم من بنى فِهْرٍ خُزاعة

فلا تَلحوا قصياً فى شِراهُ ولوموا شيخكم إذ كان باعهْ (۱)

ولما مات حليل الخزاعى، أبت خُزاعة أن يكون قصى ولى أمر الكعبة ومكة المكرمة، فأخذت المفتاح منه، فاستنصر قصى قريشاً وبنى كنانة فأجابوه إلى النصر، وأرسل إلى أخيه لأمه «رزاح» فخرج رزاح واخوته لأبيه فى حاج العرب مجتمعين لنصر قصى والقيام معه، فلما كان آخر أيام منى أرسلت قضاعة إلى خُزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصى ما جعل له حليل، وعظموا عليهم القتال فى الحرم، وحذروهم الظلم والبغى بمكة، وذكروهم ما كانت فيه جُرهم، وما صارت إليه حين ظلموا وبغلوا فيها، فأبت خزاعة ذلك واقتتلوا قتالًا شديداً. آلَ الأمر بالنهاية أن يحكموا لقصى بحجابة الكعبة وولاية أمر مكة وأسلمت خزاعة لقصى، وتملك على قومه فملكوه، وكان قصى أول رجل من بنى كنانة أصابَ ملكاً وأطاع له به قومه، فكانت له الحجابة، والرفادة، والسقاية، والندوة، واللواء، والقيادة.

وجمع قريشاً بمكة وسُمى بذلك مجمعاً أو قرشياً (۲). وقصى الجد الخامس للنبى محمد صلى الله عليه و آله وهو من بنى اسماعيل النبى عليه السلام بن إبراهيم الخليل عليه السلام (۳).

وقد كانت ولاية البيت فى خُزاعة ثلاثمائة سنة، واستقام أمر قصى، وعشّر من دخل مكة من غير قريش، وبنى الكعبة، ورتب قريشاً على منازلها فى النسب بمكة، وبيّن الأبطحىَّ من قريش، وهم الأباطح، وجعل الظاهرى ظاهرياً (۴).

ظهور قريش واستيلاؤها على الكعبة

ظهرت قريش فى عهد قصى كما ذكرنا، وكان السبب فى تسميتهم لأن تفسير ذلك الأمن، وتقرّشت، والتقرش: الجمع، ومنه قول ابن حِلِّزة اليشكرى:

إخوة قَرّشوا الذُنوب علينا فى حديث من دَهرِنا وقديم (۵)

۱- ۱ مروج الذهب، المسعودى ۲: ۶۳.

۲- ۲ أخبار مكة ۱: ۱۰۷.

۳- ۳ معجم الحضارات السامية: ۶۸۸.

۴- ۴ مروج الذهب: ص ۶۳.

۵- ۵ مروج الذهب ۲: ۶۵.

ص: ۱۵۱

وكانت قريش قبائل متفرقة جمعها قصى بن كلاب، فسميت قريشاً، فالتجمع فى بعض كلاب العرب يعنى التقرش، ويُقال: كان يُقال لقصى القرشى ولم يسم قرشى قبله، ويُقال أيضاً: إنّ النضر بن كنانة كان يُسمى القرشى وقد قيل: إنما سميت قريش قريشاً لأنها كانت تجاراً تكتسب وتتجر وتحترش فشبهت بحوت فى البحر تسمى «قريشاً» (۱).

وظهرت قريش على ساحة مكة، فلما حاز قصى بن كلاب شرف مكة، وأنشأ دار الندوة، كانت قريش تقضى فيها أمورها، ولم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصى إلّاابن أربعين للمشهورة، وكان يدخلها ولد قصى كلهم، وحلفاؤهم، فلما كبر قصى ولّى ولده عبدالدار وعبدمناف أمور الكعبة، فأعطى عبدالدار السدانة وهى الحجابة، ودار الندوة، واللواء، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة.

وبعد وفاة عبدالدار جعل الحجابة بعده إلى ابنه عثمان بن عبدالدار، وجعل دار الندوة إلى ولده عبدمناف بن عبدالدار، ثم ولى أمورها عامر بن هاشم بن عبدمناف بن عبدالدار وجاء بعده عثمان، ثم وليها عبدالعزى بن عثمان بن عبدالدار، ثم وليها طلحة بن عبداللَّه بن عبدالعزى، ثم وليها ولده حتى كان فتح مكة، فقبضها رسول اللَّه محمد صلى الله عليه و آله بن عبداللَّه بن عبدالمطلب (۲) وحطّم أصنام الكعبة وولى الأمور كلّها؛ ليعيد الحج الإبراهيمى الأصيل فيها بعد أن حُرّف الحج وتغيرت معالمه.

عبادة الأصنام فى الكعبة الشريفة

اتفقالمؤرخون والرواة، أنّ أول مننصب الأصنام فى الكعبة «عمرو بن لحى» وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر، وهو خُزاعى، وقد نقل فكرة الوثنية من بلاد الشام التى زارها، ورأى وثنية أهلها، فتأثر بها وغيّبَ معالم التوحيد ودنّس البيت الحرام. وجاء بالصنم الكبير «هُبل» من هيت (۳)، من

۱- ۱ أخبار مكة ۱: ۱۰۹.

۲- ۲ المصدر السابق: ۱۱۰.

۳- ۳ هيت: بلدة فى العراق.

ص: ۱۵۲

أرض الجزيرة فنصبه فى بطن الكعبة، فكانت قريش والعرب تستقسم عنده بالأزلام، وهو أول من غيّر الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل وكان أمره «عمرو» بمكة فى العرب مطاعاً لا يُعصى له أمر، وقد ذكرنا سابقاً أنه زعيم خزاعة، وانتصرت بقيادته على قبيلة جُرهم، وبلغ بمكة وفى العرب من الشرف ما لم يبلغ عربى قبله ولا بعده فى الجاهلية.

ذكر الأزرقى فى أخبار مكة عن هذا الرجل وتأكيده على الأصنام قائلًا: «إنّ جرهماً لما طغت فى الحرم، دخل رجل منهم بامرأة منهم الكعبة ففجر بها، ويقال إنما قبّلها فيها فمسخا حجرين اسم الرجل أساف بن بغاء، واسم المرأة نائلة بنت ذئب، فأخرجا من الكعبة، فنصب أحدهما على الصفا والآخر على المروة، وإنما نصبا هنالك ليعتبر بهما الناس، ويزدجروا عن مثل ما ارتكبا... فلما كان عمرو بن لحى (قد ولى الكعبة) أمر الناس بعبادتهما والتمسح بهما» (۱) (۲).

وظلَّ الحجاج من أهل مكة ومن غيرهم يعبدون هذين الصنمين المذكورين، ويتمسكون ويتمسحون بهما ويقدمون لهما النذورات والذبائح وينحرون لهما حتى جاء قصى بن كلاب، فصارت إليه الحجابة وأمر مكة، فنقلهما من الصفا والمروة، وجعل أحدهما بلصق الكعبة، وجعل الآخر فى موضع زمزم، وكان أهل الجاهلية يمرون بأساف ونائلة ويتمسحون بهما، وكانوا إذا طافوا بالبيت يبدأون بأساف فيستلمه الحاج، فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها، فكانا كذلك حتى كان يوم الفتح، فجاء رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فكسّرهما، وحين دخل الرسول صلى الله عليه و آله والمسلمون فاتحين مكة المكرمة، كان عدد الأصنام فيها وقد كسرها جميعاً رسول اللَّه صلى الله عليه و آله «ثلاثمائة وستين صنماً» (۳).

وفى ذلك يقول فضالة بن عمير بن الملوح الليثى فى ذكر يوم الفتح:

أوما رأيت محمداً وجنوده بالفتح يوم تكسر الأصنام؟!

۱- ۱ انظر أخبار مكة ۱: ۱۱۹- ۱۲۰.

۲- ۲ وذكر المسعودى فى مروج الذهب ۲: ۵۵، الخبر نفسه وأضاف وقيل: بل هما حجران نحتا ومُثّلا بمن ذكرنا وسميا بأسمائها أساف ونائلة.

۳- ۳ أخبار مكة ۱: ۱۲۱.

ص: ۱۵۳

لرأيت نور اللَّه أصبح بيننا والشرك يغشى وجهه الاظلام (۱)

حادثتا (تبع) و (الفيل) ومنزلة الكعبة

للكعبة الشريفة منزلة عظيمة عند اللَّه تعالى، فقد حفّها برعايته، وخصّها بكرامات سجّلها التاريخ، منها صيانتها من الشر والخراب، فقد تشتت قوم جُرهم لظلمهم فيها وطغيانهم، وخزاعة هى الأخرى، وكذلك قريش وكلّ من يحاول الاعتداء عليها أو الاستخفاف بها، فقد قضت حُرمة الكعبة على قوم تبّع وأصحاب الفيل، أما تُبّع فهو اسم لأحد ملوك اليمن، والتابعة لقب ملوك اليمن، وكان للتابعة دولة وصولة فى اليمن وغيره، وكانوا أحسن حالًا وأكثر مالًا من قريش، ولما عتو عن أمر ربهم أخذهم بالهلاك والدمار.

قال تعالى: أهم خير أم قوم تبّع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين (۲)

.

والتابعة الذين أرادوا هدم الكعبة وتخريبها ثلاثة، وقد كان قبل ذلك منهم من يسير فى البلاد، فإذا دخل مكة عظم الحرم والبيت.

وتُبّع الثالثة التى صممت على هدم البيت الحرام كانت بالدّفِ من جمدان بين أمج وعسفان، دفت بهم دوابهم، وأظلمت الأرض عليهم، فدعا- تُبع ملكهم- أحباراً كانوا معه من أهل الكتاب، فسألهم فقالوا: هل هممتَ لهذا البيت بشىء؟

قالَ: أردتُ أن أهدمه. قالوا: فانوِ له خيراً أن تكسوه، وتنحر عنده، ففعل، فانجلت عنهم الظلمة (وإنما سُمى الدف من أجل ذلك)، فسار وتكررت الحالة ثلاث مرات، فقال الأحبار له: واللَّه ما أرادت هذيل (۳) فى دفعك بهذا إلّاهلاكك وهلاك قومك، إنّ هذا بيت اللَّه الحرام ولم يرده أحد قط بسوء إلّاهلكه... فضرب تُبّع اعناق الهذليين وصلبهم، فرآى فى المنام أنه يكسى الكعبة، فكساها كسوة كاملة، كساها العصب، وجعل لها باباً يُغلق بضُبة فارسية. قال ابن جريج: كان تُبّع أول من كسا البيت كسوة كاملة (۴).

۱- ۱ المصدر نفسه.

۲- ۲ الدخان: ۳۷.

۳- ۳ هذيل: قبيلة عربية كبيرة قطنت شمالى الجزيرة، فريقٌ منهم حثَّ تُبّعاً على هدم الكعبة حسداً لقريش علىولايتها البيت. لكنهم دافعوا عن الكعبة وقاتلوا قتالًا شديداً حينما همَّ إبرهة الحبشى بهدم الكعبة، انظر معجم الحضارات السامية هنرى س. عبودى: ۸۸۲.

۴- ۴ أخبار مكة ۱: ۱۳۳- ۱۳۴.

ص: ١٥٤

وقد جاء في الحديث عن الرسول صلى الله عليه و آله قال: «لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم» (١).

وروى عن الصادق عليه السلام قال: «إن تُبعاً قال للأوس والخزرج: كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبيّ، أما أنا فلو أدركته لخدمته وخرجتُ معه» (٢).

هذا ما كان لقوم تُبّع، أما قوم إبرهة الأشرم أو الحبشي (أصحاب الفيل) فقد ذكرهم القرآن الكريم وكيفية هلاكهم عن آخرهم نتيجة ما كانوا يكيدون للكعبة وتدميرها، وملخص ما جاء من أمرهم في تفاسير القرآن الكريم: أنّ الأحباش بعد أن انتصروا على ملك اليمن، وتسلط إبرهة الأشرم على اليمن، بنى القليس بناءً من الذهب والفضة محكماً يضاهي الكعبة، ودعا الناس للحج إليه بدل الكعبة، وانتشر خبره في العرب، فدعا رجل من بني مالك بن كنانة رجلين من العرب ليذهبا ويحدثا فيه، فدخل إبرهة البيت فرآى أثرهما فيه، فغضب وأقسم على هدم الكعبة، وتخريبها، فسار مع جيشه يتقدمهم فيل أو أكثر حتى وصلوا إلى مكان بالقرب من مكة يُقال له: «المغمّس» فنزلوا فيه، وأرسل إبرهة إلى قريش مَن يخبرهم بأنه لم يأت لحربهم، وإنما لهدم البيت والحرم، فإن لم يعرضوا له بحرب فلا حاجة له بدمائهم. وما أن همَّ إبرهة بهدم البيت أرسل اللّه عليه وعلى جيشه أسراباً من الطير ترميهم بحصى صغيرة لا تصيب أحداً منهم إلّاهلك، ومات وتناثر لحمه، فذعر الجيش وصاحبه، وفرّوا هاربين ومات إبرهة بعد أن وصل صنعاء، وسقط لحمه قطعة قطعة إلى أن انتهى (٣).

قال تعالى: أَلم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل* أَلم يجعل كيدهم في تضليل* وأرسل عليهم طيراً أبابيل* ترميهم بحجارة من سجيل* فجعلهم كعصفٍ مأكول (۴)

.

يقول د. طه حسين في كتابه «مرآة الإسلام»: «وفي هذه الموقعة أظهر عبدالمطلب من الصبر والجلد، ومن الشجاعة والثقة ما لم يظهره غيره من أشراف

١- ١ الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي ١٨: ١٥۴.

٢- ٢ المصدر نفسه.

٣- ٣ انظر الكاشف ٧: ۶٠٩- ۶١٠، والميزان، ومروج الذهب ٢، وأخبار مكة ١: ١٣۴ - ١٥۴، والطبري وغيرها من كتب التاريخ والتفسير.

۴- ۴ الفيل: ١- ۵.

ص: ١٥٥

قريش، ذلـك أنه قـد أشـار على قريش أن تخلى مكـة، فسـمع له قومه، وأقـام هو بمكـة لم يعتزلها، وإنما أقام عنـد الكعبـة يـدعو اللَّه ويستنصـره. ويقول الرواة: إنّ الجيش أغار على إبل قريش فاحتازها، وجاء عبـدالمطلب إلى إبرهة، ولما دخل عليه لم يكلمه إلّافى إبلٍ له، فصـغر فى نفس إبرهـة وقـال له: كنتُ أظن أنـك تكلمنى فى شـأن مكـة، وشأن هـذا البيت الـذى تعظمونه. قال عبـدالمطّلب: إنى أكلمك فى مالى الـذى أملكهُ، أما البيت فإنّ له ربّاً يحميه إن شاء. فأرسل اللَّه على إبرهة وجيشه من تلك الطير، التى ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصفٍ مأكول، وعادت قريش مكة، فازداد إكبارهم لعبدالمطلب وشجاعته وثقته وثباته» (١).

وبذلك حمى اللَّه تعالى بيته من إبرهة ومن كلّ من نوى لها بسوء. وهكذا صـمدت الكعبة الشـريفة فى وجه أكبر الصدمات التاريخية حيث فشلوا فى خرابها والقضاء عليها.

بعثة محمد صلى الله عليه و آله وفريضة الحج

ولـد محمـد بن عبداللَّه بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصـى بن حكيم (كلاب) بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضـر بن كنانـة بن خزيمة بن مدركة بن اللياس بن مضـر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد، وينتهى نسـبُهُ الشـريف إلى اسماعيل بن ابراهيم عليهم السلام (٢)، ولـد فى مكة فى اشـرف بقاع العالم ولم يلد نبىّ قبله ولا بعده- حسب اطلاعنا- فى هذه البقعة المباركة الشـريفة إلّاهو، وقد شـرّفه اللَّه تعالى وكرّمه وجعله سـيد البشـر وسيد الأنبياء وخاتمهم وجعل تابعيه «خير أمة اخرجت للناس، وبعثه فى عامه الأربعين فى محل ولادته نبياً عالمياً للناس كافة، قال تعالى:

وما أرسلناك إلّاكافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٣)

.

بُعث النبى صلى الله عليه و آله فى قوم يعبدون الأصنام فى البيت الحرام، وكانت أصنامهم

١- ١ نقله محمد جواد مغنية فى تفسير الكاشف ٧: ٦١٠، عن مرآة الاسلام، د. طه حسين.

٢- ٢ الاعلام، الزركلى.

٣- ٣ سبأ: ٢٨.

ص: ۱۵۶

أساس الحياة خصوصاً عند قريش زعيمة العرب فی مكة آنذاك، إذ كانت القرابين تقدم لهذه الأصنام، وفی ذلك كانت مصلحة اقتصادية وأدبية لقريش التی كانت تحمی الدار، فالقضاء على «الدين الوثنی» يعنی القضاء على منافع قريش وزعامتها.

لذلك كانت مهمة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فی نشر الدين الجديد مهمة شاقة جدّاً، كمهمة أبيه ابراهيم عليه السلام، فقد ندّد بالوثنية والمعتقدات التی لا تتلاقی مع وحدانية اللَّه، وأظهر فساد نظمهم الاجتماعية، مما أثار غضب قريش عليه ومقاومتها إياه مقاومة شديدة حتى قال صلى الله عليه و آله: «ما أوذی نبیّ مثل ما أوذيت».

ومضى محمد صلى الله عليه و آله يواصل الدعوة بثقة، ومضت الصفوة من الدعاة تواصل السير معه وتترسم خطاه المباركة، وقد أعيى قريشاً إصرارُ محمد صلى الله عليه و آله وأصحابه على تحدّيها فراحت تجدّ فی تحطيم دعوته وتعذيب المؤمنين به، مما اضطره إلى الهجرة بعد أن هاجر مئتا مسلم بإذنٍ منه صلى الله عليه و آله قبله بشهرين، قسم منهم هاجر إلى الحبشة، وقسمٌ آخر إلى المدينة. ثم استقر الجميع فی المدينة المسماة «يثرب» (۱) قبل هجرة الرسول صلى الله عليه و آله وبهجرته إليها تشرفت باسم «مدينة الرسول».

وحين وصول النبیّ الأكرم إليها شرع ببناء الدولة الإسلامية حيث توفرت له عناصرها- الأرض، الأمة، السلطة السياسية المتمثلة بقيادته الحكيمة-، فأسس المسجد؛ ليكون منطلقاً للقيادة ومركزاً لبناء الدولة إلى جانب مهام المسجد العبادية والفكرية، وقد تمثل بناء الدولة فی الخطة الحكيمة التی وضعها رسول اللَّه فی بناء الجبهة الداخلية بمؤاخاة المهاجرين والأنصار، والمساواة فی الحقوق والواجبات بمختلف قبائلهم، وعقد معاهدة مع اليهود بعدم الاعتداء، ثم تكوين الجيش المسلم والقوة المسلحة والجهاد فی سبيل اللَّه، وبناء جهاز إداری متين، وعلاقات خارجية ببعث رسائل إلى بعض الملوك والحكام وغيرها من الأمور.

والذی يهمنا هنا أنّ الرسول صلى الله عليه و آله أصبح قوة لا تستطيع قريش مقابلتها، فجهّز

۱- ۱ يثرب: مدينة زراعية تقع على بُعد أربعمائة وخمسين كيلومتراً إلى الشمال من مكة المكرمة.

ص: ١٥٧

جيشاً من عشرة آلاف مقاتل وسار سرّاً ليباغت قريشاً، وليصادر إمكانية الدفاع من يدها، ولئلا يقع قتال فى مكة الأمن والسلام.

وتحرك جيش محمد صلى الله عليه و آله صوب مكة فى العاشر من رمضان سنة ثمان للهجرة، واستخدم حرباً نفسية بإشعاله النيران فى الصحراء على مقربة من مكة؛ ليُشعر قريشاً بقوة الجيش الإسلامى، ويثير الرعب فى نفوس طغاتها، ويحملهم على الاستسلام والخضوع من غير قتال (١).

و هكذا دخل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله- الذى خرج من مكة مستخفياً يطارده كفارها- دخل فاتحاً محطّماً أعظم حصون الشرك والجاهلية، ولم يستطع الذين حاربوه طوال واحد وعشرين عاماً أن يصمدوا أمام قوة الإيمان الزاحفة، فاستسلموا، وأتوا إليه مذعنين، ودفعوا إليه الجزية التى فرضها عليهم صاغرين منكسرين.

وبهذا ثبتت الدولة والدعوة وأركانها فى الجزيرة وتحقق الفتح المبين، واستلم الرسول صلى الله عليه و آله ولاية الكعبة وحطّم أصنامها، وصار يُطافُ بها كما طاف ابراهيم وابنه اسماعيل عليهم السلام من قبل حوالى خمسة آلاف من السنين، واستُجيبت دعوة ابراهيم عليه السلام: ربِّ وابعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة (٢)

.

وأذّن محمد صلى الله عليه و آله للناس بالحج، كما أذن جده ابراهيم ودعاهم إليه وعادت مناسك الحج الإبراهيمى كما خطّها جبرئيل لإبراهيم عليه السلام بإذن السماء...

الكعبة أحب بقاع الأرض إلى اللَّه

لقد ورد فى الروايات الشريفة عن خاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه و آله وعن آله الأطهار: أنّ أحبّ بقاع الأرض إلى اللَّه تعالى هى الكعبة الشريفة. إضافةً إلى ما أشارت إليه الآيات القرآنية كما ذكرنا سابقاً...

قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حين هجرته إلى يثرب ملتفتاً وراءه ناظراً إلى الكعبة الشريفة مناجياً إياها: «واللَّه إنك لأحبّ البقاع إلى اللَّه، ولولا أنّى أُخرجتُ منك

١- ١ راجع تاريخ الطبرى، ومروج الذهب، وقصة الحضارة وغيرها من كتب التاريخ فى فتح مكّة.

٢- ٢ البقرة: ١٢٩.

ص: ١٥٨

ما خرجت» (١).

وروى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أحبّ الأرض إلى اللَّه عزّوجلّ مكة، ما تربة أحبُّ إلى اللَّه عزّوجلّ من تربتها، ولا حجر أحبُّ إلى اللَّه عزّوجل من حجرها، ولا شجر أحبُّ إلى اللَّه عزّوجل من شجرها، ولا جبال أحبُّ إلى اللَّه عزّوجل من جبالها، ولا ماء أحبُّ إلى اللَّه عزّوجل من مائها» (٢).

وقال عليه السلام أيضاً: «ما خلق اللَّه تبارك وتعالى بقعة فى الأرض أحبّ إليه منها- وأومأ بيده نحو الكعبة- ولا أكرم على اللَّه عزّوجلّ منها، لها حرّم اللَّه الأشهر الحُرم فى كتابه يوم خلق السماوات والأرض» (٣).

وهناك روايات أخرى نستغنى عن ذكرها ونكتفى بما ذكرنا، ويكفى أن نستنتج حباللَّه تعالىللكعبة الشريفة مايعطى لزائرها وللحاج إليها ... فقدجاءفى الصحيح:

«الحاج ثلاث أصناف: صنفٌ يُعتقُ من النار، وصنفٌ يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه، وصنفٌ يُحفظ فى أهله وماله وهو أدنى ما يرجع به الحاج» (۴).

الحج بين ابراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه و آله

ومما تقدم يتضح أنّ هناك قاسماً مشتركاً مقدساً بين حج أبى الأنبياء الخليل ابراهيم عليه السلام وحج خاتم الأنبياء الحبيب محمد صلى الله عليه و آله، قاسماً إلهياً فطرياً صحيحاً...

بعيداً كلّ البعد عن الإضافات البشرية والزوائد واللواحق الخارجة عن الحج الحقيقى...

ولكن للزمان معاوله وأنيابه، وللإنسان أهواؤه ورغباته الدنيوية... وقد لعبت فى الأصول والمقدسات فحرفتها وأخرجتها فى أحيان كثيرة عن خطّها الطبيعى الذى وضعه اللَّه تعالى...

قد شَوَّه أو حَرفَ هذا الخط الإلهى (الحج) كثيرٌ من ولاة الكعبة الشريفة وغيرهم ممن جاؤوا (۵) بعد النبى ابراهيم عليه السلام فجعلوه- الحج- مجرد طقوس

١- ١ أخبار مكة، الأزرقى ١: ۵، ونقلها بعض كتب التفسير منه كالكاشف والميزان وغيرها.

٢- ٢ المحجة البيضاء، الفيض الكاشانى ٢: ١۵٢، والفقيه: ٢١۵ تحت رقم ٨.

٣- ٣ المصدر السابق نقلًا عن الكافى، الكلينى ۴: ٢۵٣، والتهذيب ١: ٢۴٨.

۴- ۴ المصدر السابق نقلًا عن الكافى، الكلينى ۴: ٢۵٣، والتهذيب ١: ٢۴٨.

۵- ۵ نقصد بالذين جاؤوا بعد النبى ابراهيم عليه السلام فى منطقة الجزيرة من السدنة والولاة والحكام. الأنبياء بعدابراهيم عليه السلام قد حجوا إليها كما حج ابراهيم عليه السلام.

ص: ١٥٩

خاوية وافعال مادية جسدية محدّدة، وأخرجوه من معناه الروحى والقدسى الذى أراده اللَّه تعالى...

فلم تعد الكعبة ذلك الصرح الإلهى العظيم الذى أقامه النبى ابراهيم الخليل عليه السلام ووضع قواعده، والهدف الإلهى الذى استهدفه من تأسيسها...

وانما أصبحت مركزاً ومقراً للأفكار والأوضاع التى حملها العرب فى العصر الجاهلى بما يحملون من روح وثنية من خلال إدخالهم الأصنام فيها وعبادتهم لها، والتقرب من خلالها إلى اللَّه زلفا، أو مركزاً للأعاجم من فرس وغيرهم ممن لم يؤمنوا إيماناً صحيحاً، وإنما جاؤوا لإحياء ذكريات أو لأغراض أخرى غير دينية ولا- إلهية من قبيل التجارة أو الترويح عن النفس، أو لقضاء الحاجة من خلال تقديم النذور والقرابين مما ورثوه من عادات وعقائد...

وهكذا ابتعد الحج عن أهدافه السامية الأولى الروحية والمعنوية، وصار مجرّد شكل ومظهر مادى لا مضمون فيه ولا روح...

وبُعث النور الأعظم، النبى محمد صلى الله عليه و آله وغيّر الدنيا، والمجتمع.. وإذا بالكعبة والحج الأصيل نفسه يعيد مجده السالف التليد الذى أرساه النبى ابراهيم الخليل عليه السلام وأبناؤه وأحفاده المخلصون...

جاء محمد بن عبداللَّه صلى الله عليه و آله ليضع الحج فى موقعه المناسب، الحج الأبدى، ما دام الإنسان حيّاً يجرى على سطح الأرض...

جاء الحج فى لمساته الأخيرة ركناً مرتبطاً كامل الارتباط بالخالق البارئ عزّوجلّ، وممتداً امتداداً طويلًا إلى كلّ إنسان يجرى فى المعمورة؛ ليصوغ شخصية اجتماعية تستمد من الحج (ذلك الاجتماع الكبير) شخصية سوية كسائر الناس، تنظر إلى الآخرين نظرتها إلى نفسها... باعتباره عبداً من ملايين العبيد للَّه عزّوجل...

وهكذا عاد الحج الإبراهيمى على يد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بعد أن ابتعد عن

ص: ١٦٠

ابراهيم عليه السلام رويداً رويدا وخلف عن سلف كما قال تعالى: فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً (١).

الهوامش:

١- ١ مريم: ٥٩.

مهمّات مشبوهة فی الدیار المقدّسة (۵)

ص: ۱۶۶

مهمّات مشبوهة فى الديار المقدّسة (۵)

حسن السعيد إلى المدينة المنورة

رغم انتهاء موسم الحج، إلّاأنّ بيركهارت اجبر على البقاء فى مكّة المكرمة، بسبب الوضع المتقلب فى البلاد. وعندما غادر هذا الرحالة السويسرى مكّة متوجهاً إلى المدينة المنورة، التى ظلّت مفتوحة للزائرين، حتى منع الوهابيون زيارتها.. لكن هذا المنع أُلغى نتيجة لحملة محمد على باشا. وكان بيركهارت أوّل اوروپى يصل إلى المدينة المنورة، بعد الخطر الوهابى (۱).

فى منتصف كانون الثانى (يناير) ۱۸۱۵، غادر بيركهارت مكة المكرمة على ظهر جمل، فى رحلة استغرقت حوالى اسبوعين (۲)، وفى صباح اليوم الثامن والعشرين، من الشهر نفسه، يكون قد وصل المدينة المنورة. ومن سوء حظه أنه وقع مريضاً بمرض البرداء (الملاريا)، حتى أصابه اليأس من نفسه، وظنّ أنه سيقضى نحبه فى المدينة فيقبر فيها.

لكنه مع ذلك استطاع أن يرى أشياء كثيرة من أحوال المدينة ومافيها، بحيث استطاع أن يكتب عدّة فصول عنها، فى الجزء الثانى من رحلته

۱- ۱ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ۱۱۵.

۲- ۲ صحيفة الحياة؛ م. س.

ص: ۱۶۷

(الصفحة: ۱۳۸– ۲۹۲) (۱).

بقی فی المدینة المنورة ثلاثة أشهر، أمضی منها ثمانیة أسابیع فی الفراش؛ لذا کتب عن المدینة بطریقة أقل شمولیّة من کتاباته عن مکّة (۲)، بل إنّ وصفه للمدینة المنورة ناقص وهزیل، بالنسبة لوصفه لمکّة وجدّة والطائف. کما یقول «برینث»، وهو یعتمد فی کثیر ممّا کتبه عن المدینة علی السماع، وماجمعه من الأخبار، التی التقطها بدقة وأناة، وهی تأتی بمفهوم جدید بالنسبة للقارئ الاوروپی، ولکن تلک المعلومات لیست مؤسسة علی ملاحظاته الشخصیة وتجاربه، ومع ذلک فقد کان یتوخی الحقیقة ببرود فی أحکامه (۳).

وفی البدایة، یقول بیرکهارت:

إنّ القافلة التی جاء ضمنها من مکّة المکرمة، نزلت فی الساحة الکبری الکائنة فی ضاحیة المدینة، ووجد له منزلًا بواسطة المزوّر، وأخذ کالعادة لزیارة الحرم الشریف، فلاحظ أنّ مراسیم الزیارة أقصر وأسهل من مراسیم الحج ومناسکه بطبیعة الحال، لکنه لاحظ أنّ المدینة کان قد احتلها طوسون باشا مؤخراً، وطرد منها الوهابیین، فنفر عنها البدو وأصحاب الإبل، الذین کانوا یأتون إلیها بالأقوات والمؤن. فعزّ فیها الطعام، ولاحظ وخامة الجو فیها کذلک، وطعم الماء المقیت.

ویأخذ بیرکهارت بوصف المدینة وموقعها الطبیعی... فیقول:

إنه وجد أسوارها عامرةً، بحیث تعدها للدفاع علی أحسن وجه بالنسبة لمقاییس تلک الجهات؛ ولذلک کانت المدینة المعقل الرئیسی فی الحجاز. وکان السور قد بُنی حولها سنة ۳۶۰ للهجرة، ثمّ اعید بناؤه بعد ذلک فی أوقات مختلفة أخصّها سنة ۹۰۰ للهجرة، لکنّ الخندق کان قد مُدّد حولها سنة ۷۵۱. علی أنّ بناءه، بشکله فی أوائل القرن التاسع عشر، کان قد تمّ بأمر من السلطان سلیمان القانونی، فی نهایة القرن السادس عشر، وهناک أبواب ثلاثة

۱– ۳ المدینة فی المراجع الغربیة؛ م. س، ۳: ۲۴۳.

۲– ۴ صحیفة الحیاة؛ م. س

۳– ۵ بلاد العرب القاصیة؛ م. س: ۱۱۵

ص: ۱۶۸

جمیلة فیه: الباب المصری فی الجهة الجنوبیة، وهو مع باب الفتوح فی القاهرة أجمل الأبواب التی شاهدها بیرکهارت فی المدن الشرقیة، والباب الشامی فی الجهة الشمالیة، وباب الجمعة فی الجهة الشرقیة، وهناک باب یُسمّی «الباب الصغیر»، فی الجهة الجنوبیة، کان الوهابیون قد أغلقوه عندما احتلوا المدینة قبل سنوات.

ویقول بیرکهارت: إنه شاهد المدینة مبنیّةً بالحجر کلّها، وتتألف بیوتها من طابقین بوجه عام ومن سطوح منبسطة.. أمّا الحارات فیورد أسماءها.. لینتقل إلی الحدیث عن ضواحی المدینة المنورة، وأهمّ الحارات فی تلک الضواحی، والتی لا تخلو من الأماکن التأریخیة، فمثلًا هناک مسجدان فی المناخة، أحدهما یسمی «مسجد علی»، ویُقال: إنه قدیم منذ صدر الإسلام، لکن بنایته القائمة کانت قد شیِّدت فی ۸۷۶، والمنقول أنّ النبیّ علیه السلام کثیراً ماکان یصلی فیه. ویُسمی المسجد الآخر «جامع عمر» وقد الحقت به مدرسة عامة کانت تستخدم بنایتها مخزناً للذخیرة وملجأ لکثیر من الجنود.

وبعد أن یصف بیرکهارت أشیاء اخری فی المدینة، وأهمّها مشروع الماء فیها، یقول: إنّ الجوهرة الغالیة التی تجعل المدینة فی صفّ مکّة من حیث الأهمیة، لا بل وتفضلها علیها، فی نظر بعض الناس مثل أتباع مالک بن أنس، هو المسجد الأکبر الذی یضمّ فی داخله قبر النبیّ محمد صلی الله علیه و آله، وهو مثل جامع مکّة یسمی «الحرم»، ویقع هذا المسجد فی الطرف الشرقی من البلدة ولیس فی وسطها. أمّا أبعاده فهی أصغر من أبعاد الحرم المکی، إذ یبلغ طوله مئة وخمساً وستین خطوةً، ویبلغ عرضه مئة وثلاثین، لکنه مشیّد علی الطراز نفسه تقریباً.

وبعد أن یصف بیرکهارت سائر أجزاء الحرم، والضریح المطهّر ومایوجد حوله من القبور الاخری، یقول: إنّ نفائس الحجاز کانت تحفظ فی السابق حول هذه القبور إمّا معلقة

ص: ۱۶۹

بحبال من حریر یمتد فی داخل المبنی، أو مودعة فی صنادیق خاصة موضوعة علی الأرض. ویمکن أن یذکر من هذه علی الأخص نسخة من القرآن الکریم مکتوبة بالخط الکوفی تعود إلی الخلیفة عثمان بن عفان، ویُقال: إنّها لا تزال موجودة فی المدینة..

ثمّ یتطرق إلی ذکر حصار الوهابیین للمدینة، وإلی أنّ شیئاً کثیراً من هذه النفائس، ولا سیما الأوعیة الذهبیة منها، استولی علیها رؤساء البلدة، بحجة توزیعها علی الفقراء، لکنهم تقاسموها فیما بینهم بعد ذلک.

وحینما دخل الأمیر سعود الوهابی إلی المدینة، واستولی علیها، دخل الحجرة النبویة نفسها، ووصل إلی ماوراء الستائر، فوضع یده علی جمیع النفائس التی وجدها هناک، وقد باع قسماً منها إلی شریف مکة، وحمل الباقی إلی الدرعیة معه. ومن الأعلاق النفیسة التی أخذها، وهی أغلی من أی شیء آخر، النجمة البراقة المتلألئة المطعمة بالماس واللؤلؤ، التی کانت معلقة فوق القبر المقدّس مباشرة، وقد کانت تسمی «الکوکب الدری»، وقد کانت تودع، فی هذا المکان، جمیع أنواع الأوعیة والأوانی الثمینة المطعمة بالجواهر، والأقراط، والأساور، والقلائد، وسائر النفائس التی کانت تُهدی من جمیع أنحاء الامبراطوریة العثمانیة، ویأتی بها الحجاج فی أثناء زیارتهم للمدینة. ولا شکّ أنّ ذلک کلّه کان یؤلف مجموعة ذات قیمة غیر یسیرة، لکنها لا تکاد تُقدّر بثمن. فقد قدّر الشریف غالب مااشتراه من الامیر سعود بمائة ألف دولار.. کما یُقال: إنّ ماأخذه الأمیر سعود معه یتألف غالباً من اللؤلؤ والمرجان، وإنّ قیمته تساوی ماباعه إلی الشریف غالب، وربما یبلغ مجموع کلّ ماوجد فی قیمته حوالی ثلاثمائة ألف دولار (۱).

فی رحاب المسجد النبوی الشریف

وهناک من الأسباب مایجعلنا

۱- ۶ المدینة فی المراجع الغربیّة؛ م. س، ۳: ۲۴۸.

ص: ۱۷۰

نعتقد- والکلام مایزال لبیرکهارت- بأنّ هدایا المسلمین التی تجمعت فی هذه البقعة، عبر القرون والأجیال، کانت تبلغ أکثر من هذا بکثیر. ومن المحتمل جدّاً أن یکون حکّام المدینة الذین کانوا مستقلین، فی کثیر من الأحیان، وسدنة الضریح المقدّس أنفسهم، قد أخذوا الشیء الکثیر مما کان یُهدی بین حین وآخر، کما فعل علماء مکّة قبل ثلاثمئة سنة، حینما سرقوا مصابیح الذهب العائدة للکعبة، وأخذوها إلی الخارج بین طیّات أردانهم، علی مایقول المؤرخ قطب الدین، وقد أخذ طوسون باشا، عند مجیئه المدینة، یفتّش عن الأوانی الذهبیة التی بیعت فی المدینة، فوجد قسماً منها وابتاعه من مالکیه بعشرة آلاف دولار، ثمّ أعاده إلی مکانه.

ثمّ یذکر بیرکهارت أنّ فوق «الحجرة» قبة جمیلة عالیة الذری، ترتفع فوق القباب الاخری، التی تکوّن السطح الممتد من فوق الأعمدة، وتری من مسافة بعیدة فی المدینة. وحالما تلوح للزائرین من بعید یبدأون بالصلاة وقراءة الأدعیة.

وتغطی بالرصاص، کما یعلوها هی کرة غیر صغیرة بالحجم وهلال کبیر، وکلاهما یتوهج بذهبه. وقد صنعت الکرة والهلال فی استانبول، بأمر من السلطان سلیمان القانونی، أمّا القبة والحرم بأجمعه فقد بناهُ قایتبای سلطان مصر مابین سنتی ۸۸۱ و ۸۹۲ ه.

وکان الوهابیون قد أغراهم بتهدیم القبة الکبیرة الذهب اللماع، وتعالیمهم القاضیة بتهدیم القباب المقامة فوق القبور جمیعاً، بما فیها قبة الرسول الأعظم، فحاولوا ذلک وابتغوا رفع الکرة والهلال، لکن متانة البناء، ووجود الغطاء الرصاص، جعل من الصعب علیهم تنفیذ مایریدون. ثمّ سقط اثنان منهم، بعد أن تزحلقا من فوق السطح الأملس، فترکت المحاولة وعُدّ ذلک من معجزات النبی.

وهناک علی مقربة من ستائر الحجرة، وفی داخل محیطها قبر «ستّنا

ص: ۱۷۱

فاطمـة» مغطّی بغطـاء أسود من الحریر المطرّز. وهنـاک بعض الاختلافات فی الرأی، حول مـدفن الزهراء البتول فی هـذه البقعـة أو فی مقبرة البقیع. ولذلک یزورها الزوّار فی هذین المکانین معاً.

وبعـد أن یشـرح بیرکهارت الکیفیة التی یزور بها الزوار الحرم الشـریف، یبدأ بوصف الصـحن الأوسط «الذی یوجد بالقرب منه سـیاج خشبی غیر مرتفع، فی داخله نخلاـت تعتبر مقدسـة؛ لأنهـا علی مایُقال کانت قـد زرعتها الزهراء علیها السـلام، وفی جانب النخلات بئر تسمی «بئر النبی»، لکن ماءها عکر؛ ولذلک لا یتمتع بشهرة قدسیة.. وحینما یأتی علی ذکر الاضاءة والشموع یذکر أنّ زوجة الخدیوی محمد علی باشا، التی کانت یومذاک فی المدینة، جاءت بکمیات کبیرة من الشمع، وأهدتها إلی الحرم الشریف (۱).

ثمّ ینتقل بیرکهارت إلی وصف دقیق لأبواب الحرم الشریف الأربعة:

(السـلام، الرحمـة، الجبریل، النساء)، وجمیع هـذه الأبواب تغلق بعـد الغروب بثلاث ساعات یومیاً، ولا تفتـح إلّا قبل الفجر بساعة. لکن الذین یرغبون فی الصـلاة داخل المسـجد، طوال اللیل، یمکنهم أن یستحصلوا الرخصة لذلک من الآغا المکلف بالخفارة.. أمّا فی أیام رمضان، فیبقی الحرم مفتوحاً طوال اللیل.

وتعهـد مهمـة أمن المسـجد النبوی، وغسـل الحجرة، وسائر أجزاء المبنی جمیعاً، وإنارة الحرم وماأشـبه، إلی خمسـین آغا من الأغوات الخصـیان، الذین توجد منظمة خاصة لهم، تشبه المنظمة الموجودة فی بیت اللَّه الحرام فی مکّة، لکن هؤلاء تُعطی لهم أهمیة کبیرة فی المدینـة، فتجـدهم یلبسون أحسن، ویسـتعملون الشال الکشـمیری، وأفخر أقمشـة الهند الحریریة، وحینما یمرون بالسوق یسارع الجمیع إلی تقبیل أیدیهم، ولذلک یمارسون نفوذاً غیر یسیر فی شؤون البلدة الداخلیة..

ویسمی رئیس هؤلاء الأغوات «شیخ

۱- ۷ المرجع السابق، ۳: ۲۵۰.

ص: ۱۷۲

الحرم»، وهو رئيس الجامع بأسره أيضاً، والشخصية الاولى فی المدينة عادة.. وقد كان شيخ الحرم الذی شاهده بيركهارت يومذاك «قزلر أغاسی» فی عهد السلطان سليم...

وقد شوهد مراراً، وهو يتقدّم على طوسون باشا، الذی كانت رتبته برتبة الباشا فی جدّة.. ولذلك تسنّى لبيركهارت أن يشاهد طوسون باشا وهو يقبل يد شيخ الحرم، فی داخل المسجد النبوی (۱).

وينتقل بيركهارت بعد ذلك إلى الكتابة عن الوضع الاقتصادی قائلًا:

إنّ المدينة لا تحتوی أية صناعات، وإنّ أی ترميم فی المسجد النبوی كان يتطلب إحضار الحرفيين من مصر، إلّا أنه لاحظ أنّ الزراعة كانت متطورة جدّاً (۲).

أماكن الزيارة الاخرى

ويمضی بيركهارت فی ذكر أماكن الزيارة الاخرى، ويبدأ بالبقيع حيث يثوى عدد من الصحابة والأئمة والشهداء، ويصف مدى الخراب الذی لحق بها على يد الوهابيين، مشيراً إلى بقايا القبب والمبانی الصغيرة التی عمدوا إلى تخريبها من فوق: قبور العباس وبعض الأئمة وعثمان وستنا فاطمة وعمّات النبی صلى الله عليه و آله. والموقع بأجمعه عبارة عن أكوام من التراب المبعثر، وحفر عريضة، ومزابل، على حدّ تعبير بيركهارت.

ويذكر بيركهارت بالمناسبة أسماء الشخصيات الإسلامية، التی قُبرت فی البقيع.. لكنه حينما يذكر قبر الإمام الحسن بن على عليهما السلام يتوهم أنه قبر الإمام الحسين سيّد الشهداء، فيقول: إنّ جسمه فقط دون الرأس قد دُفن فيه، ويشير إلى أنّ الرأس قد اخذ إلى القاهرة وحفظ فی جامع خاص يُدعى، الحسنية (۳)!

ثمّ يصف زيارته إلى جبل أحد، حيث وجد المسجد، الذی شُيِّد حول قبر الحمزة وغيره من شهداء احد..

وقد هدّم الوهابيون القبة المشادة فوق القبر، لكنهم لم يتعرضوا للقبر نفسه.

۱- ۸ المرجع نفسه، ۳: ۲۵۱.

۲- ۹ صحيفة الحياة؛ م. س

۳- ۱۰ المدينة فی المراجع الغربيّة؛ م. س، ۳: ۲۵۴.

ص: ۱۷۳

وعلى مسافة من هـذا المسـجد وجـد قبـةً صـغيرة تشـير إلى المكان الذى اصـيب فيه الرسول عليه السـلام فى موقعة احد، وعلى مسافة قصـيرة من هـذه القبة وجد قبور اثنى عشـر صـحابياً من أصـحاب الرسول، الذين استشـهدوا فى موقعة احد أيضاً، وقد خرّب الوهابيون قبورهم وعبثوا بها..

وزار بيركهارت منطقـة قبا أيضاً، وأهم مايذكره عنها أنها ملأى بالبساتين العامرة... ويقوم مسـجد قبا التأريخى مع ثلاثين أو أربعين بيتاً من حوله فى وسط هذه البساتين، وقد وجد المسجد صغيراً وبحالة خربة، ويلاحظ فيه «مبرك الناقة».

والبقعة التى صلّى فيها النبى عند وصوله إلى (قبا).. وعلى مسافة قصيرة من مسجد قبا شاهد مسجد على، وبقربه بئر عميقة تسمى «العين الزرقاء» (۱).

سكّان المدينة

أمّا سـكان المدينـة المنورة وطبقـات الناس فيها، فيقول بيركهارت عنها: إنهم مثل سـكان مكّـة، أكثريتهم من الغرباء الـذين تجـذبهم قدسـية البلد إليها، من جميع أنحاء العالم الإسـلامى. وعلى هذا فهناك فيها جاليات من كلّ بلد إسلامى تقريباً، ولا توجد فيها إلّا أقلية صغيرة من نسـل الأنصار، الـذين كانوا يسـكنون المدينـة، عنـدما هاجر النبى إليها سـنة ۶۲۲ للميلاد. فهناك حوالى عشـر اسـر يمكنها إثبات نسبها وتحدّرها من الأوس والخزرج، وهذه اسر فقيرة تعيش على الفلاحة فى الضواحى والبساتين.

على أنّ عدد الشـرفاء الحسـينيين غير قليل فى المدينة، لكن معظمهم غير مدنيين فى الأصل، وإنما كان آباؤهم قد نزحوا إليها من مكّة خلال الحروب التى كـان يشـنّها الشـرفاء للاستيلاء عليها. وينتمى معظم هؤلاء تقريباً إلى طبقـة العلماء، أمّا الشـرفاء المحاربون الـذين يشبهون شرفاء مكّة فقليلون جدّاً. وهناك أيضاً قبيلة صغيرة من الشرفاء الحسينية

۱- ۱۱ المرجع نفسه، ۳: ۲۵۵.

ص: ۱۷۴

المنحدرین من نسل الحسین شقیق الإمام الحسن علیهما السلام. ویُقال: إنهم کانوا أقویاء فی المدینة سابقاً، وکانوا یأخذون لأنفسهم القسم الأکبر من واردات الحرم الشریف، فإنهم کانوا خلال القرن الثالث عشر سدنة القبر المطهر المحظوظین.

لکنهم تضاءلوا بعد ذلک، حتی أصبحوا الیوم یقتصرون علی عدد محدود من الاسر، التی لا تزال من علّیة القوم فی البلد وسکانه الأغنیاء، وهم یشغلون حارة خاصة بهم، ویحصلون علی أرباح طائلة ولا سیما من الحجاج الإیرانیین الذین یَفِدون علی المدینة للزیارة. ویُفهم مّما کتب فی هذه الرحلة أنّ هؤلاء من شیعة المدینة، الذین یمارسون عبادتهم علی الطریقة السنّیة فی الظاهر، ومع هذا فیطلق علیهم «الرافضة».

والمعروف فی کلّ مکان أنّ بقایا الأنصار القدماء، وعدداً کبیراً من عرب المدینة الفلاحین الذین یفلحون البساتین والحقول من حولها هم من «الرافضة»، أی الشیعة کذلک.

ویُسمّی هؤلاء «النخاولة»؛ لأنهم یعیشون بین النخیل، وهم کثیرون فی عددهم وشجعان فی الحروب..

ولذلک قاوموا الوهابیین حینما احتلوا المدینة مقاومة عنیفة.. ونقول إنّ المعروف فی التأریخ، ولدی المطلعین من الناس، أنّ النخاولة من الفلاحین الذین کانوا یفلحون فی بساتین الإمام الحسن علیه السلام، ویقول بیرکهارت کذلک:

إنّ النخاولة لا یتزاوجون مع غیرهم إلّا فی النادر، ومعظمهم یجاهرون بالشیعیة حینما یکونون بین نخیلهم، لکنهم یدّعون بالسنیة حینما یکونون فی البلد، وقد استوطن بعضهم فی الضواحی فاحتکروا مهنة القصابة.

وتعیش فی البادیة من جهة الشرق، علی مسیرة ثلاثة أیام من المدینة، قبیلة بدویة بکاملها یسمی أفرادها «بنی علی»، وهؤلاء کلّهم من الشیعة أو من معتنقی المذهب الإیرانی، علی حدّ تعبیر بیرکهارت، الذی یستغرب کیف أنّ أقدس مدینتین فی الإسلام

ص: ۱۷۵

تُحاط إحداهما بالزیدیة (أی مکّة) والاخری بالجعفریة (أی المدینة)، ولا تبذل أیة محاولة لاجلائهم!!

ومن بین الاسر القدیمة فی المدینة اسر تنحدر بنسبها من نسل العباسیین کذلک، لکن شأنهم قد انحطّ الآن حتی أصبحوا فقراء. ویطلق علیهم «الخلیفة»، أی المنحدرون من نسل الخلفاء.. ثمّ یسهب بیرکهارت فی ذکر الجنسیات الأصلیة التی ینتمی إلیها سکّان المدینة، ویقول: إنّ الجیل الثانی أو الثالث، من السکان غیر العرب، یستعربون بالتدریج، ویصبحون عرباً حتی فی قسمات وجوههم. ویتطرق بعد ذلک إلی لباس المدنیین وأسلحتهم، وأحوالهم المعاشیّة والاقتصادیة، وتجارتهم وأطعمتهم، وعاداتهم وطباعهم (۱).

وفی فصل خاص بحکومة المدینة یلخص بیرکهارت تاریخها منذ صدر الإسلام إلی یوم وصوله تلخیصاً مختصراً جدّاً، لا نری موجباً لنقله هنا.. (۲).

القاهرة.. نهایة المطاف

کانت ینبع آخر محطة له فی الحجاز، حیث واجهه مرض الطاعون فغادرها بسرعة. وفی الرابع والعشرین من حزیران (یونیو) ۱۸۱۵ عاد إلی القاهرة، بعد غیاب دام سنتین ونصف السنة؛

کانت صحته علیلة، إلّاأنه لم یفقد الأمل فی الذهاب إلی تمبکتو (۳)، وقد قضی سنواته الأخیرة فی أعمال تعتبر لهواً وتسلیة. فقد کانت لا تزال أمامه تلک الرحلة عبر الصحراء الکبری إلی ضفاف نهر النیجر. وفی الوقت نفسه کان أعضاء الجمعیة الأفریقیة ینتظرون عودته إلی لندن (۴). ولمّا سأل عن القافلة جاء الجواب مخیّباً لآماله مرّة اخری: مجیء القافلة لم یکن متوقعاً فی المستقبل القریب! عندها استقرّ ودوّن رحلاته، وأمضی شهرین فی صحراء سیناء یستکشف مناطق جدیدة (۵)، وذلک فی ربیع عام ۱۸۱۷. وفی حزیران عاد إلی القاهرة، واستعدّ للمسیرة إلی

۱- ۱۲ المرجع نفسه، ۳: ۲۵۷.

۲- ۱۳ لمزید من الاطلاع یراجع الجزء الثالث من موسوعة العتبات المقدسة قسم المدینة.

۳- ۱۴ صحیفة الحیاة؛ م. س

۴- ۱۵ بلاد العرب القاصیة؛ م. س: ۱۱۵.

۵- ۱۶ صحیفة الحیاة؛ م. س

ص: ۱۷۶

الجنوب الغربی.

بعد رجوعه إلی القاهرة بأیّام، تغلّب علیه المرض فتوفی فی ۱۵ تشرین الأوّل (اکتوبر) ۱۸۱۷، ودفن فی العاصمة المصریة.. بعد شهرین فقط انطلقت أوّل قافلة إلی تمبکتو منذ أربع سنوات (۱).

قبیل وفاته، أوصی بیرکهارت بوقف مجموعة مخطوطاته علی مکتبة جامعة کمبردج، وکتاباته کلّها تدور حول رحلاته، کرحلة للشام والأراضی المقدسة (۲).

وهی حسب تأریخ صدورها:

الرحلة إلی بلاد الشام (لندن ۱۸۱۴- ۱۸۲۲)، ورحلة إلی الجزیرة العربیة (لندن ۱۸۲۹)، وسجلات أسفار فی الشرق الأدنی والاتصال بالبدو والوهابیین (لندن ۱۸۳۱، باریس ۱۸۳۵)، ومجموعة من الأمثال العربیة، متناً وترجمة انجلیزیة وشرحاً (لندن ۱۸۳۰) وقد ترجمت من الإنجلیزیة إلی لغات اخری اوروبیة، منها الألمانیة، بقلم ه. ج کرمز (۱۸۳۴)، وکتاب الرحلات النوبیة. وهو من أوائل الکتاب الاوروپیین، الذین کتبوا عن العرب القاطنین فی شمالی السودان وفی مملکة سنار.

وقد تولّت الجمعیة الأفریقیة فی انجلترا نشر جمیع مصنفاته، ومازال بعض مخطوطاته فی مکتبة ابن أخیه جاکوب بیرکهارت، وکان رئیساً لقسم العلاقات الدولیة فی وزارة الخارجیة السویسریة (۳).

وعندما نُشر کتاباه عن رحلته إلی بلاد العرب، ومشاهداته عن البدو والوهابیین.. أدرک علماء اوروپا مدی خسارتهم بفقد بیرکهارت، خاصة وأنهما أصبحا مرجعاً یعتمد علیه، ویتجلّی ذلک من رجوع المستشرقین، فی مواطن کثیرة، إلی بیرکهارت، فی موسوعتهم الموسومة ب «دائرة المعارف الإسلامیة». أمّا علی صعید الرحالة فقد بزّ سابقیه وأعجز اللاحقین. وهذا الرحالة الشهیر ریتشارد برتون الذی زار الحجاز

۱- ۱۷ المرجع نفسه.

۲- ۱۸ الاعلام للزرکلی؛ م. س، ۸: ۲۶۸، والمستشرقون للعقیقی؛ م. س، ۲: ۵۲.

۳- ۱۹ کذلک.

ص: ۱۷۷

والشام، ورغم ملاحظاته وهوامشه التفصیلیة الکثیرة أقرّ أنه لا یستطیع أن یضیف لما کتبه بیرکهارت عن البدو إلّا قلیلًا (۱). مؤکداً أنه قد وصف ما رآه قدر الإستطاعة، ولکنه اعترف أنه لا یستطیع أن یصل إلی دقة بیرکهارت، الذی یعترف برتون أنه مدین له لیس بالشکر والامتنان فحسب، بل بالاقتباس عنه بصورة جلّیة واسعة واضحة (۲).

یقول الباحث البریطانی «بیتر برینث»: من المضحک المبکی أن نسمع أنه عندما طُرحت فکرة إنشاء نصب تذکاری لبیرکهارت یُنصب فوق قبره فی القاهرة، تحمّس العلماء والامپریالیون والمستکشفون الجالسون علی کراسیهم فی الغرب، وجمعوا بعضهم مع بعض مبلغ عشرین جنیهاً استرلینیاً فقط (۳)!

لم یوضّح «برینث» سبب هذه المفارقة، ولعلّ ذلک یعود إلی أنّ بیرکهارت لیس انکلیزیاً قحّاً، فهو سویسری مأجور للدوائر البریطانیة، ولا ننسی أنّ الامبراطوریة البریطانیة کانت تتوثّب إلی دخول الحقبة الفیکتوریة، بکلّ غرورها وغطرستها وتعالیها علی الآخرین، بمن فیهم الغربیون غیر الإنکلیز!!

اشکالیة.. واثارة

وعلی ذکر النصب التذکاری، فإنّ ثمّة مفارقة اخری ملفتة للانتباه، یحملها قبره الموجود فی القرافة الکبری بسفح المقطم، إذ کُتبت علیه العبارة الآتیة: «هذا قبر المرحوم إلی رحمة اللَّه تعالی الشیخ حاج إبراهیم المهدی بن عبد اللَّه برکهرت اللوزانی، ولادته ۱۰ محرم سنة ۱۱۹۹، وتأریخ وفاته إلی رحمة اللَّه بمصر المحروسة فی ۱۶ ذی الحجة سنة ۱۲۳۲ ه» (۴).

والسؤال هو: هل العبارة الآنفة الذکر قد کُتبت بناءً علی توصیة خاصّة من بیرکهارت نفسه.. أم کانت بایعاز من القنصل البریطانی فی القاهرة، أم کانت مجرّد اجتهاد من المشرفین علی المقبرة..؟!

إنّ هذه الإثارة تطرح- بقوة

۱- ۲۰ نقلًا عن کتاب صورة العرب فی الصحافة البریطانیة؛ م. س: ۴۴ هامش ۹۴.

۲- ۲۱ بلاد العرب القاصیة؛ م. س: ۱۶۱.

۳- ۲۲ المرجع نفسه: ۱۱۶.

۴- ۲۳ الاعلام؛ م. س، المستشرقون؛ م. س.

ص: ۱۷۸

ربما- اشكالية علاقة بيركهارت بالإسلام، الأمر الذى يحتاج إلى قدر من تعرية هذا الإبهام. خاصة وأنّ البعض استسلم- سذاجة أو سوء نيّة- لحكاية إسلام (الشيخ) إبراهيم بيركهارت!!

ففى حدود علمنا، لم يجرؤ أحد على تسويق قصة إسلامه سوى الكاتب النصرانى «أمين الريحانى»، الذى أشار إلى اسمه بأنه (الحاج عبداللّه) ووصفه بأنه (صديق محمد على وصديق العرب والإسلام)..

وقال عنه: «كان بيركهارت فى قيافته وفى إسلامه محترماً موقراً»، دون أن ينسى الريحانى الإشادة ببيركهارت لشهادته العلمية المنزهة عن الأهواء الخاصة والمذهبية؛ لا لشىء سوى أنه قال: «جاء الوهابيون يطهرون الحجاز»! كما وصف الوهابية بأنها تمثّل الإسلام فى طهارته الاولى (۱).

وعلى خطى الريحانى، وإن كانت بصورة أخف، جاءت الصحافية «رالى الزين» لتقول عن بيركهارت بأنه «اعتنق الإسلام» بعد فترة من الزمن خلال مكوثه فى حلب (۲). فى حين نجد أنّ نجيب العقيقى صاحب كتاب «المستشرقون» لم يُشر قط إلى مسألة إسلام بيركهارت، واكتفى بالعبارة «وقد تسمّى بإبراهيم بن عبد اللّه» دون تعليق (۳).

أمّا صاحب قاموس «الأعلام» فقد شكّك فى إسلام بيركهارت، إذ قال: «ثمّ مضى إلى الحجاز مسلماً أو متظاهراً بالإسلام، وتسمى بإبراهيم ابن عبد اللّه» (۴) ومن نافلة القول التأكيد بأنّ «خير الدين الزركلى» لم يكن أوّل المشككين، بل إنّ بيركهارت نفسه أشار إلى بعض معاصريه، وفى مقدمتهم محمد على باشا، إذ يُستبان ممّا دونه أنّ محمد على باشا كان يشكّ فى إسلامه، ومع هذا فقد سمح له بالتوجه إلى الحج فى مكّة (۵)، ويكاد المريب يقول خذونى!

قبال ذلك نكتفى بثلاث شهادات من الضفة الاخرى، يرقى بعضها إلى درجة الاعتراف. فهذا صاحب

۱- ۲۴ للمزيد من الاطلاع على ماكتبه الريحانى عن بيركهارت يراجع كتابه: «تأريخ نجد الحديث»، المنشور ضمن الأعمال العربية الكاملة للمؤلف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ۱۹۸۰: ۸۰- ۸۱. معلوم أنّ علامات الاستفهام ماتزال تطارد الريحانى حول علاقاته المشبوهة بالدوائر الدولية وأذنابها فى المنطقة.. وإذا عُرفَ السبب بطل العجب!

۲- ۲۵ صحيفة الحياة؛ م. س.

۳- ۲۶ المستشرقون؛ م. س، ۲: ۵۲.

۴- ۲۷ الأعلام؛ م. س.

۵- ۲۸ المدينة فى المراجع الغربيّة؛ م. س، ۳: ۲۶۴.

ص: ۱۷۹

«المنجد» يقول عن بيركهارت: «.. ثمّ زار مكّة وجدة متنكراً باسم الشيخ إبراهيم» (۱)، فيما اعترف ناشر كتبه الإنكليزی ويليام أوسلی، كما مرّ، بأنّ معرفة بيركهارت للعربية واطلاعه التام على أحوال المسلمين وعاداتهم قد ساعداه على تقمص دور الرجل المسلم بنجاح، حتى استطاع أن يعيش فی مكّة، خلال موسم الحج كلّه، ويشترک فی مناسكه وشعائره، من دون أن يثير أدنی شک بشخصيته المنتحلة (۲).

ورغم ماتعنيه الألفاظ المتقدمة مثل «متنكراً» و «تقمّص» و «شخصيته المنتحلة».. من دلالات، بل شهادات ثبوتية، فإنّنا نترک الحكم الفيصل للبروفيسور «ادوارد سعيد» حيث يقول: «لقد هاجم مؤرخون ثقافيون محترمون، مثل ليبولد فون رانكه وجاكوب بيركهارت، الإسلام بعنف كأنهم كانوا يتعاملون لا مع تجريد من التشبيه التجسيمی، بل مع ثقافة سيا- دينية يمكن إصدار تعميمات عميقة حولها، واعتبارها مسوّغة. ففی كتابه تأريخ العالم (۱۸۸۱- ۱۸۸۸) تحدّث رانكه عن الإسلام واصفاً هزيمته أمام الشعوب الجرمانية- الرومانية، وفی «شذرات تأريخية» (ملحوظات غير منشورة، ۱۸۹۳). تحدّث بيركهارت عن الإسلام (كشیء) بائس عارٍ، وتافه (۳).

فأين يا ترى هذه الرؤية الحاقدة عن الإسلام من ادّعاء الريحانی بأنه صديق العرب والإسلام؟! وأين هی شهادة العلماء المنزهين عن الأهواء..؟!

ويبقى من المفيد الإشارة إلى ملاحظة المرحوم «جعفر الخياط» الخبير بكتابات الغربيين عن الإسلام والشرق، إذ يقول: «ويلاحظ من بعض مايكتبه بيركهارت فی الرحلة أنه ربّما كانت لهُ علاقة بالاستخبارات البريطانية فی تلک الأيام، فهو يقول:

إنّ وصول الغرباء من جميع أنحاء العالم الإسلامی، أی من تمبكتو إلى سمرقند،

۱- ۲۹ يُراجع «المُنجد فی الأعلام» ط ۱۲، بيروت، ۱۹۸۲. المطبعة الكاثوليكية.

۲- ۳۰ المدينة فی المراجع الغربيّة؛ م. س.

۳- ۳۱ الإستشراق لادوارد سعيد؛ م. س: ۲۱۹.

ص: ۱۸۰

ومن بلاد الکرج إلی بلاد بورنیو، تجعل جدّة مکاناً ممتازاً جدّاً للاوروبی المسافر المعنی بجمع الأخبار وحب الاستطلاع. فهو بتقدیمه المساعدة للحجاج الفقراء، وصرف مبالغ زهیدة لتجهیزهم بالمؤن، یمکنه أن یجتذب إلیه عدداً کبیراً فیستطیع بهذه الوسیلة جمع معلومات کثیرة تختص بأبعد البلاد المعروفة فی أفریقیا وآسیا..» (۱).

وهذا غیض منشور للملإ.. من فیض خفی ماتزال تحتفظ به أراشیف اللعبة الکبری.. التی کان شرقنا الإسلامی، ومایزال، مسرحها العریض!!

ملاحظة بیرکهارت تفتح شهیّة الأطماع

ظلّت ملاحظات «بیرکهارت» عن الحرمین الشریفین مرجعاً مهماً، ویعتمد علیها من قبل المعنیین فی الأوساط الأوروبیة. ولم یتمکّن رحالة آخر من إضافة شیء مهم، وذی قیمة علمیة، الی ما ذکره فی کتابه (رحلات الی بلاد العرب) الذی صدر عام ۱۸۲۹ م، أی بعد اثنتی عشرة سنة من وفاته ... حتی قیام الرحالة البریطانی «ریتشارد بورتون» برحلته الشهیرة التی وصفها فی کتابه «الحج الی مکة والمدینة»، إذ یُعدّ من أعظم المراجع عند الغربیین فی موضوعه (۲).

وما بین رحلة بیرکهارت سنة ۱۸۱۴ م، ورحلة برتون سنة ۱۸۵۳ م .. أمست جزیرة العرب بشکل عام، والحجاز خاصة، مسرحاً لمغامرات عدیدة قام بها دبلوماسیون وضباط وموظفون ومغامرون وجواسیس. ورغم الحشد من هؤلاء لم یبرز منهم سوی بعض الأسماء التی ظلّت شبه مغمورة، دون أن یترک أیٌّ منهم أثراً ثقافیّاً مرموقاً، سوی «فالین» الذی ترک یومیاته وطبعت بعد وفاته.

ومن المثیر أن نجد أغلب المحاولات الرامیة للحج قد باءت بالفشل الذریع، وحتی أولئک الذین تسنّی لهم الوصول الی الدیار المقدسة

۱- ۳۲ مکّة فی المراجع الغربیة؛ م. س، ۲: ۲۱۹.

۲- ۱ الاعلام للزرکلی؛ م. س- ۳: ۳۸.

ص: ۱۸۱

لم تتم مهماتهم بالشكل المطلوب، لهذا السبب أو ذاك، ما عدا الرحالة الفنلندى «فالين» الذى تمكن من الدخول الى مكة فعلًا، دون أن يُحقق شيئاً ذا بال!

وفى هذا السياق؛ كان للتنبؤ الذى أطلقه بيركهارت، حول احتمال انتهاء حكم الأتراك فى الحجاز، أثره فى إلهاب حماس طلائع المستعمر، وفتح شهيّة الأطماع للسيطرة على مناطق النفوذ، وهكذا رأينا تزاحمهم فى المشرق الاسلامى، متذرّعين بشتى التبريرات.

وقبل أن يمضى عامان على وفاة بيركهارت، وصلت بعثة من بومباى فى الهند تنقل تهانى البريطانيين الى ابراهيم باشا بن محمد على باشا لاستيلائه مع جيشه المصرى على مركز الحركة الوهابية فى الدرعية. وكان رئيس هذه البعثة رجلًا متكبراً عنيداً يفتقر الى الخيال، وهو من الضباط المتعجرفين، على حد قول بيتر برينت، وهذا الرجل يدعى الكابتن «سادلير Sadlier»، وقد أُعطى الصلاحية لابرام معاهدة صداقة وحلف مع ابراهيم باشا (۱).

ولكن «سادلير» هذا أصبح أحد المستكشفين المتطوعين لبلاد العرب، وقد عبر شبه الجزيرة من الشرق الى الغرب، وربما كان أول أوروپى يقوم بمثل هذا العمل، ومع أنّ رحلته كانت فى شهر تموز، إلّاأنه قد نجا من ويلات الصيف فى الصحراء، بعد سقوط الأمطار غير الموسمية، ولم يذكر شيئاً عن الشعب .. وأما ملاحظاته الطبوغرافية، فمع أنها كانت قليلة ونادرة، إلّاأنها كانت دقيقة ومفيدة.

وبعد أن مرّ «سادلير» قرب المدينة المنورة التى كانت لا تسمح أن يدوس على أرضها وشوارعها رجل كافر، وصل أخيراً الى شواطئ البحر الأحمر قرب (ينبع)، وعلى الرغم من مقدرته على الاحتمال ونشاطه إلّاأنّه لم يكن كفؤاً لابراهيم باشا دبلوماسياً.

وذلك لأنّ إبراهيم لم يكن بحاجة الى البريطانيين، وهكذا فقد فشلت البعثة فى أهدافها الرئيسية، ولم يحدث أى

۱- ۱ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ۱۱۶.

ص: ۱۸۲

تقارب أو اتفاق مع محمد علی فی مصر ومع البریطانیین. وبعد مرور بضعة أشهر وجد «سادلیر» سفینة أوصلته الی الهند، وهکذا حصلت شبه الجزیرة العربیة علی وصف شامل علی ید رجل کاره لذلک، ولکن مضی حوالی خمسین عاماً، قبل أن تُنشر نتائج تلک الرحلة، وأصبحت معروفة عند حلقة واسعة من المجموعات الأدبیة والدوائر العلمیة فی بومبای. ومن ذلک الحین فصاعداً بدت بلاد العرب، وکأنها أصبحت لغزاً أو حصناً محصناً ضد حشریة الغرب، ولم یتجرّأ أحد علی اقتحامها سوی بعض الرحالة الذین جلبهم سوء طالعهم الی تلک المناطق (۱).

وفی غمرة احتدام التنافس الاستعماری بین القوتین العظمیین یومئذ؛ بریطانیا وفرنسا .. بدأت دول غربیّة أخری فی التسلل الی المنطقة تحت واجهات عدّة.

من الطیف الاستعماری

فبعد مرور خمس سنوات علی وفاة «بیرکهارت» فی القاهرة، حیث دُفن هناک، ودُفنت معه أخطر الأسرار عن طبیعة مهمته، لتکون القاهرة علی موعد آخر مع شخص غامض قادم هذه المرّة من العالم الجدید (أمریکا)، ولیس من أوروبا، کما کان المألوف فی تلک الأیّام!، وبهذا تکون أمریکا قد دشّنت حضورها الذی سیتکثّف لاحقاً.

ففی عام ۱۸۲۳، وصل «اینجلیش» المخبر السری لدی وزیر الخارجیة الأمریکی «أدامز» الی مصر، واعتنق الاسلام، وانخرط فی جیش والی مصر محمد علی (باشا)، وحاول بکلّ الوسائل أن یوسّع الاتصالات مع السلطات المحلیة.

ونتیجة هذا النشاط المتعدد الجوانب وجه الرئیس الأمریکی «جاتسون» ۱۸۲۹ م بعثة خاصة الی اسطنبول، بغیة توقیع المعاهدة الأمریکیة- العثمانیة الأولی. وممّا له دلالته أنّ رئیس البعثة هو قائد عمارة المتوسط الأمریکیة «بیدل»، وأنّ أعضاءها هم

۱- ۱ المرجع نفسه: ۱۱۷.

ص: ۱۸۳

من كبار تجار الأفيون. وفى ۷ مايس (مايو) ۱۸۳۰ وقعت أول معاهدة عثمانية هيّأت لتجار الأفيون والدبلوماسيين الأمريكان إمكانيات واسعة للتغلغل فى المنطقة العربية (۱).

فى تلك الأثناء، وخاصة خلال السنوات العشر، بين ۱۸۲۶ – ۱۸۳۶ م، كان قد تمّ تخطيط سواحل الجزيرة العربية، من قبل البعثات الانكليزية، وكان من نتائج هذين؛ التخطيط والإعداد، الهجوم الانكليزى العسكرى على عدن واستعمارها، فى حين كانت عُمان قد وقعت قبلها تحت النفوذ الانكليزى.

وفتح استعمار عدن الطريق واسعاً، أمام الانكليز، لمدّ نفوذهم الى جميع أنحاء العالم العربى .. وقد استغل كثير من علماء الآثار والمستشرقين والدبلوماسيين وجود الانكليز فى جنوب الجزيرة، فرحلوا الى هناك، للبحث والتنقيب عن الآثار الحضارية القديمة (۲)، فيما يظلّ اختراق الديار المقدسة طموحاً يراود الجميع. ونكتفى بايراد نموذج واحد.

بوتا؛ المحاولة الفاشلة

فى عام ۱۸۳۶ م، رحل عالم الآثار الفرنسى «أميل بوتا»، الذى كان يعمل كمستشار ديبلوماسى فى القنصلية الفرنسيّة فى الاسكندرية الى اليمن، ومن اليمن رحل الى العراق، حيث زار بغداد والموصل، ثم انتقل الى طرابلس، فالقدس. وكان الارتباط بين العلم والديبلوماسية وثيقاً، وذلك لتبرير البعثات الاستعمارية وأهدافها، التى تقوم بالتنقيب عن الآثار القديمة، وتكوين علاقات مع العشائر والتجار.

ومع المعروف، أيضاً، أنّ أغلب الموظفين الكبار، الذين كانوا يعملون فى السفارات والقنصليات الأوروبية، خلال القرن التاسع عشر، كانوا من العلماء والمستشرقين، وبصورة خاصة فى القنصليات الانكليزية والفرنسية.

و «أميل بوتا» كان من أولئك العلماء، الذين رحلوا، على رأس بعثة علمية من قبل حديقة الحيوانات فى باريس، للبحث فى التاريخ الطبيعى

۱– ۱ د. محمد ابراهيم الفيومى: «الاستشراق رسالة استعمار» القاهرة، دار الفكر العربى، ۱۹۹۳ م/ ۱۴۱۳ ه: ۱۲۱.

۲– ۲ ابراهيم الحيدرى: «صورة الشرق فى عيون الغرب»، لندن، دار الساقى، ۱۹۹۶ م: ۵۵.

ص: ۱۸۴

لمصر وسيناء واليمن. وقد ساعدته الظروف، حينذاك، لجهة الاستقرار السياسى النسبى، الذى ساد الجزيرة العربيّة، فقام باعداد بعض البحوث والتقارير عن التاريخ الطبيعى والخلافات العشائريـة، فأقام علاقات وطيدة مع الشيخ حسن، أحد رُؤساء العشائر الكبيرة، الذى كان بينه وبين إمام صنعاء خلافات حادّة، ممّا جعله يتقرّب الى ابراهيم باشا بن محمد على باشا الكبير. وكانت هذه العلاقة قد وفّرت له إمكانية زيارة أجزاء كبيرة من الأراضى الجبلية فى اليمن.

وبمساعدة من جنود الشيخ حسن وخدمه، استطاع، أيضاً، الوصول الى قمّة جبل سبإ، الذى لم يستطع «فورسكال» الوصول اليه، من قبل.

إلّا أنّ الفرصة لم تسنح لبوتا لزيارة الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة، وذلك لسبب أنّ الحجاز أصبح منذ ۱۸۴۱ م جزءاً من اليمن، وخضع لسلطة الدولة العثمانية، وبات عليه أن يحصل على «فرمان» من السلطان، لزيارة مكة والمدينة (۱).

ولم يكن «بوتا» الأوروپى الوحيد الذى أخفق فى الوصول الى الديار المقدسة، وقد عزفنا عن ذكر البقيّة، وليس هناك من مهمة يكتنفها الغموض تستحق التوقّف غير تلك التى قام بها كلّ من «روش» و «فالين».

روش: المشروع الخائب

و «ليون روش» أحد مشاهير الرّحالة الفرنسيين الى الجزيرة! ولد فى «غرينوبل» عام ۱۸۰۹ م، فاحتضنته خالته، بعد وفاة أمّه وهجرة والده الى الجزائر. وحين بلغ الثالثة والعشرين ترك دراسة القانون وانضمّ الى والده فى الجزائر، كضابط فى الحرس الوطنى.

وهناك وقع روش الحالم فى حبّ فتاة من الارستقراطية الجزائرية فى الرابعة عشرة من العمر تدعى خديجة، لكن أهلها رفضوا السماح لها بالزواج من مسيحى.

وانصرف «روش» الى تعلّم العربية؛ لكى يتمكّن من مراسلة

۱- ۱. ۱۸۴۰- ۹۱- ۴۱. Botta P. E Jemen s «نقلًا عن المرجع السابق: ۵۷»، هامش رقم ۷۵.

ص: ۱۸۵

خديجة عن طريق خادمتها، وبعد ذلك أصبح مترجماً فى الحملة الفرنسية ضد الزعيم الوطنى عبدالقادر الجزائرى، لكن بدلًا من أن يكنّ الكره والبغضاء لعبد القادر نمت لدى «روش» موجة إعجاب شديد بالزعيم الثائر. وما لبث أن اعتنق الاسلام من أجل أن «يجمع بين الجزائر المسلمة وفرنسا المسيحية». ثم سافر فى داخل الجزائر أياماً طويلة الى أن بلغ مضارب الأمير عبدالقادر. وقد اعجب الأمير بصدق «ليون روش» بحيث تكفّل شخصيّاً بتدريسه التعاليم القرآنية، وجعله مساعده الخاص. وحين عثر والد «روش» على معسكر عبدالقادر اتجه اليه وتوسّل ابنه به للعودة معه لكنه رفض. وقد أثّر ذلك فى نفس عبدالقادر تأثيراً كبيراً. وبعد فترة انتقل الأمير وقواته الى بلدة «عين مهدى» فحاصروها أربعة أشهر.

وحين دخلوا اليها اكتشف «روش» أن حبيبته خديجة كانت بين الضحايا!، ومثل جميع رومانسيى القرن التاسع عشر أراد الانضمام اليها، لكن عبدالقادر ثناه طالباً اليه الاستعداد لحملة على الفرنسيين، فتردّد ثم امتنع، وأطلقه عبدالقادر فى سبيله غاضباً، قائلًا له: جزاؤك فى الاسلام جزاء المرتدين. لكننى أترك معاقبتك للّه!

عاد «روش» الى باريس، يوم كانت تعجّ «بالمستشرقين»، فانضمّ الى موظفى الدولة الفرنسية، وعادت اليه أحلامه بالجمع بين الجزائر وفرنسا، وهكذا وضع مشروع «فتوى» فى هذا الشأن، وذهب الى جامعة برقة فى ليبيا؛ لكى يطلب الى العلماء التصديق عليها، فأحالوه بدورهم على علماء الأزهر، الذين قالوا: إنّ مجلس العلماء فى مكة المكرمة وحده يستطيع التصديق عليها.

خلال وجوده فى القاهرة تعرّف «روش» الى محمد على باشا، حيث أعرب الزعيم المصرى عن تقديره لكفاح الشعب الجزائرى ضد الفرنسيين، وقد أعجب محمد على بصدق «روش» ونواياه، لكنه لم يؤخذ

ص: ۱۸۶

كثيراً بمـدى اعتناقه الاسـلام. وكتب «روش»، فيما بعد، أنه رأى فى عينى محمد على تلك القسوة التى أمرت بمذبحة المماليك. ومن القاهرة أخذ الفرنسـى الطريق البرى الى السويس ثم بالباخرة الى «ينبع»، حيث أثارته معاملة الحجاج الجزائريين الذين حشروا كلّ ۲۰۰ فى مقصورة، تتسع فقط لخمسين شخصاً، وقد كتب يشكو شركة النقل الى محمد على، والباب العالى، والقناصل الأوروپيين فى جدّة. وبعـد أيـام من وصوله اتجه «روش» الى الطـائف حيث عرض على مجلس للعلماء المشـروع الـذى جاء من أجله. ومن هناك اتجه الى عرفات، حيث تعرّف إليه جزائريان...، وفجأةً رأى نفسه محمولًا على أكف سـتة من الزنوج الأشداء الذين شدّوا وثاقه الى أحد الجمال السـريعة، فنقل الى جدّة، حيث وضع على سـفينة أقلته الى مصـر. وتبيّن فيما بعد أنّه وضع على سـفينة أقلته الى مصـر، وأن محمد على وضع حرّاساً يراقبون تحرّكات «روش» ويحمونه فى وقت واحد.

كانت طموحات وأشياء كثيرة تتنازع «ليون روش» الذى وجد نفسه فى خدمة الجهاز السرّى الفرنسى. وحين عاد الى اوروپا انتابته نوبة من النـدم، من جرّاء عمله التجسسـى، فرأى أن الطريق الوحيـد الى الهرب هو الانتماء الى سـلك الرهبنـة، فـذهب الى روما وانضمّ الى اليسوعيين، إلّاأنّ الفرنسـيين لم يقبلوا اسـتقالته، وأقنعوا البابا غريغورى الثامن عشر بعدم قبوله، وهكذا عاد الى الجزائر؛ لكى يساهم فى هزيمة الأمير الكبير عبدالقادر، وأنهى حياته سفيراً لفرنسا فى اليابان.

كان «ليون روش» الفرنسـى يشـبه الى حـدّ كبير البريطانى، الـذى جاء بعده بعشر سـنوات، «ريتشارد بورتون» الذى تنازعته، هو الآخر، مشاعر وأهواء كثيرة من الامپريالية الى الوصولية الى الشغف بما رأى (۱).

۱- ۱ سمير عطا اللّه: «قافلة الحبر: الرحالة الغربيون الى الجزيرة والخليج ۱۷۶۲- ۱۹۵۰ م» لندن، دار الساقى، ۱۹۹۴ م: ۷۰- ۷۱.

ص: ۱۸۷

فالین: الاعداد والتحویل

أما المهمّة السریّة الغامضة الثانیة فکان بطلها الرحالة الفنلندی «جورج أوغست فالین» (۱). وکان هذا یُحسن التحدّث باللغة العربیة بطلاقة، وقد أصبح فیما بعد استاذاً للعربیة فی جامعة هلسنکی. ویُقال: إنه عمل جاسوساً لمحمد علی باشا فی شمال نجد.

«والحقیقة أنّ قصّة هؤلاء الرحالة .. تظلّ دائماً والی الأبد من القصص المدهشة المثیرة، فی الوقت نفسه الذی بقیت فیه سیاسة مصر العثمانیة الهاجس والمحرّک الأول لأولئک الأشخاص المختصّین» (۲).

ولکی نکون أمام مهمة فالین السریّة، بشکل أکثر وضوحاً، لابدّ من التدرج التاریخی لسیرته، وطریقة إعداده الخاصة. إذ ولد فی جزائر آلاند، غربی فنلندا، وتعلّم فی جامعتها، وهو فی الثامنة عشرة من العمر، وبدأ یدرس اللغات الشرقیة موضوعاً أساسیاً، وقد خصّص کثیراً من وقته وطاقته للألعاب المختلفة وللموسیقی، لکنه أیضاً حقّق نجاحاً کبیراً فی دراساته. وبصرف النظر عن دراساته الأکادیمیة البحتة فقد اکتسب بنفسه معرفة عملیة فعالة فی لغات عدیدة. وکانت اللغة السویدیة لغته الأمّ، غیر أنه کان یجید أیضاً الألمانیة والروسیة والفرنسیة والانکلیزیة.

وکان من الطبیعی، علی وجه الدقة إذن، أن یرغب فی بلوغ معرفة عملیة فی اللغات الشرقیة (العربیة، الترکیة، الخ) التی درسها فی الجامعة.

وتعلّم أن یتکلّم شیئاً من العربیة علی یدی متفقّه تتری فی هلسنکی. ونجم عن اهتمامه فی العربیة الدارجة کتابة اطروحة ماجستیر عن الفروق الرئیسیة بین العربیة الفصحی والدارجة، تلک الاطروحة التی کتبها باللاتینیة فی ۱۸۳۹ م (۳).

فی سنة ۱۸۴۱ م قصد العاصمة الروسیة عندئذ (بطرسبرغ)، والتی سُمّیت لیننغراد لاحقاً. فازداد فی جامعتها تضلعاً بالعربیة علی ید استاذها الشیخ محمد عیاد الطنطاوی،

---

۱ - ۱ أشار خیر الدین الزرکلی الی أنّ مَنْ نقلوا اسمه حرفیاً سمّوه «جورج اوغست ولین» والصواب ما ذکره فالین، کما ینطقه الفنلندیون. یراجع الاعلام- ۲: ۱۴۶، هامش ۲.

۲- ۲ بلاد العرب القاصیة؛ م. س: ۱۳۱.

۳- ۳ مجلة الاستشراق البغدادیة، العدد الثانی، شباط ۱۹۸۷ م: ۹۵، ولعل فالین أول من طرق باب اللهجة العامیة مقارنة باللغة الفصحی.

ص: ۱۸۸

حيث مكث فی مدرسة الألسن لمدة عامين، وبقى هناك حتى آخر سنة ۱۸۴۲ م (۱).

ولم تلفت الدراسات الجامعية النظرية انتباه «فالن» كما فعلت الدراسات العملية. ولم يكن هناك شىء أحبّ الى نفسه من تعلّم المصرية الدارجة على يد معلم العربية الشيخ الطنطاوی (وهو خبير فی اللهجة العامية، واستاذ مصری منتدب للتدريس فی روسيا). وبالفعل تمكّن «فالين» من كتابة ودراسة لغوية باللهجة المصرية.

وقبل أن يقفل راجعاً الى بلاده التحق «فالين» بأحد معاهد المدينة الطبية، ليتلقى إعداداً تاماً فی دراسة الطب العملی (۲)، وحال عودته الى هلسنكی يجد «فالن» أمامه منحة زمالة من جامعته، للسفر الى أواسط الجزيرة العربية. وليبدأ فصل المغامرة التی دامت حوالی ست سنوات.

المنحة ... وطبيعة المهمة السريّة

لقد كان فالين هذا رجلًا فقيراً حصل على منحة مالية من جامعته، وكُلّف بالسفر الى الجزيرة العربية، بمهمة الحصول على معلومات عن طبيعة الظروف السياسية السائدة، والوقوف مباشرة على طبيعة أرضها وعادات سكانها. وعندما حصل على المنحة من جامعة هلسنكی لزيارة المنطقة، لم يضيّع أیّ فرصة، فغادر هلسنكی فی تموز (يوليو) ۱۸۴۳ م، متوجهاً الى باريس التی ظلّ فيها فترة قصيرة، ومن هناك الى القاهرة، فوصلها فی كانون الثانی (يناير) ۱۸۴۴ م (۳) حيث عاش كمسلم لمدة عام يذهب الى الأزهر لتلقی العلوم.

وهناك تقرّب منه أحد موظفی وزارة الخارجية المصريّة، وعرض عليه أن يحوّل رحلته الى الجزيرة العربية، لقاء تزويد الحكومة المصرية بالتقارير عن الأوضاع السياسية. أمّا الغطاء الذی اتفق أن يسافر تحته فهو تجارة الخيول (۴).

وبعد أن مكث أكثر من عام فی القاهرة لدراسة اللغة ولاتخاذ

---

۱ – ۱ يُراجع الاعلام للزركلی؛ ۳: ۱۴۶، وموسوعة «المستشرقون»، لنجيب العقيقی، القاهرة، دار المعارف، ۱۹۶۵ م، الجزء الثالث: ۱۰۴۰.

۲– ۲ يُراجع مجلة الاستشراق؛ م. س، وكتاب «قافلة الحبر»؛ م. س: ۷۲.

۳– ۳ صحيفة الحياة طبعة لندن– الاثنين ۶ نيسان ابريل ۱۹۹۲ م الموافق ۴ شوال ۱۴۱۲ ه. العدد ۱۰۶۵۰–: ۱۷ تراث.

۴– ۴ قافلة الحبر؛ م. س: ۷۲.

ص: ۱۸۹

الترتيبات الضرورية، شرع فالن فی رحلته الی الجزيرة العربية. وكان هدفه هو اجتياز الجزء الشمالی من الجزيرة (۱) وهكذا غادر القاهرة فی نيسان (أبريل) ۱۸۴۵ م، ومعه اثنان من البدو، أمّا هو فقد تزيّا بالزی العربی وتسمّی «عبد الولی» (۲)، وبعدما عبر سيناء أمضی شهرين فی معّان، ثم اتجه شرقاً عبر الصحراء السورية الی آبار ويسات، ومنها الی الجوف، بوابة صحراء النفوذ، أی تلك الصحراء الحمراء التی تقوم علی حراسة الجزيرة العربية فی الشمال.

بدأ رحلته عبر النفوذ فی الأول من أيلول (سبتمبر)، ومعه دليل «يتبع نجمة القطب». وفی اليوم العاشر وصلت القافلة الی مياه جبه والعطش يكاد يقضی عليها. وعلی مسافة أيام أخری كانت تقع حائل التی «تحيط بها حقول الذرة وحدائق الخضار ويردّ عنها جبل شمّر نفح الشمس» (۳).

أمضی فالين شهرين فی حائل ...

وكان يأمل أن يتمكن من اختراق العمق فی المنطقة الوهابية ويصل الی الرياض. أما جنوب اليمن فقد كان الوصول اليه صعباً لانشغال السكان بالعمليات الحربية والنزاعات الداخلية. ولقلّة أمواله (عكس الرحالة القدماء) والتی كانت تنحصر فی المصاريف الضئيلة التی قدمتها له الجامعة، والتی لم تكد تكفی للقيام بأوده. لهذا لم يكن لديه موارد كافية ممكنة من الاستمرار فی العمل.

وعندما أصابه المرض علم أن قد حان وقت العودة.

لهذا فقد انضم الی جماعة من الحجاج الآتين من بلاد العجم واشترك معهم فی مسيرة دامت حوالی (۸۵) ساعة متواصلة، عبر ذلك السهل الموصل الی المدينة المنورة.

وبعدها ساروا فی تلك الهضاب كثيرة الوهاد والصدوع من أرض الحجاز حتی وصلوا الی مكة .. فهل قام بشعائر الحج يا تری؟ (۴)

حول هذه النقطة، هناك رأيان؛ الأول: يُحسن الظن بفالين ولا يشك فی

۱- ۱ مجلة الاستشراق؛ م. س: ۹۵.

۲- ۲ الاعلام للزركلی؛ م. س- ۲: ۱۴۶.

۳- ۳ قافلة الحبر؛ م. س: ۷۲.

۴- ۴ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ۱۳۳.

ص: ۱۹۰

إسلامه. والثانی خلاف ذلک. أمّا الرأی الأول فقد انفردت به صحیفة عربیّة فی لندن، إذ کتبت تقول عن «فالین»: غادر العاصمة المصریة عن طریق سیناء فالجوف وصولًا الی مکة المکرمة، حیث أعلن إسلامه وتلقّب ب «الحاج عبدالولی»، وأدّی فریضة الحج».

وفی معرض دفاعها المبطّن عن «فالین»، ولإبعاد الشبهات عنه، مضت الصحیفة تلک فی سرد أدلّة الدفاع قائلة: یمتاز المستشرقون الاسکندینافیون (السوید، الدنمارک، فنلندا) عن زملائهم الأوربیین الآخرین (بریطانیا، فرنسا، ألمانیا، روسیا) والأمریکیین أیضاً، بأنّ رحلاتهم الی المنطقة ودراساتهم عنها إنما تمّت بدوافع عملیة إجمالًا، علی نقیض أبحاث ودراسات أخری غربیّة کانت توظّف لخدمة أغراض السیاسة الاستعماریة فی القرنین الثامن عشر والتاسع عشر».

وتضیف الصحیفة: «ومن بین عشرات المستشرقین الاسکندینافیین، یعتبر فالین (عبدالولی) الأکثر أهمیة. فهو أوّل من تجوّل فی شمال الجزیرة العربیة، ووصف عادات أهله وتقالیدهم، لیس انطلاقاً من حبّ المعرفة فقط، بل لأنه وجد فی هذه المناطق مبتغاه الروحی والثقافی (.. هکذا!). ولم یکن اعتناقه الدین الاسلامی- کما کان عند عدد من الرحالة الغربیین- مجرّد غطاء لتحقیق مآرب ومنافع خاصة، وإنما کان إیماناً خالصاً (... هکذا أیضاً!) تمثّل فی کتابات نشرها فی بلاده، توضّح تعالیم الدین الحنیف وتزیل عنه شوائب علقت فی أذهان الغربیین، فی القرنین الماضیین».

وتستشهد الصحیفة بقول المؤرخ اللبنانی «یوسف ابراهیم یزبک» الذی یقول: «نهج (الشیخ عبد الولی) فی دراسته نهجاً علمیاً إذ رجع الی مخطوطات عربیة قدیمة تعدّ من الینابیع فی معرفة تاریخنا وجغرافیتنا، وقرأها بإمعان (...) ومع صدق الشیخ

ص: ۱۹۱

عبد الولی فی إسلامه، ظلّ الرجل اوروپی الاسلوب فی إنشائه».

ثم تُعقّب الصحیفة علی ما تقدم:

«ولعلّ هـذا الاسلوب هو الذی مکّن عبدالولی من التأثیر الکبیر فی أوساط ودارسـی اللغة العربیة وآدابها وحضاراتها فی الغرب، خلال تلک الفترة، فهو لم یقع أسیر شکلیات إیمانه الدینی الجدید (..!)، بل أخذ منه الجوهر المناسب لعصره (..!) وطرحه علی الناس بجرأة علمیة کانت ممیزة فی ذلک الوقت. ویؤکد الذین حضروا وفاته المبکرة أنّ آخر عبارة ردّدها کانت «الحمد للّه، الحمد للّه».

وتختتم الصحیفة دفاعها:

«وعرفت بلاده وجامعة هلسـنکی تحدیداً، هذه المیزة. وکرمته عند وفاته بمدفن متواضع جدّاً، وضع فوقه حجر نقش علیه اسـمه العربی «عبدالولی» وبالعربیة أیضاً».

ولم یفت الصـحیفة ذکر تسلّمه، عنـد رجوعه من الشـرق، جائزة «الجمعیـة الجغرافیة الملکیة» فی لندن، عام ۱۸۵۰، بوصفه أحد أوائل الاوروپیین الذین اجتازوا شمال الجزیرة العربیة، کما أنّ بلاده قد کرّمته بدورها فعینته فی کانون الثانی ۱۸۵۱ استاذاً لکرسی الدراسات الشرقیة فی جامعة هلسنکی (۱).

ونجد لزاماً علینا التوقّف قلیلًا، لمناقشة ما ورد آنفاً.

مناقشة ... وردود

وفی الوقت الـذی لاـ ننوی فیه مناقشـة بعض الآـراء الواردة، التی ترقی الی الأخطاء؛ لأنّ ذلک لا مجال له فی منهـج البحث ... فإنّ من الممکن الردّ علی ما نشرته الصحیفة المذکورة بما یلی:

أولًا: أنّ أدلّة الدفاع التی حشدتها لیس بمقدورها الصـمود إزاء حیثیات الاتهام الدافعة. بل نسـتطیع القول: إنّ الصحیفة لم تثبت إسلام فالین، ولم تدحض، فی آن معاً، ضلوعه فی مهمة سریّة، إن لم یکن العکس.

ثانیاً: أنّ طبیعة الإعداد لمهمّة فالین، وخلفیّات انتدابه فی المهمة، وما

۱- ۱ صحیفة الحیاة؛ م. س.

ص: ۱۹۲

رُصد لها من منحة مالية ... كلّ ذلك لم يكن حبّاً بسواد عيون بدو جزيرة العرب. بدليل أنه أنجز مهمة ...

استحقت أن يُكافأ الرجل من الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية، وهى صاحبة اليد الطولى والتاريخ العريق فى التخطيط للمهمات السريّة فى المشرق الاسلامى.

ثالثاً: استعداده للعب دور العميل المزدوج، وعلى غرار ما يجرى اليوم، واتفاقه مع وزارة الخارجية المصرية على تزويدها بالتقارير السريّة، عن الأوضاع السياسية، فى شمال الجزيرة العربية .. هو توظيف ماكر لخدمة مهمته السريّة والتستر عليها، تحت هذا الغطاء المناسب.

رابعاً: ليس من المنطقى تكريم شخص يُرسل فى مهمة خاصة خطيرة، ثم يعود وقد صبأ عن دينه، معتنقاً ديناً مغايراً بل معادياً، وفق الرؤية الأوروپية الباقية حتى اليوم.

ولو كان فالين قد اعتنق الاسلام حقّاً لناله بعض ما ينال روجيه غارودى اليوم. وما نال ليوپولد فايس (محمد أسد) الذى تبرّأ منه حتى أهله!

إنّ حكاية التظاهر باعتناق الاسلام كانت إحدى المستلزمات الضرورية والمفاتيح الأساسية لنجاح المهمات السرية الكبرى والتعرّف على المشرق الاسلامى، عن كثب.

خامساً: لم ينبر للدفاع عن إسلام فالين- ما عدا الصحيفة العربية حسب علمنا- حتى اولئك الذين يحسنون الظنّ بالاستشراق وينافحون عنه، كما هو الحال مع الاستاذ نجيب العقيقى؛ صاحب موسوعة «المستشرقون» الذى لم يذكر- من قريب أو بعيد- قصّة إسلام فالين، بل لم يصنفه حتى فى خانة فئة المستشرقين التى أنصفت الاسلام، وإن لم تدن به، قولًا وعملًا وكتابةً، فضلًا عن ذكره الذين اعتنقوا الاسلام منهم، حسب رأيه، كبيركهارت ولم يشر الى فالين!

ورغم ذلك، فإنّ العقيقى ربما كان أميل الى الاتهام منه الى أى شيء

ص: ۱۹۳

آخر، وذلك حين يقول عن فالين:

«... رحل الى الشرق فطوّف، خلال ست سنوات، بمصر وجزيرة العرب وبغداد واصبهان وبصرى ودمشق، متزيياً بزى البدو، متطبعاً بطباعهم، متسمّياً باسم عبد الولى ... حاملًا حقيبة مملوءة بالعقاقير فأحبته القبائل ويسّرت له دراسة عاداتها ولهجاتها واستقصاء حالة بلادها الطبيعية والجغرافية» (۱).

سادساً: ثم ماذا يعنى أن تكون صورته وهو فى زى شيخ عربى ذى عمامة وقباء ونطاق ممّا يزين جامعة هلسنكى الى عهد قريب، ولعله لا يزال الى الآن؟ (۲) سابعاً: رغم ندرة التطرّق الى مهمة فالين، من قبل الكتّاب الغربيين، إلّا أنّ إشارة وردت فى كتاب «الفارس العربى» للكاتب البريطانى «سيتون ديردون»، ساهمت فى إزاحة بعض الستار عن حقيقة مهمّة فالين.

يقول «ديدرون»، وهو يتحدّث عن الرحالة الانكليزى «بورتون»: «قبل أن يتوجه الى مهمته (التى تنطوى على الدخول الى جزيرة العرب والحجاز على الأخص، ومن ثم الوصول الى مكة المكرمة فى موسم الحج للكتابة عنها بالتفصيل)، علم أنّ رحالة يدعى «فالين Wallin» كان قد تمكن من الدخول الى مكة والحج مع الحجاج فى ۱۸۴۵، لكنه لم يستطع تدوين شىء عما فعل ورأى؛ لأنه كان خائفاً على حياته، وخاصة بعد أن لاحظ أنّ اثنين من اليهود قد اكتشف أمرهما فى مكة تلك السنة فقتلهما الحجاج الهائجون شنقاً، فقرر (أى بورتون) أن يستفسر منه عن أشياء كثيرة، قبل أن يقدم على الاضطلاع بمهمته، وكتب له بذلك، لكن كتابه لم يصل الى «فالين» إلّابعد أن كان قد توفى ...» (۳).

ونترك للقارئ اللبيب مهمة الاستنتاج عمّا يعنى هذا التنسيق بين الرحالتين ... وماذا يعنى خوف فالين حينما افتضح أمر اليهوديين ..؟! ألا يكاد المريب أن يقول خذونى؟!

ثامناً: أنّ إصراره على اختراق

۱- ۱ المستشرقون للعقيقى؛ م. س- ۳: ۱۰۴۰.

۲- ۲ الاعلام للزركلى؛ م. س- ۲: ۱۴۷.

۳- Deardon Seaton The Arabian Knight A Study of Sir Richard Burton ,London ۳۳۵۹۱ . «نقلًا عن موسوعة «العتبات المقدسة- قسم مكة، للمرحوم جعفر الخليلى، ط ۲، مؤسسة الأعلمى، بيروت، ۱۴۰۷ ه- ۱۹۸۷ م: ۲۹۵، هامش ۱.

أما «بيتر برينت» فحين تساءل حول عمّا إذا قام فالين بشعائر الحج أم لا ... عقّب قائلًا: «لكنه- أى فالين- لا يذكر شيئاً عن مناسك الحج، ويبدو أنّ مرضه قد أقعده ومنعه عن القيام بذلك. وإذا فعل ذلك فلم يستطع تسجيله فى ملاحظاته، إذ كان كل ما يرغب فيه الآن هو مغادرة شبه الجزيرة»- يُنظر كتابه «بلاد العرب القاصية»، م. س: ۱۳۳.

ص: ۱۹۴

قلب جزیرة العرب یـدلّ علی أنّ مهمته السـریّة لم تبلغ نهایتها. وظلّ یواصل المحاولـة تلو الأخری لنیل مأربه والوصول الی هـدفه. فقد عـاد فی آذار (مـارس) ۱۸۴۶ الی القـاهرة، إلّاأنه لم یطـل الإقامـة فیهـا، بـل غادرهـا فی رحلـة قصیرةالیفلسـطین خلاـل کانون الأول (دیسمبر) ۱۸۴۶ عاد بعـدها الی القاهرة. لکن رحلته الأطول کانت الثالثـة. ففی کانون الأول ۱۸۴۷ غادر مصـر عن طریق البحر الأحمر الی الشاطئ الغربی لجزیرة العرب (۱) وقطع جبال تبوک ثم اتجه الی حائل؛ لکی یحاول مرّة أخری الـذهاب الی الریاض، لکن الامیر طلال بن الرشـید الذی اکتشف حقیقة أمره نصحه بألّا یفعل، وهکذا اتجه صوب بغداد، لکنه بلغ البصرة مفلساً (۲) لیعود الی مصر عبر دمشق فبیروت، ثم عن طریق البحر الی الاسـکندریة، لیصل القاهرة فی حزیران (یونیو) ۱۸۴۹. وأخیراً عاد الی الاسکندریة متوجهاً الی هلسنکی مروراً بلندن لتسلّم جائزة «الجمعیة الجغرافیة الملکیة» سنة ۱۸۵۰.

وحال وصوله فنلندا عین أستاذاً للغات الشرقیة فی جامعة هلسنکی.

وشـرع فی الحـال یخطط لرحلـة جدیـدة الی الجزیرة العربیـة والـتی أراد لهـا أن تسـتغرق سـت سـنوات .. لکنـه تـوفی قبـل أن ینهی الاستعدادات لذلک (۳) إذ مات فی ۲۳ تشرین الأول (اکتوبر) ۱۸۵۲، ولما یتم الحادیة والأربعین من العمر.

آثاره .. ومذکراته.

ترک فـالین آثـاراً منها: أهم الفروق بین لهجات العرب المتأخرین والمتقـدمین، ونشـر تائیـة ابن الفارض ومطلعها: أو میض برق ... مع شرحها للشـیخ عبدالغنی النابلسی، وکان قد نسخها بخطه، بترجمة لاتینیة وتعلیق (هلسنکی ۱۸۵۰). وله مذکرات محاضراته فی الکلیة. ومخطوطات عربیة فی مکتبتها. أما یومیاته فی الشرق، وهی فی وصف ما رآه أیام إقامته فی البلاد العربیة، فقد طبعت بعد

۱- ۱ صحیفة الحیاة: م. س.

۲- ۲ قافلة الحبر؛ م. س: ۷۲.

۳- ۳ مجلة الاستشراق؛ م. س، وقافلة الحبر؛ م. س.

ص: ۱۹۵

وفاته، ووقعت فی خمسهٔ مجلدات (۱)، وقد أعید فی بیروت سنهٔ ۱۹۹۲ إصدار الطبعهٔ الثانیهٔ من کتاب «صور من شـمال جزیرهٔ العرب فی منتصف القرن التاسع عشـر» التی قام بترجمتها سمیر سلیم شبلی، وکتب مقدمتها فاروق أبو شقرا أستاذ الدراسات العربیهٔ فی جامعهٔ هلسنکی.

الهوامش:

۱- ۱ الاعلام للزرکلی؛ م. س- ۲: ۱۴۷، والمستشرقون للعقیقی؛ م. س- ۳: ۱۰۴۱.

ص: ۱۹۶

شخصيّات من الحرمين الشريفين (۱۰) ابو ذر الغفاری «وحده»

ص: ۱۹۸

شخصیّات من الحرمین الشریفین (۱۰) ابو ذر الغفاری «وحده»

محمّد سلیمان

کان معلماً بارزاً فی فکره وعلمه ووعیه، وفی عبادته وجهاده، وفی زهده وثورته، وفی صدقه وإخلاصه وحبّه للّه تعالی ولرسوله صلی الله علیه و آله وفی التزامه بما عاهد اللّه تعالی علیه بمقارعة الظالمین وکشف ظلمهم وزیفهم، والدفاع عن المحرومین. حتّی غدا بحقّ مدرسةً ثائرةً جوّالةً، لا تعرف التوقف ولاالاستقرار، ولاتبحث عن الطمأنینة والراحة، ولا تخشی فی اللّه لومة لائم.

وبقی هذا الرجل الصحابی الجلیل حیاةً متحرکةً ثائرةً وقِمّةً عالیةً شامخةً رائدةً فی مواقفها، مثالیةً فی صدقها، شجاعةً فیما تقوله وتفعله، فلا- تهزّه المحن، ولا- یرهبه وعیدُ الطغاة، ولا- یخیفه تهدیدهم، ولا- تغریه أموالهم، ولا- تلینه ابتساماتهم. کان سبّاقاً للأمر بالمعروف والنهی عن المنکر، وکان عملاقاً فی تصدّیه لکلّ انحراف فی الأمّة ... کان یرید لهذه الأمّة ولحکامها أن یعیشوا الإسلام سلوکاً وعبادةً وجهاداً وحکماً وإدارةً ... کان یرید للحکام أن یکونوا خَدَمةً صادقین للأمة لا جبابرة علیها، وکان یرید للأمة أن لا تکون ذلیلةً صاغرةً أمام حکامها إذا ما انحرفوا، وأن لا تسیر خلفهم معصوبة العینین، بل موقظة لهم، ومدافعة عنهم إذا

ص: ۱۹۹

ما صدقوا ... لهذا نراه- قد رکب المرکب الصعب- یصارع هاتین النزعتین: نزعة الطغیان لدی الحکام المستبدین والأغنیاء المترفین، ونزعة الخنوع والصغار فی الأمة. فراح یلاحق الحکام والمترفین ویعلنها بلا هوادة صرخةً مدویةً عالیةً کاشفةً بذخهم وتعالیهم وکبریاءهم وبعدهم عن اللّه وشرائعه ... ویبشّرهم بعذاب ألیم..

وأیضاً راح یلاحق الأمة لیوقظها من سباتها ویشحذ هممها المعطلة؛ لکی تقف أمام المترفین حکاماً وأفراداً لتقیلهم عن طریقها، وتبعدهم عن مسیرتها، وإلّا حلّت بها الکارثة واستحقت القارعة.

وراح صوته هذا مدوّیاً عبر القرون، وغدا انشودةً تردّدها شفاه الثوار جیلًا بعد جیل. إنه أبو ذر الغفاری. «یمشی وحده ویموت وحده ویبعث وحده».

*** مع أنّ الاختلاف وقع فی تسمیته، فهوبریر بن جندب، وهوبریربن جنادة، وهو جندب بن عبداللّه، وهو جندب بن السکن أو جنادة بن السکن، وهو یزید بن جنادة (۱).

إلّا أنّ جندب بن جنادة هو الاسم الذی عرف به، وهو بعد ذلک ابن سفیان ابن عبید من بنی غفار، من کنانة ابن خزیمة الحجازی، بینما ساق ابن سعد فی طبقاته نسبه الی غفار بن مُلیل بن ضمرة بن بکر بن عبد مناة بن کنانة؛ لینتهی به الی خزیمة ابن مُدرکة ابن إلیاس بن مضر بن نزار.

هذا أبوه ونسبه، وأما أمّه فهی رملة بنت الوقیعة أو الرقیعة وهی أیضاً من بنی غفار (۲).

کنیته: «أبو ذر» و لقبه «الغفاری» وقد اشتهر بهما، وطغی علی اسمه الذی بات لا یعرف إلّاعند الخاصة.

وأما صفاته فقد کان أدمَ ضخماً جسیماً کث اللحیة والشعر وقد غلب علیه

۱- ۱ سیر أعلام النبلاء للذهبی.

۲- ۲ مختصر تاریخ دمشق لابن منظور حرف الذال، الجزء الثامن والعشرون: ۲۷۷.

ص: ۲۰۰

الضعف، وأرهقه الفقر وقلهٔ ذات الید، ولکنه مع کلّ ما هو فیه علا إیمانه حتی جاوز عنان السماء.

وکان رأساً فی الزهد والصدق والعلم والعمل قوالًا بالحقّ لا تأخذه فی اللَّه لومهٔ لائم علی حدَّهٔ فیه.. وقد آخی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بینه وبین سلمان الفارسی. فاتته معرکهٔ بدر، وشهد فتح القدس (۱).

إسلامه:

أما کیفیهٔ إسـلامه، فالذی یظهر من بعض المصادر أنّ أبا ذر کان موحداً، فقد عرف أنه کان یتعبد ویکثر من العبادهٔ قبل إسـلامه، ففی روایهٔ عبداللَّه بن الصامت عن أبی ذر نفسه أنه قال: إنی صلیتُ قبل أن یُبعث النبیُّ بسنتین.

قلت: أین کنت توجّه؟

قال: حیث وجهنی اللَّه. کنتُ أصلی حتی إذا کان نصف اللیل سقطتُ کأنی خرقهٔ ...

وفی روایهٔ أخری، عن عبداللَّه ابن الصامت أیضاً قریبهٔ من الأولی: ... قال:

وقد صلیتُ یا بن أخی قبل أن ألقی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بثلاث سنین.

قلتُ: لمن؟

قال: للَّه.

قلتُ: فأین توجّه؟

قال: حیث یوجهنی ربّی، أصلی حتی إذا کان آخر اللیل أُلقیتُ کأنی خِفاء (کساء) حتی تعلونی الشمس (۲).

وقد روی عن ابن عباس رضوان اللَّه علیه فی قصهٔ إسلام أبی ذر أنّه قال:

أَلا أخبرکم بإسلام أبی ذر؟ قلنا: بلی، قال: قال أبو ذر: کنت رجلًا من غفار، فبلغنا، أن رجلًا قد خرج بمکهٔ یزعم أنه نبیّ، فقلت لأخی: انطلق الی هذا الرجل

۱- ۱ سیر اعلام النبلاء للذهبی ۲: ۴۷.

۲- ۲ انظر فی ذلک: مختصر تاریخ دمشق ۲۸: ۲۷۸ وغیره.

ص: ٢٠١

فکلّمه، وائتنی بخبره، فانطلق فلقیه ثم رجع، فقلت: ما عندک؟ قال: واللَّه، لقد رأیته رجلًا یأمر بالحقّ، وینهی عن الشرّ، فقلت: لم تشفِنی من الخبر، فأخذت جراباً وعصا ثم أقبلت الی مکة، فجعلتُ لا أعرفه، وأکره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم، وأکون فی المسجد. فمرّ علیٌّ فقال: کأن الرجلَ غریب؟ قلت: نعم، قال:

فانطلق الی المنزل، فانطلقت معه، لا یسألنی عن شیء، ولا أخبره. فلما أصبحت غدوت الی المسجد لأسأل عنه، ولیس أحد یخبرنی عنه بشیء، فمرّ بی علیٌّ فقال: ما آن للرجل أن یعود؟ قلت: لا، قال: ما أمرک، وما أقدمک هذه البلدةَ؟ قلت: إن کتمته علیَّ أخبرتک، قال: فإنی أفعل، قلت: بلغنا أنه قد خرج رجلٌ یزعم أنه نبی، فأرسلت أخی لیکلمه، فرجع ولم یشفِنی من الخبر، فأردت أن ألقاه.

قال: أما إنک قد رشدت لأمرک، هذا وجهی إلیه فاتبعنی، فادخل حیث أدخل، فإنی إن رأیت أحداً أخافه علیک قمت الی الحائط، وامضی أنت. قال:

فمضی، ومضیتُ معه حتی دخل، ودخلت معه علی النبیّ صلی الله علیه و آله، فقلتُ: یا رسول اللَّه، أعرض علیّ الإسلام، فعرضه علیّ، فأسلمتُ مکانی، فقال لی: یا أبا ذر، اکتم هذا الأمر وارجع الی بلدک، فإذا بلغک ظهورنا فأقبل. قلت: والذی بعثک بالحقّ لأصرُخنّ ما بین أظهرکم.

فجاء الی المسجد وقریش فیه، فقال: یا معشر قریش، إنی أشهد أن لا إله إلّا اللَّه، وأشهد أنّ محمداً عبدهُ ورسولهُ، فقالوا: قوموا الی هذا الصابئ فقاموا، فضربتُ لأموتَ، وأدرکنی العباس، فأکبّ علیّ ثمّ قال: ویحکم! تقتلون رجلًا من غفار، ومتجرکم وممرّکم علی غفار؟ فأقلعوا عنی.

فلما أصبحت الغد رجعت، فقلت ما قلتُ بالأمس، فقالوا: قوموا الی هذا الصابئ، فضربونی، فأدرکنی العباس، فأکبّ علی (١).

وعن ابی ذر قال: کنت رابعَ الإسلام، أسلم قبلی ثلاثة، وأنا الرابع، فأتیت النبی صلی الله علیه و آله فقلت: سلام علیک یا نبیّ اللَّه، أشهد أن لا إله إلّااللَّه، وأشهد أنّ محمداً

١- ١ المصدر نفسه.

ص: ۲۰۲

عبده ورسوله. فرأيت الاستبشار فی وجه رسول اللّه صلی الله علیه و آله، فقال: «مَن أنت؟» قلت:

«أنا جندب رجل من بنی غفار، قال: فرأيتها فی وجه النبی صلی الله علیه و آله حيث ارتدع، كأنّه ودَّ أنی كنت من قبيلة أرفع من قبيلتی. قال: وكنت من قبيلة فيها رِقّة (قلّة) كانوا يسرقون الحاج بمحاجن لهم (۱).

وهناک روايات أخری فی أول اسلامه اكتفينا بهذه دونها.

سيرته:

كان أبو ذر معروفاً فی قومه وعند غيرهم بأنه رجل شجاع كريم وعزيز وكبير وعارف وحكيم.. وقبل حمله لهذه الصفات؛ هناک من يقول إنّه كان أيضاً من قطاع الطرق وقد لا تكون هناک غرابة فی ذلک- فهو ابن بيئته ومحيطه الذی نشأ فيه- وإن كنت لا أميل إليه ولا تطاوعنی نفسی فی ذكر ما قيل، فدراستی لأبی‌ذر واطلاعی علی ما يتحلی به هذا الرجل من نبل وشرف حتّی فی جاهليته يمنعنی كلّ ذلک وغيره عن تصديق هذه الرواية. تقول الرواية: كان أبو ذر رجلًا يصيب الطريق، وكان شجاعاً ينفرد وحده بقطع الطريق ويغير علی الصِّرم فی عماية الصبح علی ظهر فرسه، أو علی قدميه كأنه السبع، فيطرق الحی، ويأخذ ما يأخذ (۲)، ثم تمرّد علی عادات قومه السيئة قبل إسلامه وعرف بالصلاح..

فلما قذف اللّه تعالی فی قلبه الإسلام تحولت حياته الی حياةٍ خصبةٍ معطاء، وغنيةٍ بالعبر والمثل والدروس، وتجسيد للقيم يثير العجب والإجلال له، فإضافة الی قوة الإيمان وصلابته التی يتمتع بها أبو ذر، ورسوخ جذوره فی نفسه المباركة، وإضافة الی زهده ونسكه وشجاعته وحلمه ... كان هناک الصدق الذی أخذ بعداً عظيماً واسعاً فی حياته الايمانية والجهادية، هذه الصفة التی تحلّی بها خلقه الشريف ولم يحد عنها قيد أنملة أبداً. ميّزته عمّا حوله من الصحابة والتابعين. فكان بحقّ من أولئک الذين صدقوا وأولئک هم المتقون (۳)

. بل تفرّد بها حتی كاد أن لا يوازنه

۱- ۱ مختصر تاريخ دمشق ۲۸: ۲۸۳- ۲۸۵.

۲- ۲ مختصر تاريخ دمشق ۲۸: ۲۸۴- ۲۸۵.

۳- ۳ البقرة: ۱۷۷.

ص: ۲۰۳

فیها أحدٌ. وکأن أبا ذر خلق للصدق، وهو جدیر به.

یقول رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فیه: «ما أظلت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء بعد النبیین امرءاً أصدق لهجةً من أبی ذر».

وفی روایة أبی الدرداء: «ما أظلت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء من ذی لهجة أصدق من أبی ذر» (۱).

حقّاً لقد کانت شهادة عظیمة من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله الذی لا ینطق عن الهوی لأبی‌ذر، یقول الدکتور الجمیلی بعد ذکره لتلک الروایة: أعظم صفة لأعظم رجل، من أعظم نبی ... إنّها صدق اللهجة، وهی من أجل دقائق النعوت الموسوم بها أهل الصدق. وهی نادرة فی عنصر البشر، وجرثومة الناس التی امتزج طبعها بشهوة الدنیا، وحب الحیاة، وکلفوا بزخرف الفانیة وتهالکوا علیه.

ولا جرم أنّ أباذر المشهود بصدق لهجته من النبی الصادق المصدوق، لا جرم أنه حريٍ به وقمین بشخصه أن یصدق علیه أیضاً قوله صلی الله علیه و آله: «یرحم اللَّه أبا ذر ...

یمشی وحده ... ویموت وحده ... ویبعث وحده» (۲).

لقد کلفه صدقه أن یعیش وحیداً، وأن یعیش بعیداً، وأن یموت غریباً ...

لقد تمرّد أبوذر علی واقعه کلّه بعد فترة من نشأته فی قبیلة غفار، التی عرف أفرادها واشتهر رجالها بأنّهم قطاع طرقٍ، وبأنهم سادة السطو والسرقة والغدر والقتل، رجل تمرّد علی هوی نفسه وعلی بیئته التی ولد فیها ونشأ وترعرع بین أحضانها، وراح یصدع بأن الصدق زینة الرجل، وجمال له ... وراح یربی نفسه علی قول الحق ولهجة الصدق مهما کلفه ذلک من تغریب وتبعید وتعذیب ... ولم یکتف بذلک فقد فاجأ الجمیع بإیمانه، وصدع به صرخةً مدویةً لا غموض فیها تهزّ ما حوله، جاهراً بشهادة لا إله إلّااللَّه وأنّ محمداً رسول اللَّه، أعلنها فی وسط لاـ معین له به ولاـ ملجأ یلجأ إلیه ولاـ مأوی یأوی وکانت قریش بکامل عزّها وجبروتها وطغیانها ... فنال بذلک وسام رابع رجل أو خامس رجل لینضمّ الی السابقین

۱- ۱ انظر أحمد والترمذی وابن ماجة والطبرانی ...

۲- ۲ صحابة النبی صلی الله علیه و آله، الدکتور السید الجمیلی: ۲۵۰.

ص: ٢٠۴

الأولين، أولئك المقربون.

إنّها صرخة الحقّ التى أطلقها أمام أعين الظالمين، وكادوا ينكلون به ويقتلونه، بعد أن أذاقوه سوء العذاب .. حتى غشى عليه مرّات عديدة، ولولا ـ أن تدخل هنا العباس بن عبدالمطلب ليقتلوه، فقد راح يحذرهم ويخيفهم من عواقب ما تقترفه أيديهم، وراح أيضاً يذكرهم بأنّ أبا ذر هذا من غفار – بعد أن أنساهم طغيانهم وحقدهم ذلك – وأهلها معروفون مَن هم، فإن تتعرضوا له بالأذى، فإن قبيلة غفار ستتعرض لقوافلكم التجارية إذ إنّ طريقكم إليه لا تحويل عنه ...

فعندئذ توقفوا عن تعذيبه، وأطلقوا سراحه، فغادر الرجل مكة لا الى الحبشة كما هاجر إليها إخوانه من المسلمين، ولكن الى عشيرته وقومه، لينذرهم، وكان ذلك استجابة لأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله ... فهل أنت مبلغٌ عنى قومك ...

عاد الى قومه وبقى فيهم، ولم يهاجر الى المدينة إلّابعد غزوة تبوك؛ ليبدأ من هناك مرحلته التبليغية، فالأقربون أولى بالمعروف، وهل هناك معروف أعظم من هدايتهم لدين اللّه تعالى، وإنقاذهم ممّا هم فيه من انحراف وفجور وسطوٍ واعتداء على الأبرياء وطرق التجارة، التى قدر لغفار أن تكون مركزاً لمرورها؟! وبالتالى تخليص الناس من أذاهم، الى غير ذلك من المنافع إذا ما آمنوا واتقوا. فكان بحقّ رسولَ خير لهم..

وفعلًا كانت البداية حيث علا فى أوساطهم قول الحقّ بكلّ وضوح وصراحة صادقة: أن هلموا للإيمان وأن انطقوا بالشهادتين تنالوا بذلك عزّ الدنيا وخير الآخرة. ولأنّ دعوته نبعث من قلبٍ صادقٍ فما أسرع ما لاقت آثارها وجنت ثمارها ...! خُذنا يا أباذر إلى حيث نبع الخير والبركة إلى حيث رسول السماء؛ لكى نضع أيدينا على يديه المباركتين فنتزوّد منه، ونعاهده على أن نكون جنداً له، ونضع سيوفنا الى جنب سيوف المسلمين لنصون الحقّ وأهله.. ونترك كلّ ما

ص: ٢٠٥

اقترفناه من حيف وظلم وأذى للآخرين. قدم قومه على رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله يتقدمهم الصحابى الجليل ابو ذر الغفارى ليسمع قوله صلى الله عليه و آله:

«غفار غفر اللّه لها ... وأسلم سالمها اللّه».

علمه:

كان‌أبوذر عالماً عارفاًبالقرآن والحديث، أشادبعلمه جلّ الصحابة، وقد سئل الإمام على بن أبى طالب عنه، فقال: عَلِمَ العلم ثمّ أوكى (أوكى على ما فى سقائه: إذا شدّه بالوكاء: كلّ سير أو خيط يشدّ به فم السقاء ...) فربط عليه ربطاً شديداً.

وفى قول آخر له عليه السلام: أبو ذر وعاء مُلِئ علماً ثم أوكى عليه فلم يخرج منه شيء، حتى قبض.

وفى قول ثالث له عليه السلام عن أبى ذر: وعى علماً عجز فيه (أعجز عن كشف ما عنده من العلم) وكان شحيحاً حريصاً؛ شحيحاً على دينه، حريصاً على العلم، وكان يكثر السؤال، فيُعطى ويمنع، أَمَا إنه قد مُلِئ له فى وعائه حتى امتلأ.

وفى عبارته عليه السلام: «عجز فيه» يبدو أنه أراد أعجز عن كشفه. وقد ورد فى طبقات ابن سعد: أعجز عن كشف ما عنده من العلم.

والذى يبدو أنه (أوكى عليه) لأنه لم يجد من يحمله ويستمع اليه كما نرى هذا فى موضوع المقاطعة الآتى، وهذا ظلم آخر يضاف الى مظلومية الرجل. وإلّا ما فائدة العلم الذى يبقى مكنوزاً فى صدر صاحبه حتى القبر؟ ثمّ إظهار العلم للآخرين مستحب، بل قد يكون أحياناً واجباً، وفيه أجر عظيم. ولا أظنّ أبا ذر كان فيه من الزاهدين.

يقول مالك بن أوس فى روايته:

قدم أبو ذر من الشام، فدخل المسجد وأنا جالس، فسلم علينا، وأتى سارية، فصلى ركعتين تجوّز فيهما، ثم قرأ: ألهاكم التكاثر حتى ختمها، واجتمع الناس

ص: ۲۰۶

علیه، فقالوا له: یا أبا ذر، حدثنا ما سمعت من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فقال لهم: سمعت حبیبی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقول: فی الإبل صدقتُها، وفی البقر صدقتُها، وفی البر صدقته، من جمع دیناراً أو درهماً، أو تبراً، أو فضهٔ لا یعده لغریم، ولا للنفقهٔ فی سبیل اللَّه کُویَ به». قلت: یا أبا ذر، انظر ما تخبر عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فإن هذه الأموال قد فشت.

فقال: من أنت یا بن أخی؟ فانتسبت له، قال: قد عرفت نسبک الأکبر، ما تقرأ والذین یکنزون الذهب والفضهٔ ولا ینفقونها فی سبیل اللَّه ....

وکثیراً ما کان یردّد هذه الآیهٔ وآیهٔ ألهاکم التکاثر حتی زرتم المقابر.

روایاته:

عرف عنه أنّه کان مواظباً علی ملازمته لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله والاستفادهٔ منه، وکان یطیل الجلوس عنده، حتی إن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله کان یبتدئ أبا ذر إذا حضر، ویتفقده إذا غاب، وکان أکثر أصحاب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله سؤالًا؛ لهذا فقد روی عن رسولاللَّه صلی الله علیه و آله قرابهٔ ۲۸۰ حدیثاً، وراح بعض الصحابهٔ یروون عنه، فقد روی عنه ابن عباس وأنس بن مالک وحذیفهٔ بن أسید وابن عمر وجبیر بن نفیر وأبو مسلم الخولانی وزین بن وهب وأبو الأسود الدؤلی وربعی بن جراش والمعرور بن سوید وغیرهم ...

ومما رواه عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله عن جبریل، عن اللَّه تبارک وتعالی، أنه قال: «یا عبادی، إنی حرّمتُ الظلم علی نفسی، وجعلته بینکم محرماً، فلا تظالموا، یا عبادی، إنکم الذین تخطؤون باللیل والنهار، وأنا الذی أغفر الذنوب ولا أبالی، فاستغفرونی أغفر لکم.

یا عبادی کلکم جائع إلّامن أطعمته، فاستطعمونی اطعمکم.

یا عبادی کلکم عارٍ إلّامَن کسوته، فاستکسونی أکسکم.

ص: ۲۰۷

یا عبادی، لو أنّ أولکم وآخرکم، وإنسکم وجنکم، کانوا علی أفجر قلب رجل منکم، لم ینقص ذلک من ملکی شیئاً.

یا عبادی، لو أن أولکم وآخرکم، وإنسکم وجنکم، کانوا علی أتقی قلب رجل منکم، لم یزد ذلک فی ملکی شیئاً.

یا عبادی، لو أنّ أولکم وآخرکم، وإنسکم وجنکم، کانوا فی صعید واحد، فسألونی، فأعطیت کلّ واحد منهم ما سأل، لم ینقص ذلک من ملکی شیئاً، إلّاکما ینقص البحر أن یُغمس المحیط غمسةً واحدةً.

یا عبادی، إنما هی أعمالکم أحفظها علیکم، فمن وجد خیراً، فلیحمد اللَّه، ومن وجد غیر ذلک، فلا یلومنّ إلّانفسه» (۱).

ومن روایاته أیضاً، قال رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله: «یکون فی جهنم عقبة کؤود لا یقطعها إلّا المخفون»...

وفی المصافحة والمعانقة سئل أبوذر: هل کان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یصافحکم إذا لقیتموه؟

قال: ما لقینی قط إلاـ صافحنی، ولقد جئت مرة، فقیل لی: إن النبی صلی الله علیه و آله طلبک، فجئت، فاعتنقنی، فکان ذلک أجودَ وأجودَ.

وقال أیضاً: أرسل الی رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله فی مرضه الذی توفی فیه، فأتیته، فوجدته نائماً، فأکببتُ علیه، فرفع یده فالتزمنی.

ومن الجدیر بالذکر أنّ أبا ذر هو أول من حیّا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بتحیة الاسلام (۲).

دعاء الرسول صلی الله علیه و آله له ووصایاه:

راحت أدعیة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ووصایاه تواکب أباذر وهو یخطو خطواته فی طریقه اللاحب. فکان صلی الله علیه و آله کثیراً ما یدعو له حین یراه وفی غیبته، راجیاً من اللَّه

۱- ۱ سیر اعلام النبلاء ۲: ۴۸.

۲- ۲ مختصر تاریخ دمشق ۲۸: ۲۸۱.

ص: ۲۰۸

تعالی تسدیده وإعانته علی تجاوز الصعاب والمشاق التی یعلم رسول اللّه صلی الله علیه و آله بأنّ الرجل سیواجهها فی حیاته ... ویظهر من ذلک أن ما کان مکلفاً به أمر مهم وخطیر وأنّ مسیرته شائکهٔ، وأن کلّ ما فعله رضوان اللّه علیه کان بأمر من رسول اللّه صلی الله علیه و آله ووفقاً لرغبته صلی الله علیه و آله ورضاه.

یقول: أوصانی حبّی (أی رسول اللّه) بخمس: ... وأن أقول الحقّ ولو کان مرّاً ... «وکیف أنت عند ولاهٔ یستأثرون علیک» قلت (یا رسول اللّه): أضع سیفی علی عاتقی وأضرب حتی ألحقک ...

أمرنا رسول اللّه ألا نغلب علی أن نأمر بالمعروف، وننهی عن المنکر، ونعلم الناس السنن.

قال له رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «یا أبا ذر، أنت رجل صالح، وسیصیبک بعدی بلاء»

قلت: فی اللّه؟

قال: «فی اللّه».

قلت: مرحباً بأمر اللّه.

فمنذ أول بادرهٔ إیمانیهٔ ظهرت علی لسان أبی ذر وهی نطقه بالشهادتین ... کلّفه رسول اللّه صلی الله علیه و آله بأن یکون داعیهً ومبلغاً لرسالهٔ السماء.

بمن تأمرنی یا رسول اللّه؟

فأجابه صلی الله علیه و آله: ترجع الی قومک حتی یبلغک أمری ...

فهل أنت مبلغ عنی قومک ... عسی اللّه أن ینفعهم بک ویأجرک فیهم؟

وأین؟! إنها دعوهٔ خطیرهٔ، فهی لقومه غفار، هذه القبیلهٔ التی عرفت بالجاهلیهٔ من بین قبائل العرب بقسوتها وشدّتها وحبّها للغزو وتفانیها من أجل السطو والنهب الذی کان مصدر عیشها.

نعم بعثه صلی الله علیه و آله مبلغاً لمفاهیم السماء وقیمها فی عشیرته، التی کانت مضرب المثل بین قبائل العرب وغیرهم فی السطو وبث الرعب فی قلوب المارهٔ، حتی صار المار

ص: ۲۰۹

بـدیارهم یحسب ألف حساب قبل أن یخطو خطوهٔ فی طریقه ... كانوا یرقبون الحاج بمحاجن لهم. وكانوا حلفاء اللیل والظلام. والویل والویل لمن یسلّمه اللیل الی واحدٍ من قبیلهٔ غفار كما یقول خالد محمد خالد.

فعملیهٔ التغییر التی ألقاها رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی عاتق هذا العبد الصالح لیست أمراً سهلًا أبداً؛ لهذا نری رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یلاحق أبا ذر فی تحركاته، ویكثر له من الدعاء فی أن یسدّده اللَّه تعالی وأن یثبته. وفعلًا استطاع أبو ذر- وكما تقول مصادر التاریخ- أن یهدی أكثر من نصف قبیلته وبقی النصف الآخر لیعلن إسلامه علی یدی رسول الحق صلی الله علیه و آله.

وكان من أدعیته صلی الله علیه و آله التی طالما كررها له:

اللهم أغفر لأبی ذر وتب علیه.

آجرك اللَّه یا أبا ذر ...

أما من وصایاه صلی الله علیه و آله الأخری:

فعن أبی ذر: دخلت المسجد فإذا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فقال: «یا أبا ذر ألا أوصیك بوصایا إن أنت حفظتها نفعك اللَّهُ بها؟

قلت: بلی بأبی أنت وأمّی.

قال: جاور القبور تذكر بها وعید الآخرهٔ، وزرها بالنهار، ولا تزرها باللیل، واغسل الموتی؛ فإنّ فی معالجهٔ جسد خاوٍ عظهٔ، وشیع الجنائز، فإن ذلك یحرك القلب ویحزنه، واعلم أنّ أهل الحزن فی أمن اللَّه، وجالس أهل البلاء والمساكین، وكُلْ معهم، ومع خادمك، لعلّ اللَّه یرفعك یوم القیامهٔ، والبس الخشن الصّفیق من الثیاب تذلّلًا للَّه- عزّوجلّ- وتواضعاً؛ لعلّ الفخر والبطر لا یجدان فیك مساغاً، وتزین أحیاناً فی عبادهٔ اللَّه بزینهٔ حسنهٔ تعففاً وتكرماً، فإنّ ذلك لا یضرك- إن شاء اللَّه- وعسی أن یحدث للَّهشكراً» (۱).

۱- ۱ مختصر تاریخ دمشق ۲۸: ۲۸۸.

ص: ٢١٠

ومن أقواله ووصاياه التى تتسم بالحكمة:

كانت له أقوال ووصايا تتسم بالحكمة وتنمّ عن خبرة وتجربة وعن إيمان متجذر فى نفسه وقلبه، كما تكشف عن أن الرجل يتمتّع بعقل قوىّ وذهن حادٍ ونفسٍ صلبة وهمّة عالية.. كما أنّ هذه الوصايا تبين لنا أن أباذر كان مخلصاً صادقاً محبّاً لهذه الأمّة وراعياً لها لهذا نراه لم يبخل عليها بشيء، ومن كان سخياً بنفسه وحياته فى سبيلها فهل تراه يبخل عليها بكلماته وأقواله ووصاياه إن رأى فيها مصلحة لها؟!

قالوا: يا أبا ذر، إنك امرؤ ما يبقى لك ولد.

فقال: الحمد للّهالذى يأخذهم فى الفناء، ويدّخرهم فى دار البقاء.

قالوا: يا أبا ذر، لو اتخذتَ امرأةً غير هذه؟

قال: لأن أتزوج امرأة تضعنى أحبّ اليّ من امرأة ترفعنى.

قالوا: لو اتخذت بساطاً ألين من هذا؟

قال: اللهم غَفراً، خذ مما خوّلت ما بدا لك.

- بعث حبيب بن مسلمة الى أبىذر وهو بالشام ثلاثمائة دينار، وقال: استعن بها على حاجتك، فقال أبوذر: ارجع بها اليه، فما أحد أغنى باللّه منا، لنا ظل نتوارى به، وثلة من غنم تروح عليها، ومولاة لنا تصدقت علينا بخدمتها، ثم إنى لأتخوف الفضل.

- إن لك فى مالك شريكين: الحدثان (الليل والنهار) والوارث، فإن استطعت ألّا تكون أبخس الشركاء حظاً فافعل.

- وشتمه رجل: فقال له: يا هذا، لا تُغرق فى شتمنا، ودع للصلح موضعاً، فإنا لا نكافئ من عصى اللّه فينا بأكثر من أن نطيع اللّه فيه.

ص: ۲۱۱

- إنى لأقربكم مجلساً من رسولاللَّه صلى الله عليه و آله يوم القيامهٔ، إنى سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: «إن أقربكم منى مجلساً يوم القيامهٔ من خرج من الدنيا بهيئهٔ ما تركته فيها» وإنه واللَّه ما منكم أحد إلّاوقد تشبث منها بشيء.

- وقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: والذى بعثك بالحق لالقيتك إلّاعلى الذى فارقتك عليه.

- كان قوتى على عهد رسولاللَّه صلى الله عليه و آله فى كلّ جمعهٔ صاعاً، فلست بزائد عليه حتى ألقاه.

- دخل شباب من قريش على أبى ذر- ممّن يريدون إيذاءه- فقالوا له:

فضحتنا بالدنيا، وأغضبوه، فقال: ما لى وللدنيا، وإنما يكفنى صاع من طعام فى كلّ جمعةٍ، وشربهٔ من ماء فى كلّ يوم.

إلى عند ذلك من الوصايا النافعهٔ والأقوال الحكيمهٔ..

مواكبهٔ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله له:

حقّاً لقد تربى هذا الصحابى الجليل فى بيت النبوهٔ فنهل من أخلاقها، وتأدب بآدابها. وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يواكبه فإن وجد فيه ما يشين نبهه عليه، وإن وجد فيه خيراً ثبته عليه، وكان أبو ذر طوع بنان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله منقاداً له أيما انقياد، ويسمع منه ويقتدى به ...

يقول ابن سويد: نزلنا الربذهٔ، فإذا رجل عليه برد، وعلى غلامه برد مثله، فقلنا له: لو أخذت بردَ غلامك هذا فضممته الى بردك هذا فلبسته كانا حُلّةً (الحلهٔ عند العرب ثوبان، ولا تطلق على ثوب واحد)، واشتريتَ لغلامك برداً غيره.

قال: إنى سأحدثكم عن ذلك: كان بينى وبين صاحبٍ لى كلام، وكانت امّه أعجميهٔ، فنلتُ منها. فأتى النبىّ صلى الله عليه و آله ليعذره منى. (يقال: من يعذرنى من فلان؟ أى من يقوم بعذرى إن أنا جازيته بسوء صنيعه).

ص: ۲۱۲

فقال لی‌رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله: «یاأبا ذر، سابَبتَ فلاناً؟» فقلت: نعم، قال: «فذکرتَ أُمّه؟» فقلت: من سابَّ الرجال ذُکِرَ أبوه وأمُه، فقال لی: «إنک امرؤ فیک جاهلیة» قلت: علی حال ساعتی من الکِبر؟ قال: «علی حال ساعتک من الکبر، إنهم إخوانکم جعلهم اللَّه تحت أیدیکم، فمن کان أخوه تحت یده فلیطعمه من طعامه، ولیلبسه من لباسه، ولا یکلفه ما یغلبه».

سمع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أبا ذر یقول حِدثانَ إسلامه لابن عمّه: یا بن الأمة، فقال له صلی الله علیه و آله: «ما ذهبت عنک أعرابیتُک بعد».

هکذا کان صلی الله علیه و آله یواکب أصحابه المخلصین ویسدّدهم ویقوّمهم؛ ویقتلع ما فیهم من آثار الجاهلیّة وما ترکته بیئتهم فی نفوسهم والانسان ابن بیئته، لیبدلها بأخلاق إسلامیة وآداب قرآنیة بعیدة عن حالات التعصب التی طالما کان یقول عنها:

دعوها فإنّها نتنة دعوها فإنّها نتنة.

کرمه:

عرف عنه أنه کان کریماً کثیر الإحسان رغم فقره وضعفه وقلة ما فی یده، ولم یترک بعد وفاته شیئاً فی بیته حتی انه لم یجدوا عنده ما یکفن به.

فمن کرمه:

- دفع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله الی أبی ذر غلاماً، فقال: «یا أبا ذر، أطعمه ممّا تأکل، واکسُه مما تلبس».

فلم یکن عنده غیر ثوب واحد، فجعله نصفین، فراح الی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقال:

«ما شأن ثوبک یا أبا ذر؟».

فقال: إنّ الفتی الذی دفعته الیّ أمرتنی أن أطعمه مما آکل، وأکسوه مما ألبس، وإنه لم یکن معی إلّاهذا الثوب فناصفته.

فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «أحسن الیه یا أبا ذر».

ص: ۲۱۳

فانطلق أبو ذر فأعتقه.

فسأله رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «مافعل فتاکَ؟».

قال: لیس لی فتی، قد أعتقته.

قال صلی الله علیه و آله: «آجَرکَ اللَّه یا أبا ذر».

- یقول عطاء بن مروان: رأیت أبا ذر فی نمرة (شملة فیها خطوط بیض وسود، وبردة من صوف یلبسها الأعراب) مؤتزراً بها، قائماً یصلی، فقلت: یا أبا ذر، مالک ثوب غیر هذه النمرة؟ قال: لو کان لی لرأیته علیّ، قلتُ: فإنی رأیت علیک منذ أیام ثوبین، فقال: یا بن أخی، أعطیتهما من هو أحوج منی الیهما، قلت: واللَّه إنک لمحتاج إلیهما، قال: اللهم غفراً، إنک لمعظم للدنیا، ألیس تری علیّ هذه البردة؟ ولی أخری للمسجد، ولی أعنز أحلبهما، ولی أحمرة نحتمل علیها میرتنا، وعندنا من یخدمنا ویکفینا مهنة طعامنا، فأی نعمة أفضل مما نحن فیه؟ (۱) مواقفه:

الذی لا یهاب الموت لا یهاب ما دونه؛ لهذا نری أبا ذرٍّ لا یخشی بأسهم ولا یخاف طغیانهم، ولا یکترث بظلمهم، ولا یأبه بتهدیهم وإنذارهم ووعیدهم ... إنّه کان یخشی فقط وعید السماء وإنذارها ...

بایعنی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله خمساً، وواثقنی سبعاً، وأشهد علیَّ تسعاً ألا أخاف فی اللَّه لومة لائم، وفی قول آخر له صلی الله علیه و آله: «هل لک الی بیعة ولک الجنة»؟

قلت: نعم، وبسطت یدی فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وهو یشترط علیَّ: «أن لا تسأل الناس شیئاً» قلت: نعم، قال: «ولاسوطک إن سقط منک حتی تنزل إلیه فتأخذه» (۲).

فکان هذا عهده وهو الوفی به، وکانت تلک صرخاته المتتالیة ضد الظالمین والمترفین عناقیدَ غضبٍ تنهال علی رؤوسهم، وکان لسانه سیفاً صارماً یکشف

۱- ۱ طبقات ابن سعد ۴: ۲۳۵.

۲- ۲ مختصر تاریخ دمشق ۲۸: ۲۹۳- ۳۹۴.

ص: ٢١۴

زيفهم ويعرى مواقفهم وادعاءاتهم...

كانت كلّ أمنياته أن يحذف ويلغى كلّ انحرافٍ من حياة هذه الأمة، فهو يخشى إن بقى هذا الانحراف أن يتجذر، ويصبح وكأنه هو الصحيح وغيره خطأ، وكان يخشى على هذه الأمة أن تذهب بعيداً عمّا بناه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وارتأته السماء ... لهذا ولغيره تصدى أبوذر وتحمل عواقب هذا التصدى.

كانت له مواقف عديدة شهد بها التاريخ ومؤرخوه تتسم بالقوة والشدّة صبت كلّها ضد حكام عصره والأغنياء وثرواتهم بغير حقّ ... فكانت دروساً قيمة للأجيال فى مقارعتها للظلم والظالمين والترف والمترفين، وراحت مواقفه الجريئة هذه انشودةً لا يتخلى عن إنشادها المناضلون ولا ـ يعزف عن التغنى بها المجاهدون، وراح يترسمها الأحرار فى كلّ مكان وزمان ... وقد سببت له ابتلاءات كثيرة كان يستعذبها لأنها فى اللَّه وللَّه، «يا أبا ذر، أنت رجل صالح، وسيصيبك بعدى بلاء»، قلتُ: فى اللَّه؟ قال صلى الله عليه و آله: «فى اللَّه»، قلت: مرحباً بأمر اللَّه.

كانت كلمات رسول اللَّه تلاحقه، وكان هو الآخر يستحضرها فى كلّ خطواته وأقواله، أمرنا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ألا نغلب على أن نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، ونعلم الناس السنن.

وكان فى جهاده هذا يستوحى كلّ مواقفه وكلماته من السماء ورسولها ولا يغيّر ولا يبدل: واللَّه، ما كذبتُ على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ولا أخذت إلّاعنه، وعن كتاب اللَّه عزّوجلّ.

واللَّه إنى لعلى العهد الذى فارقتُ عليه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ما غيرتُ، ولا بدلتُ.

لقد بايعت رسول اللَّه على أن لا تأخذنى فى اللَّه لومة لائم ...

قصد أبو ذر الشام واستقرّ بدمشق حيث الثروة المبدّدة، والإسراف الفاحش، والدنيا الفارهة، وحيث الترف والمترفين الى جانب ذلك كلّه وجد الفقر المدقع والحاجة القاتلة، فأعلنها مدويةً صرخةً ضد الأغنياء ليبروا الفقراء، ثورةً ضد

ص: ۲۱۵

الطغاة لینصفوا الرعیة. کان صوتاً عالیاً ضد أصحاب الأموال؛ لیمدوا ید العون لإخوانهم.

کانت بحقّ ثورةً کبری ضد الطبقیة القاتلة التی تنخر بالمجتمع المسلم وتهدّد کیانه وتطیح بقیمه ومبادئه.

یقول الدکتور الجمیلی:

لقد کان یری أنّ المال فتنة تثیر الغفلة والریبة والشبهات حول أولی الأمر، هذا رأیه، وهذا فهمه، وتلک طبیعته المفطورة علی الطهر والنقاء والنظافة والتنزه عن مجرّد الارتیاب.

کان یشتدّ به الضیق عندما یری امراء المؤمنین یتمرغون فی القصور، ومن ورائهم یری الجیاع المتربین ذوی الخصاصة یتضورون متهالکین، فکان دائماً یردّد قوله تعالی:

والذین یکنزون الذهب والفضة ولا ینفقونها فی سبیل اللّه فبشرهم بعذاب ألیم* یوم یحمی علیها فی نار جهنم فتکوی بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما کنزتم لأنفسکم فذوقوا ما کنتم تکنزون (۱).

حمل رداءَه، واشتمل بردته، وسار الی بلاد الشام حیث ثمّ معاویة ابن أبی‌سفیان یقطن ویستمتع بالخصوبة والفیء والمروج الخضر، حیث الثروات والقصور المنیفة والضیع الوارفة الظلال، ولم یسکت علی الثورة الضاربة فی داخل کیانه، لکنها انطلقت علی لسانه، فصرخ فی الناس.

«عجبتُ لمن لا یجد القوت فی بیته، کیف لا یخرج علی الناس شاهراً سیفه».

فإن أمیر القوم أول من یجوع إذا جاعوا، وآخر من یشبع إذا شبعوا.

کان یأتی معاویة فی عقر داره فی مجلسه، ویعلنها واضحةً لا لبس فیها:

خیارکم أزهدکم فی الدنیا، وأرغبکم فی الآخرة، وشرارکم أرغبکم فی الدنیا وأزهدکم فی الآخرة.

۱- ۱ التوبة: ۳۴- ۳۵.

ص: ۲۱۶

كانت معارضة أبى ذر معارضة قوية، يُخشى بأسها، ويعمل حسابها؛ لأنها صادرة من نفس أبية عالية وهمة شامخة، شايعها كثير من صحابة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والتفوا حولها (۱).

سحب أبو ذر فضل ردائه قائلًا: «لا حاجة لى فى دنياكم» قال ذلک بعدما استدعاه الخليفة الثالث من دمشق تلبية لطلب معاوية حيث كتب لعثمان: إن كان لک بالشام حاجة فأرسل الى أبى ذر.

فكتب إليه عثمان يأمره بالقدوم عليه، وبعدما سمع قول عثمان له: «ابق معى هنا بجانبى، تغدو عليک اللقاح وتروح»...

فكان جوابه رضوان اللَّه عليه:

نعم «لا حاجة لى فى دنياكم».

«لا حاجة لى فى ذلک تكفى أباذر صُرِيمتُه.. دونكم معاشر قريش دنياكم فاخذموها ودعونا وربّنا.. لم تكن هذه كلمات فقط، وإنّما كانت مواقف هزّت كيان الظالمين وأرست قواعد للإيمان الصحيح والمواقف المبدئية الصلبة...

ومن تلک المواقف:

كان أبو ذر أشدَّ الصحابة غضباً على ما فعله الخليفة الثالث حين ولى الخلافة، فقد قام بتوزيع كثير من أموال بيت المال على من يرغب وهو عطاء غير مسؤول، فقد أعطى مروان ابن الحكم ما أعطاه، وأعطى الحارث ابن الحكم ثلاثمائة ألف درهم، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم ...

فوقف أبو ذر موقفاً مليئاً بالقوة والشدّة والغضب، وراح يتلو قوله تعالى:

والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل اللَّه فبشرهم بعذاب أليم.

وجرت محاورات كانت فى بعض جوانبها تتسم بالجرأة، وأثبت له خطأ تصرفاته وأنها بعيدة عن الشرع فى الوقت الذى راح كثير من الصحابة- وقد

۱- ۱ صحابة النبى صلى الله عليه و آله للدكتور الجميلى: ۲۵۲.

ص: ۲۱۷

ملئت قلوبهم غیظاً وضیقاً علی أفعال الخلیفة- یمیلون الی تأیید أبو ذر فی مساعیه وجهوده من أجل إیقاف هذا الانحراف أو الحد منه، وبدلًا من أن یتعظ الخلیفة بذلک، أخذته العزّة بنفسه مؤیداً من قبل المستفیدین، فقد أصدر أمره بإبعاد الصحابی الجلیل أبو ذر عن المدینة الی الشام، وکان ذلک سنة تسع وعشرین للهجرة، وفعلًا التحق أبو ذر بالشام، وهناک راح ینکر علی معاویة اموراً کثیرة وانحرافات خطیرة، فما کان من معاویة إلّاأن یرسل له ثلاثمائة دینار کی یستمیله الی جانبه أو علی الأقل یخرس صوته ...

فقال له أبو ذر: إن کان من عطائی الذی حرمتمونیه عامی هذا قبلتها، وإن کانت صلة فلا حاجة لی فیها.

ولما رأی قصر الخضراء الذی بناه معاویة بدمشق، لم یلذ أبوذر بالسکوت بل أعلنها واضحة جلیة أمام معاویة: یا معاویة! إن کانت هذه الدار من مال اللَّه فهی الخیانة، وإن کانت من مالک فهذا الإسراف.

فلم یحر معاویة جواباً بل لاذ بالسکوت منتظراً نزول الظلام، فبعث الیه بألف دینار. فما کان من أبی ذر إلّاأن أنفقها فی سبیل اللَّه.

ولما صلی معاویة صلاة الصبح، دعا رسوله، فقال: اذهب الی أبی ذر فقل: أنقذ جسدی من عذاب معاویة، فإنی أخطأتُ.

قال: یا بنی، قل له: یقول لک أبو ذر: واللَّه ما أصبح عندنا منه دینار، ولکن انظرنا ثلاثاً حتی نجمع لک دنانیرک.

فلما رأی معاویة أن قوله صدّق فعلَه؛ کتب الی عثمان: أما بعد؛ فإن کان لک بالشام حاجة أو بأهله، فابعث الی أبی ذر فإنه وغّل صدور الناس ... (۱) فما کان من عثمان إلا أن کتب الی معاویة: أما بعد، فاحمل جندباً علی أغلظ مرکب وأوعره.

فوجه معاویة مَن سار به اللیل والنهار (۲) وکان ذلک سنة ثلاثین بعد أن

۱- ۱ اعلام النبلاء ۲: ۵۰.

۲- ۲ أنساب الاشراف ج ۵، ترجمة عثمان.

ص: ٢١٨

قضى سنة فى دمشق، وأما فى تاريخ اليعقوبى: فكتب اليه أن احمله على قتب بغير وطاء، فقدم به الى المدينة وقد ذهب لحم فخذيه.

أما فى مروج الذهب: فحمله على بعير عليه قتب يابس، معه خمسة من الصقالبة يطيرون به حتى أتوا به المدينة وقد تسلّخت أفخاذه وكاد أن يتلف.

ومع كلّ ذلك لم يترك أبو ذر جهاده وصرخته بالحق والعدل ضد كلّ ظلم وانحراف وتعدى. فلما قدم أبو ذر المدينة جعل يقول مخاطباً الخليفة: تستعمل الصبيان، وتحمى الحمر، وتقرب أولاد الطلقاء. فما كان من الخليفة إلّاأن سيره الى الربذة (١).

المقاطعة:

وخلال فترة مناهضته للحكام وللأغنياء الذين استحوذوا على الأموال بغير حقّ، وقبل نفيه الى الربذة لإبعاده عن الأمة، تعرّض الرجل الجليل المسنّ الى مضايقات كثيرة وأذى عظيم، فإضافةً إلى منعهم عطاءَه من بيت المال منع الناس من الاتصال به وحضور مجالسه وحلقات دروسه، فقد كانت لأبى ذر حلقات للتفسير والحديث والفتيا، وكان الناس يحتوشونه، بعض يطلب تفسير آية، وبعض يستفتيه، وآخر يقول له: حدّثنا عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فكانت هذه الحالة وهى كثرة الذين يستفتونه ويأخذون العلم منه تلقى فى قلوب بعضهم الخشية منه، حتى منعه بعض أمراء عصره من ذلك، ولكى لا يتصل به أحد فيتأثر بآرائه راحوا يلاحقون مجالسه ويحظرون الاستماع اليه ...

يقول أبو كثير: حدّثنى أبى قال: أتيت أبا ذر وهو جالس عند الجمرة الوسطى، وقد اجتمع الناس عليه يستفتونه، فأتاه رجل، فوقف عليه، فقال: أَلم ينهكَ أمير المؤمنين عن الفتيا؟ فرفع رأسه اليه ثم قال: أَرقيب أنت عليَّ؟!

لو وضعتم الصمصامة (السيف القاطع) على هذه- وأشار بيده الى قفاه- ثمّ

١- ١ أنساب الاشراف ج ۵، ترجمة عثمان.

ص: ۲۱۹

ظننتُ أن أُنفذ كلمةً سمعتها من رسول اللّه صلى الله عليه و آله قبل أن تجيزوا علىّ لأنفذتها.

وفى رواية أنّ رجلًا أتى أبا ذر فقال:

إنّ المصدقين- يعنى جباة الصدقة- ازدادوا علينا، فنغيّب عنهم بقدر ما ازدادوا علينا؟

قال: لا، قف مالك عليهم فقل: ما كان لكم من حقّ فخذوه، وما كان باطلًا فذروه، فما تعدّوا عليك جعل فى ميزانك يوم القيامة.

وكان على رأسه فتى من قريش، فقال: أما نهاك أمير المؤمنين عن الفتوى؟

فرفع رأسه اليه ثم قال له: أرقيب أنت علىّ؟! لو وضعتم الصمصامة ...

يقول الأحنف بن قيس: أتيتُ المدينة، ثم أتيتُ الشام، فجمّعتُ (أى شهدت الجمعة) فإذا أنا برجل لا ينتهى الى سارية إلّافرّ أهلها، يصلّى ويُخفُّ صلاته، فجلستُ إليه، قال: قم عنى لا أغرُّك بشرٍّ، فقلت: كيف تغرُّنى بشرٍّ؟ قال: إنّ هذا- يعنى معاوية- نادى مناديه أن لا يجالسنى أحدٌ.

وفى رواية أخرى له: كنتُ جالساً فى حلقة بمسجد المدينة، فأقبل رجل لا تراه حلقة إلّافروا حتى انتهى الى الحلقة التى كنت فيها، ففروا، وثبتُ، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا أبو ذر صاحب رسول اللّه صلى الله عليه و آله، قلت: فما يُفِرّ الناس منك؟

قال: إنى أنهاهم عن الكنوز، قلت: فإنّ أعطيّتنا قد بلغت وارتفعت، أفتخاف علينا منها؟ قال: أما اليوم فلا، ولكن يوشك أن يكون أثمان دينكم، فإذا كان أثمان دينكم فدعوهم وإياها.

وكل هذا وغيره لم يثنه عن عزمه، وعن الوفاء بعهده الذى عاهد عليه رسول اللّه، وراح يواصل ثورته وكفاحه ضد كنز المال بعد أن رأى أنه عصب خطير وعظيم فى حياة الناس؛ لهذا فقد راح ينادى أن للفقراء حقّاً فى مال الأغنياء وأنه نصير للفقراء، فاجتمع حوله الكثيرون وناوأه آخرون ممن كان هواهم جمع المال ...

يقول الأحنف بن قيس كما فى سير أعلام النبلاء (۱):

۱- ۱ سير أعلام النبلاء ۲: ۶۴.

ص: ۲۲۰

قدمت المدینهٔ، فبینما أنا فی حلقهٔ فیها مَلأ من قریش إذ جاء رجل أخشن الثیاب، أخشن الجسد، أخشن الوجه، فقام علیهم، فقال: بشّر الکنازین برَضْفٍ (الحجارهٔ المحماهٔ) یُحمی علیهم فی نار جهنم.

قال: فوضع القوم رؤوسهم، فما رأیت أحداً منهم رجع الیه شیئاً، (أی أجابه بشییء) فأدبر، فتبعته حتی جلس الی ساریهٔ، فقلت: ما رأیت هؤلاء إلّاکرهوا ما قلت لهم، فقال: إنّ هؤلاء لا یعقلون شیئاً، إنّ خلیلی أبا القاسم دعانی، فقال: «یا أبا ذر» فأجبته، فقال: «تری أُحداً» فنظرت ما علیه من الشمس، وأنا أظنه یبعث بی فی حاجهٔ له، فقلت: أراه، فقال: «ما یسرنی أن لی مثله ذهباً أُنفقه کلّه إلّاثلاثهٔ دنانیر».

ثمّ هؤلاء یجمعون للدنیا، لا یعقلون شیئاً! فقلت: ما لک ولإخوانک من قریش، لا تعتریهم، وتصیب منهم؟

قال: لا وربِّک ما أسألهم دنیا، ولا أستفتیهم عن دین حتی ألحق باللَّه ورسوله.

إضافهً الی کلّ ذلک فإنه لم ینجو من الاتهامات الأخری، التی اعتاد الحکام علی ملء وسائل إعلامهم بها ضد من یخالفهم، فقد اتهموه بأنه من الخوارج ومثیر الفتن حتی اضطرته هذه الامور- أحیاناً- الی التصدی لها وتفنیدها فی مجالسهم، فقد دخل یوماً علی عثمان وهو فی مجلسه یحیطه جمع، فقال له وقد حَسَر عن رأسه: واللَّه ما أنا منهم ... یرید الخوارج ومثیری الفتن.

وکیف یکون من هؤلاء وهو الصادق القائل لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله: والذی بعثک بالحق لالقیتک إلّاعلی الذی فارقتک علیه.

خرج من مجلس الخلافهٔ قاصداً الربذهٔ وهو یقول للخلیفهٔ الذی قال له: نأمر لک بنعمٍ من نعم الصدقهٔ تغدو علیک وتروح: لا حاجهٔ لی فی ذلک، تکفی أبا ذر صریمته ... ثم راح یخاطبهم: دونکم معاشر قریش دنیاکم فأَخذِموها، ودعونا وربّنا.

ص: ۲۲۱

المنفی الأخیر «الربذة»:

لقـد کان الصـراع الـذی خاضه أبو ذر طیلـة عمره الشـریف ضـد الحکام واستئثارهم وضـد ثروتهم المتزایـدة بعیداً عن المبادئ والقیم وحاجـة النـاس وعوزهم ... لابـدّ أن ینتهی الی إبعـاده عن الساحـة- علی أقل التقادیر- وهـذا ما جری بالفعل، وخیر ما یصور لنا جهاد الرجـل وإخلاـصه ومنـاوأته للظـالمین نهجالبلاغـة، یقول الإمـام علی علیه السـلام: وهو یودعه: یـا أبـا ذرٍّ، إنّک غضـبتَ للَّه، فارجُ من غضبتَ له. إنّ القوم خافوک علی دنیاهم، وخفتهم علی دینک، فاترک فی أیدیهم ما خافوک علیه، واهرب منهم بما خفتهم علیه، فما أحوجهم الی ما منعتهم، وما أغناک عمّا منعوک! وستعلم من الرابح غداً، والأکثر حُسَّداً. ولو أنّ السـماوات والأرضـین کانتا علی عبد رتقاً، ثمّ اتقیاللَّه؛ لجعل اللَّه منهما مخرجاً! لا یؤنسـنّک إلّاالحقّ، ولا یوحشـنّک إلّاالباطل، فلو قبلتَ دنیاهم لأحبوک، ولو قرضت منها لأمنوکَ (۱).

اشـتد مرضه الذی ألمّ به، وانتابه ضـعف شدید جعله یجود بنفسه وحیداً فی غربة قاتلة، وقد فقد المعین وغاب عنه الناصر إلّاابنته وعلی روایة زوجته، وماذا تستطیع البنت أن تقدم لأبیها وهو یصارع سکرات الموت؟!

رمقها بنظرة فرآها تبکی، عرف معنی بکائها، فقال لها: ما یبکیک؟

قـالت: مـالی لا أبکی وأنت تموت بفلاة من الأرض، ولا یـدان لی بتغییبک ولیس عنـدی ثوب یسـعک کفناً لی ولا لک؟! ولابـدّ منه لنعشک، قال: فأبشـری ولا تبکی، إنی سمعت حبیبی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقول: «لا یموت بین امرأین من مسلمین ولدان أو ثلاثة فیصبرا ویحتسبا، فیریان النار أبداً».

وإنی سمعت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقول لنفر وأنا فیهم: «لیموتنّ رجل منکم بفلاة من الأرض یشهده عصابة من المؤمنین».

۱- ۱ نهج البلاغة: صبحی الصالح: ۱۸۸.

ص: ۲۲۲

ثم أردف قائلًا: ولیس من أولئک النفر أحد إلّامات فی قریهٔ أو بجماعهٔ. فأنا ذلک الرجل، واللَّه ما کذبت ولا کذبت، فأبصری الطریق.

فقالت: أنی وقد ذهب الحاج وتقطعت الطرق؟!

فقال: اذهبی وتبصری.

وطلب منها أن تعلو مرتفعاً من الجبل تؤشر للمارهٔ؛ کی یحضر بعضهم الیه ساعهٔ الوفاهٔ، فکانت تشدّ الی کثیب، ثمّ ترجع الی أبی ذر المحتضر.

فبینما هما علی هذه الحالهٔ وإذا برجال کأنهم الرخم تجدّ بهم رواحلهم. ورأوا هذه المضطربهٔ تلوّی بطرف ردائها إلیهم، فأسرعوا الیها حتی وقفوا علیها وهی تنادی:

یا عباد اللَّه المسلمین، یا عباد اللَّه الصالحین.

- سألوها- ما بک؟ وما تریدین؟

- هذا أبوذر صاحب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله هلک غریباً، لیس لی أحد یعیننی علیه!

- صاحب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله؟

- نعم

فنظر بعضهم بعضاً، وحدّوا اللَّه علی ما ساق الیهم واسترجعوا وقالوا: فداؤه آباؤنا وأمهاتنا.

أسرع الیه القوم وفیهم مالک الأشتر بن الحارث النخعی رضی الله عنه وأسرعوا حتی دخلو علیه.

فقال أبو ذر لهم: «ابشروا فإنی سمعت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقول لنفر وأنا فیهم:

«لیموتنّ رجل منکم بفلاهٔ من الأرض تشهده عصابهٔ من المؤمنین، ما من أولئک النفر رجل إلّاوقد هلک فی قریهٔ أو جماعهٔ، واللَّه ما کذبت ولا کذبت. أنتم تسمعون أنه لو کان عندی ثوب یسعنی کفناً لی أو لامرأتی- لم أکفن إلّافی ثوب لی أو لها.

إنی أنشدکم اللَّه إنی أنشدکم اللَّه أن لا یکفننی رجلٌ منکم کان أمیراً أو عریفاً

ص: ۲۲۳

أو بریـداً أو نقیباً، ولیس من أولئک النفر إلّاوقـد قارف ما قال، إلّافتی من الأنصار فقال: (أنا أکفنک یا عم أکفنک بردائی هـذا أو فی ثوبین فی عیبتی من غزل أمی) قـال أبو ذر (أنت تکفننی) ثم قال (بسم اللَّه وباللَّه وعلی ملـهٔرسول‌اللَّه صـلی الله علیه و آله ولفظ نفسـه الأخیر).

وهکذا انطفأ هذا المصـباح، وضاع هذا الصوت، ومات هذا البطل المجاهد العظیم استرجع القوم علی عظم المصـیبهٔ، وبکوا ثم شـرعوا فی تجهیزه، وتنافسوا فی کفنه (۱).

حتی خرج من بینهم بالسواء، وتولی غسـله مالک الأشتر وصـحبه حتی فرغوا، ولفّه مالک الأشتر فی برد یمانی کان قیمته ۴۰۰۰ درهم وصلی علیه، ودفنوه علی قارعهٔ الطریق. ثم مسح الأشتر القبر بیده وقام علیه وقال:

(اللهم هـذا أبوذر صاحب رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله عبدک فی العابدین، وجاهد فیک المشـرکین. لم یغیّر ولم یبدل، لکنه رأی منکراً فغیّره بلسانه وقلبه حتی جفی ونفی وحرم واحتقر. ثم مات وحیـداً غریباً ...) الی آخر ما قاله (۲). وکانت وفاته رضی الله عنه فی آخر ذی القعدهٔ الحرام سنه إحدی وثلاثین بعد الهجرهٔ (۳).

أمـا ابنته أو زوجته علی روایـهٔ، فقـد حملهـا القوم معهم الی المدینـهٔ وسـلّمها مالـک الأشتر الی الإمام علی ابن ابی طالب علیه السـلام معزّزهً مکرّمهً محترمهً الی ما شاء اللَّه (۴).

وأنهی أبو ذر فی سنهٔ ۳۲ ه حیاهً جلیلهً وعظیمهً کانت کلّ مفاصلها فی عین اللَّه تعالی؛ لیجد نداء الحقّ أمامه: أن تلکم الجنّهٔ اورثتموها بما کنتم تعملون.

فـدفن رضوان اللَّه علیه فی مکان علی قارعـهٔ الطریق فی الربـذهٔ وهی من قری المدینـهٔ علی ثلاثـهٔ أیام قریبـهٔ من ذات عرق علی طریق الحجاز إذا رحلت من فید ترید مکهٔ ... (۵) وقد حفرت عندها آبار وقناهٔ، وأشهر آبارها (بئر الوسیط) راح أهالی القری

۱- ۱ تنقیح المقال فی علم الرجال ۲: ۴۹ باب المیم فی ترجمهٔ مالک الأشتر.

۲- ۲ المستدرک للحاکم النیسابوری ۳: ۳۴۵.

۳- ۳ أنساب الأشراف للبلاذری ۵: ۵۶.

۴- ۴ معالم الزلفی: ۱۰۶، سیر اعلام النبلاء ۲: ۴۷- ۴۸.

۵- ۵ معجم البلدان ۳: ۲۴.

ص: ۲۲۴

المجاورة والقوافل یرتون من مائها العـذب وغرست بجوارها أشـجار النخل والرمان وغیرهما، وتعرف الیوم باسم قریة واسـطة تقع عند الکیلومتر ۱۲۶ للـذاهب من المدینـة الی جـدة أو مکة المکرمة علی حافة الطریق المبلط بالأسـفلت بانحراف قلیل عن الجادة القدیمة. تقع مدرسـتها الابتدائیة ومرکز شـرطتها وبیوت القریة وبساتینها علی جانب الطریق الأیسـر، لها سوق وبساتین ومزارع أنشئت مع امتداد الطریق، وتسقی من قناة تسمی ب (سُقیا الوسیط) ویمرّ أغلب الحجاج بهذه الناحیة ولا یعرفون عنها شیئاً (۱).

«رحم اللَّه أبا ذر یحشر وحده ویموت وحده ویبعث وحده».

هـذا ما قاله رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله حینما رآه وقـد أبطأ بعیره فی غزوة تبوک، فحمل متاعه علی ظهره، وتبع أثر الرسول صـلی الله علیه و آله ماشیاً حتی لحق به.

فسلام علیک یا أباذر فی الخالدین.

الهوامش:

۱- ۱ أبو ذر فی سطور، محمد رضا: ۱۹ بتصرف.

رسالة فى الترتيب بين أعمال الحجّ

ص: ۲۲۶

رسالة فی الترتیب بین أعمال الحجّ

محمّد حسن القدیری

الحمد للّه‌رب العالمین وصلّی اللّه علی نبیّنا محمّد وآله الطیّبین والسّلام علینا وعلی عباد اللّه الصالحین ... وبعد

من واجبات الحجّ أعمال منی، التی هی فی حجّ التمتّع عبارة عن الرمی والذّبح والحلق أو التقصیر.

ومن الواجبات المهمّة للحجّ أعمال مکّة أی الطواف وصلاته والسعی وطواف النساء وصلاته. ولکلّ من هذه الأعمال زمان ومکان، واعتبر فیها شرائط بیّنت فی محلّها مع التفصیل والاستدلال.

ومن جملة الشرائط المعتبرة فی تلک الأعمال الترتیب بین أعمال منی، والترتیب بین أعمال منی وأعمال مکّة، وحیث إنّ لاعتبار الترتیب أثراً مهمّاً وهو بطلان الحلق قبل الذّبح لو اعتبر الترتیب بینهما، ومع عدم الاعتبار یصحّ الحلق مع تأخیر الذّبح، ویخرج المحرم عن إحرامه بالحلق قبل الذّبح، فیمکن تأخیر الذبح إلی وقت یمکن حفظ الذبیحة عن التلف، أو مراعاة سائر أحکام الذّبح؛ فلذا انقدح فی بالی أن أکتب رسالة فی هذه المسألة؛ وحیث إنّ صاحب الجواهر قدس اللّه نفسه

ص: ۲۲۷

بحث فيها بنحو أوفى وأحسن قدّمت عين عبارته، وذكرت بعض المطالب بعدها، واللَّه وليّ التوفيق.

قال فى الجواهر:

ويجب تقديم الحلق أو التقصير على زيارة البيت لطواف الحجّ والسّعى بلا خلاف أجده فيه، وفى كشف اللّثام «كأنّه لا خلاف فيه» وفى المدارك «لا ريب فى وجوب تقديمهما على زيارة البيت للتأسّى وللأخبار الكثيرة» ولعلّ مراده ما تسمعه من النّصوص (۱) الآمرة بإعادته للناسى أو مطلقاً وبالشاة للعالم، لكن فى الرّياض- بعد الاعتراف بنفى خلاف ظاهر فيه فى جملة من العبائر- قال: «فإن تمّ إجماعاً وإلّا فظاهر الصحيح المتقدّم وغيره المتضمّنين للفظى (لا حرج) و (ينبغى) كالصحيح الآتى المتضمّن أيضاً للفظ «لا ينبغى»- خلافه، ولا ينافيه إيجاب الدّم فى الأخير؛ لإمكان الحمل على الاستحباب، لكن لا خروج عمّا عليه الأصحاب» ومراده بالصحيح الأوّل صحيح جميل (۲) عن الصادق عليه السلام: «أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أتاه أُناس يوم النحر، فقال بعضهم: يا رسول اللَّه، حلقت قبل أن أذبح، وقال بعضهم: حلقت قبل أن أرمى، فلم يتركوا شيئاً كان ينبغى لهم أن يقدّموه إلّاأخّروه، ولا شيئاً كان لهم أن يؤخّروه إلّاقدّموه، فقال: لا حرج».

والظاهر كما فى كشف اللّثام إنّما ينفى الإثم عن الجاهل والنّاسى أو أحدهما.

وأمّا الآخر فهو صحيح جميل أيضاً وحسنه، سأل الصادق عليه السلام «عن الرّجل يزور البيت قبل أن يحلق فقال: لا ينبغى إلّاأن يكون ناسياً، ثمّ قال: إنّ رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله أتاه اناس يوم النحر» إلى آخر ما سمعناه آنفاً، ونحوه صحيح محمّد بن حمران (۳) عنه عليه السلام أيضاً، لكن يمكن إرادة النّهى

۱- ۱ الوسائل، الباب ۵ و ۲ من أبواب الحلق والتقصير.

۲- ۲ الوسائل، الباب ۳۹ من أبواب الذّبح، الحديث ۴.

۳- ۳ الوسائل، الباب ۲ من أبواب الحلق والتقصير، الحديث ۲.

ص: ۲۲۸

منه، ولو بقرینة شهرة الأصحاب وما تسمعه من النصوص.

وعلی کلّ حال، فلو قدّم ذلک علی التقصیر عامداً جبره بشاة بلا خلاف أجده فیه، بل نسبه بعض إلی قطع الأصحاب، وإن أغفل فی بعض الکتب کمحکی المقنعة والمراسم والغنیة والکافی، ونسبه فی الدّروس إلی الشیخ وأتباعه، بل عن ابن حمزة: فإن زار البیت قبل الحلق أعاد الطواف بعده، وإن ترکه عمداً لزمه دم شاة، فیحتمل ترک الإعادة أو إرادة ترک الحلق حتّی زار، إلّاأنّ الجمیع لیس خلافاً محقّقاً، وفی صحیح ابن مسلم (۱)، عن أبی جعفر علیه السلام «فی رجل زار البیت قبل أن یحلق فقال:

إن کان زار البیت وهو عالم أنّ ذلک لا ینبغی فإنّ علیه دم شاة» وهو ظاهر فی الوجوب المقتضی لوجوب الترتیب علیه، بل هو مشعر بإرادة عدم الجواز من قول «لا ینبغی» فی غیره من النّصوص، فما سمعته من الرّیاض من إمکان إرادة ندب الدّم فیه فی غیر محلّه، نعم هو خالٍ عن ذکر الإعادة التی مقتضی الأصل نفیها أیضاً، بل فی الدّروس نسبة ذلک إلی ظاهرهم، بل عن الصیمریّ التصریح به، ولکن فیه أنّه معارض بما حکاه ثانی الشهیدین من الإجماع علی وجوب الإعادة الذی یشهد له أولویته من الناسی؛ وترک الاستفصال فی صحیح ابن یقطین (۲):

«سألت أباالحسن علیه السلام عن المرأة رمت العقبة وذبحت ولم تقصّر حتی زارت وطافت وسعت من اللّیل، ما حالها وما حال الرجل إذا فعل ذلک؟ قال:

لا بأس به یقصر ویطوف للحجّ ثمّ یطوف للزیارة، ثمّ قد أحلّ من کلّ شیء». وما قیل: من أنّ الطواف المأتی به قبل التقصیر منهی عنه فیکون فاسداً، فلا یتحقق به الامتثال وإن کان لا یخلو من نظر؛ لأعمّیّة ذلک من الشرطیّة. اللّهم إلّاأن یدعی ظهورها من الأمر بها فی نحو العبارات المرکّبة، وحینئذ یتّجه الاستدلال به علی المطلوب الذی لا ظهور فی

۱- ۱ الوسائل، باب ۲، من أبواب الحلق والتقصیر، الحدیث ۱.

۲- ۲ الوسائل، الباب ۴، من أبواب الحلق والتقصیر، الحدیث ۱.

ص: ۲۲۹

الصحيح المزبور بما ينافيه، إذ خلوّه عن ذكر الإعادة أعمّ من عدم وجوبها، لكن فى الرّياض بعد ذكر الصحيح الدّال عليها بالإطلاق، قال:

«وتنزيل هذا على ما يؤل إلى الأوّل بحمله على غير العامد، وإبقاء الأوّل على ظاهره من عدم وجوب الإعادة ليس بأولى من العكس، وإبقاء هذا على عمومه وحمل الأوّل على خلاف ظاهره، وبالجملة التعارض بينهما كتعارض العموم والخصوص من وجه يمكن صرف كل منهما إلى الآخر، وحيث لا مرجّح ينبغى الرّجوع إلى مقتضى الأصل، وهو وجوب الإعادة كما مرّ» ولا يخفى عليك ما فى ذلك. هذا كلّه فى العالم العامد.

ولو كان ناسياً لم يكن عليه شىء من دم ونحوه بلا خلاف أجده فيه للأصل وغيره، ولكن عليه إعادة الطواف على الأظهر، بل لا أجد فيه خلافاً كما اعترف به فى المدارك وغيرها؛ لإطلاق صحيح ابن يقطين السابق الذى لا ينافيه صحيح جميل السابق وغيره الذى استثنى فيه الناسى بعد عدم إشعار فيه بعدم الإعادة، بل ولا نفى الحرج فى صحيحه الآخر المراد منه عدم بطلان الحجّ كنفى البأس فى صحيح ابن يقطين.

وأمّا الجاهل فلا دم عليه للأصل المعتضد بمفهوم صحيح ابن مسلم، نعم عليه الإعادة وفاقاً لثانى الشهيدين وغيره؛ لأولويته من النّاسى، وإطلاق صحيح ابن يقطين الذى لا ينافيه الحرج فى صحيح جميل بعدما عرفت المراد منه، فما عن الشهيد من الميل إلى العدم لا يخلو من نظر.

هذا والظاهر كما فى كشف اللّثام أنّ كلّ من وجبت عليه الإعادة فإن تعمّد تركها بطل الحجّ إلّامع العذر فيستنيب وإن كان تعمّد التقديم.

كما أنّ الظاهر وجوب إعادة السعى حيث تجب إعادة الطواف، كما

ص: ۲۳۰

عن العلّامة فی التذکرة التصریح به تحصیلًا للترتیب الظاهر من الأدلّة وجوبه، وربّما کان ظاهر المتن عدمه، ولعلّه لصحیح ابن یقطین السابق الذی لا ظهور له فی ذلک.

ولو قدّم الطواف علی الذّبح أو علی الرّمی ففی إلحاقه بتقدیمه علی التقصیر وجهان: أجودهما ذلک کما فی المسالک والمدارک.

انتهی موضع الحاجة من کلام صاحب الجواهر.

قوله: والظاهر کما فی کشف اللّثام إنّما ینفی الإثم عن الجاهل والناسی أو أحدهما.

أقول:

أوّلًا: ظاهر «لا حرج» فی الصحیح أنّه لا حرج فی تقدیم ما ینبغی أن یؤخّر ولا حرج فی تأخیر ما ینبغی أن یقدّم وهذا أمر وضعی لا تکلیفی، ومعناه صحّة المتقدّم والمتأخّر، ف «لا حرج» لا ینفی الإثم بل ینفی شرطیة الترتیب.

وثانیاً: لم یفصّل فی الصحیح بین العالم والعامد، وبین الجاهل والنّاسی أو أحدهما، ولا نسلّم دعوی ظهوره فی الجاهل والناسی والانصراف بدویّ، وإطلاق الصحیح شامل للجمیع. فمحصّل الحدیث أنّ الترتیب بین أعمال منی وبین أعمال مکّة وفی نفس أعمال منی لا یکون شرطاً للصحّة، وهذا بإطلاقه قابل للانطباق علی مورد العلم والعمد أیضاً، ولا موجب لتقییده بمورد الجهل والنّسیان، نعم لو کان لسان الحدیث لسان النّهی أو ثبوت الإثم لاختصّ بمورد العلم والعمد، ولو کان لسانه نفی الإثم لاختصّ بمورد الجهل والنسیان، إلّاأنّ لسان لا حرج فی مخالفة الترتیب لسان الوضع ونتیجته الصحّة، فیشمل جمیع الموارد بالإطلاق، وعلیه یکون وجوب الترتیب مطلقاً تعبّدیاً لا شرطیاً حتی حال العلم والعمد، فیصحّ العمل وإن کان آثماً لو خالف بلا عذر. واللَّه العالم.

قوله: ولو قدّم الطّواف علی الذّبح أو علی الرّمی الخ.

ص: ۲۳۱

أقول: الدّليل إنّما هو ناظر إلى الترتيب بين الحلق والطواف، لا بين أعمال منى وأعمال مكّة، فحيث نقول بلزوم الترتيب إنّما نقول به بين الحلق والطواف لا غير.

واللَّه العالم.

قوله: كما أنّ الظاهر وجوب إعادة السعى حيث تجب إعادة الطواف.

أقول: لا دليل على لزوم الترتيب شرطاً بينهما والأصل البراءة عن الشرطية، ووجوب الترتيب الظاهر من الأدلّة على ما أفاده غير مسلّم، ومع التسليم فلا إطلاق للأدلّة بالنسبة إلى الاشتراط حتّى فى مورد العلم والعمد فإنّها فى مقام بيان حكم آخر.

قوله: لإطلاق صحيح ابن يقطين الّذى لا ينافيه صحيح جميل السّابق وغيره، الّذى استثنى فيه الناسى بعد عدم إشعار فيه بعدم الإعادة، بل ولا نفى الحرج فى صحيحه الآخر المراد منه عدم بطلان الحجّ كنفى البأس فى صحيح ابن يقطين.

أقول: الظاهر أنّ هذا الكلام مورد للتعجّب من مثله قدّس سرّه الشريف، كيف لا- تنافى بين هاتين العبارتين: «يقصّر ويطوف» فى صحيح ابن يقطين و «لا ينبغى إلّاأن يكون ناسياً» فى صحيح جميل، وكيف لا يدلّ على عدم لزوم الإعادة فى مورد النسيان. ولا سيّما بملاحظة قوله عليه السلام «لا حرج» فى ذيل الصحيحة المنطبق على الصّدر ولا أقل فى مورد النسيان، وقوله أيضاً المراد من لا حرج عدم بطلان الحجّ كنفى البأس فى صحيح ابن يقطين يُزيد فى التعجّب، ألَيس جواب رسولاللَّه صلى الله عليه و آله لسؤال الناس: «لا حرج» يدلّ على صحّة أعمالهم؟ ألَيس عدم ذكر وجوب الإعادة بعد قوله صلى الله عليه و آله: «لا حرج» مع فرض وجوبها تأخير البيان عن زمان الحاجة؟ وكيف كان، فهمى قاصر عن تصديق ما أفاده رحمه الله هنا.

والظاهر المعارضة بين صحيح جميل الدالّ على عدم لزوم الإعادة فى موارد الإخلال بالترتيب بين أعمال منى ومكة حتى فى حال العلم والعمد، وصحيح ابن

ص: ۲۳۲

یقطین الـدالّ علی لزوم إعادة الطواف مطلقاً، فلابـدّ من حمل هـذا علی الاسـتحباب جمعاً. فلا تجب الإعادة إلّاأن یكون إجماع ودون إثباته خرط القتاد.

كلام صاحب الجواهر فی ترتیب المناسک یوم النحر

قال فی الجواهر:

وكیف كـان، ترتیب هـذه المناسـک واجب یـوم النّحر، والرمی ثم الذّبـح ثم الحلـق كمـا فی النـافع والقواعـد، بـل ومحكی النهـایة والمبسوط والاسـتبصار، وظـاهر المقنع فی الاخیرتین، بل نسـبه غیر واحـد إلی أكثر المتأخّرین؛ لقوله تعالی (۱): ولا تحلقوا رؤوسكم حتّی یبلغ الهدی محلّه وللتأسّی مع قوله (۲) صـلی الله علیه و آله: «خذوا عنّی مناسـككم» وقول الصّادق علیه السـلام فی خبر عمر بن یزید (۳): «إذا ذبحت أضحیتک فاحلق رأسک واغتسل وقلّم أظفارک وخذ من شاربک» وفی خبر جمیل (۴): «تبدأ بمنی بالذّبح قبل الحلق». وفی صحیح معاویة بن عمار أو حسنه (۵): «إذا رمیت الجمرة فاشتر هدیک». وفی خبر أبی بصیر (۶): «إذا اشتریت أضحیتک وقمطتها فی جانب رحلک فقـد بلغ الهـدی محلّه، فإن أحببت أن تحلق فاحلق» وإن كان هو دالًّا علی قیام ربطها فی رحله مقام الذّبح، ونحوه أخبار (۷).

وفی موثّق عمّار (۸) عنه علیه السـلام أیضاً: «سألته- إلی أن قال-: وعن رجل حلق قبل أن یذبـح، قال: یذبـح ویعید الموسـی «لأنّ اللَّه تعالی یقول:

ولا تحلقوا رؤوسكم حتّی یبلغ الهدی محلّه» وخبر سعید السّمان (۹)

«سـمعت أبـا عبـداللَّه علیه السـلام یقول: إنّ رسول‌اللَّه صـلی الله علیه و آله عجـل النساء لیلًا من المزدلفـة إلی منی، فأمر من كان علیها منهنّ هدی أن ترمی ولا تبرح حتّی تذبح، ومن لم یكن علیها منهنّ هدی أن تمضی إلی مكّة حتّی تزور».

۱- ۱ سورة البقرة: الآیة ۱۹۲.

۲- ۲ تیسیر الوصول ۱: ۳۱۲.

۳- ۳ الوسائل، الباب ۱، من أبواب الحلق والتقصیر، الحدیث ۱.

۴- ۴ الوسائل، الباب ۱، من أبواب الذّبح، الحدیث ۳.

۵- ۵ المصدر السابق ح ۱.

۶- ۶ المصدر السابق ح ۷.

۷- ۷ الوسائل، الباب ۳۹، من أبواب الذّبح، الحدیث ۷ بطریقین آخرین.

۸- ۸ الوسائل، الباب ۳۹ من أبواب الذّبح الحدیث ۸.

۹- ۹ الوسائل، الباب ۱۷، من أبواب الوقوف بالمشعر، الحدیث ۵.

ص: ۲۳۳

وصحیح أبی بصیر (۱)عنه علیه السلام أیضاً، قال: «سمعته یقول: لا بأس أن تقدّم النساء إذا زال اللّیل فیقفن عند المشعر الحرام ساعة، ثم ینطلق بهنّ إلی منی فیرمین الجمرة، ثم یصبرن ساعة، ثم یقصّرن وینطلقن إلی مکة فیطفن، إلّاأن یکن یردن أن یذبح عنهنّ، فإنّهن یوکّلن من یذبح عنهنّ» وصحیح سعید الأعرج (۲) «قلت لأبی عبداللَّه علیه السلام: جعلت فداک معنا نساء فأفیض بهنّ بلیل؟ فقال: نعم- إلی أن قال-: افض بهنّ حتّی تأتی الجمرة العظمی فیرمین الجمرة، فإن لم یکن علیهن ذبح فلیأخذن من شعورهنّ ولیقصّرن من أظفارهنّ».

وخبر موسی بن القاسم (۳) عن علیّ علیه السلام قال: «لا یحلق رأسه ولا یزور البیت حتّی یضحّی فیحلق رأسه ویزور متی شاء». وصحیح عبداللَّه بن سنان (۴)، سأل الصادق علیه السلام «عن رجل حلق رأسه قبل أن یضحّی، قال: لا بأس، ولیس علیه شیء ولا یعودنّ» بناءً علی إرادة الحرمة من النّهی عن العود وعدم الإعادة منه نفی البأس، کما ستعرف إن شاء اللَّه.

وعلی کلّ حال فلا إشکال فی ظهور مجموع ما ذکرناه من الآیة والروایة فی وجوب الترتیب فی الثلاثة، خلافاً للمحکیّ من الخلاف والسرائر والکافی ومن عدم الوجوب، وعن الأوّلین استحبابه کما عن المختلف، ومال إلیه بعض متأخّری المتأخّرین؛ للأصل وصحیح جمیل السابق المشتمل علی نفی الحرج، الذی قد عرفت احتمال إرادة الإجزاء منه وحال الجهل والنسیان والضرورة ونفی الفداء ونحوه، بل مال إلیه فی الریاض مرجّحاً لاحتمال حمل الأوامر المزبورة علی النّدب علی احتمال غیره بالأصل، وخبر أحمد بن محمّد بن أبی نصر (۵) «قلت لأبی جعفر الثانی علیه السلام: جعلت فداک إنّ رجلًا من أصحابنا رمی الجمرة یوم

۱- ۱ المصدر السابق، ح ۷.

۲- ۲ الوسائل، الباب ۱۷، من أبواب الوقوف بالمشعر، الحدیث ۲.

۳- ۳ الوسائل، الباب ۳۹، من أبواب الذبح، الحدیث ۹.

۴- ۴ المصدر السابق، ح ۱۰.

۵- ۵ المصدر السابق، ح ۶.

ص: ۲۳۴

النّحر وحلق قبل أن يذبح، قال: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله لما كان يوم النحر أتاه طوائف من المسلمين، فقالوا: يا رسول اللّه ذبحنا من قبل أن نرمی، وحلقنا من قبل أن نذبح. فلم يبق شیء ممّا ينبغی لهم أن يقدّموه إلّا أخّروه ولا شیء ممّا ينبغی لهم أن يؤخّروه إلّاقدموه، فقال: لا ـ حرج. بل وغيره من الأخبار، ومصير أكثر العامّة كما فی المنتهی إلی الوجوب، قال: فيترجّح بهما الاستحباب وإن تساوی الجمعان. والتأسّی إنّما يجب لو لم يظهر الاستحباب من الخارج، مضافاً إلی أولوية حمل صحيح النّهی عن العود علی الكراهة ممّا عرفت؛ لظهور نفی البأس فی جواز الترك، ولذا استدلّ به الفاضل فی المختلف عن النّدب، إلّاأنّ الجميع كما تری، خصوصاً مع تصريح الآية بالبعض مع عدم القول بالفصل، وخصوصاً مع الشهرة وغير ذلك.

وكيف كان، فلو قدّم بعضاً علی بعض عالماً عامداً أثم قطعاً ولا إعادة بلا خلاف محقّق أجده فيه، بل فی المدارك أنّ الأصحاب قاطعون به، وأسنده فی المنتهی إلی علمائنا مؤذناً بدعوی الإجماع عليه، وحينئذٍ يكون الوجوب المزبور تعبديّاً لا شرطياً، ولعلّه المراد من صحيح ابن سنان السابق المشتمل علی نفی البأس والنهی عن العود لمثل ذلك، بل ونصوص نفی الحرج وإن لم يكن قد صرّح فيها بالعمد، والأمر بامرار الموسی بعد الذبح لمن قدم الحلق محمول علی ضرب من الندب، فما فی المدارك- من إشكال ذلك بأنّها محمولة عند القائل بوجوب الترتيب علی الجهل والنسيان وإلّا لم يجب الترتيب- فی غير محلّه، وان صدر من بعضهم ذلك، ووجوب الترتيب أعمّ من شرطيّته، كما ان ما فيها وفی غيرها من إشكال الحكم المزبور بأنّه مناف لقاعدة عدم الإتيان بالمأمور به علی وجهه المقتضية وجوب الإعادة كذلك أيضاً،

ص: ۲۳۵

ضرورة عـدم الشـرطيّة على التقدير المزبور جمعاً بين الأدلّة، بل لعلّ المراد من قوله عليه السـلام «لا حرج» الإشارة إلى قوله تعالى: وما جعـل عليكم فى الـدين من حرج الـذى منه التكليف بالإعادة، فحينئـذٍ يكون الترتيب واجباً مسـتقلًا لا شـرطاً، فالفاعل ممتثل فى أصـل الفعـل وإن عصـى فى عكس الترتيب، وعلى كـلّ حـال فمـا عن أبى على- من أنّ كلّ سائق هـدياً واجباً أو غيره يحرم عليه الحلق قبل ذبحه، ولو حلق وجب دم آخر- محجوج بما عرفت إن أراد عـدم الإجزاء إذا خولف الترتيب، وقـد يحتمل الكفّارة، فلا خلاف حينئذ، واللَّه العالم.

انتهى موضع الحاجة من كلام صاحب الجواهر.

قوله: وقول الصادق عليه السلام فى خبر عمر بن يزيد إلى آخر ما ذكره من الأخبار.

أقول: الإنصاف أنّ ظهور الأقوال والأخبار فى وجوب الترتيب فى أعمال منى غير قابل للإنكار.

ولكنّ الوجوب الشـرطى منفى بصـحيحة جميل، وقد مرّ بيانه تفصـيلًا فى المسألة السابقة ويبيّنه بعد ذلك بعد قول المحقّق قدس سـره: فلو قدّم بعضاً على بعض أثم ولا إعادة. فلاحظ.

قوله: لقوله تعالى: ولا تحلقوا ... الخ.

أقول: الآيـة الكريمـة واردة فى مقام بيان حكم الحصـر «وإن أحصـرتم» وهـذا لا يدلّ على حكم أعمال منى ولزوم الترتيب بينها، ومن هـذا يظهر عـدم تماميّة الاسـتدلال بموثّق عمّار: سألته- وعن رجل حلق قبل أن يذبح، قال: يذبح ويعيد الموسـى؛ لأنّ اللَّه تعالى يقول: ولاـ تحلقوا رؤوسـكم حتّى يبلغ الهـدى محلّه، فـإنّ التعليـل بالآيـة الواردة مورد بيـان حكم الحصـر يـدلّ على أنّ السؤال والجواب فى الرواية عن وظيفة المحصور. فلا يمكن الاستدلال بالرواية أيضاً للزوم الترتيب بين الذّبح والحلق فى أعمال منى فى غير مورد الحصر.

ص: ۲۳۶

قوله: وللتأسّی مع قوله صلی الله علیه و آله «خذوا عنّی مناسککم».

أقول: لو سلّم تمامیة هذا الدلیل للزوم اتّباع فعل النبیّ صلی الله علیه و آله فی المناسک ولا نسلّم؛ لأنّ الفعل أعمّ من الوجوب والنبیّ صلی الله علیه و آله یعمل بالمستحبّات فیها قطعاً، ولا دلالة لما ذکر أی «خذوا عنّی مناسککم» للزوم اتباع فعله صلی الله علیه و آله فی المناسک حتّی یقال: بأنّ الأصل فی فعله صلی الله علیه و آله هنا الوجوب إلّاما خرج بالدّلیل.

فمع ذلک لا یتمّ هذا الدلیل فی مسألة الترتیب فإنّ المدّعی دلالة الدلیل علی عدم لزوم الترتیب، فلابدّ من البحث فی ذلک.

خلاصة الکلام

إنّ المستفاد من الکلمات خصوصاً الجواهر هو أنّه لا وجوب شرطی للترتیب فی أعمال منی، ونسب ذلک إلی المشهور بل أزید، ولو فرض وجوبه فهو وجوب تعبّدی، بل ذهب بعض إلی استحبابه، ولکن الترتیب بین الحلق وأعمال مکّة اعتبروه شرطاً خصوصاً حال العلم والعمد، وعلیه فلو أنّ شخصاً حلق بعد الرّمی وأخّر الذّبح یوماً أو أکثر فلا إشکال فی الصحّة علی المشهور المنصور، بل ادّعی عدم الخلاف فی ذلک کما هو الظاهر من کلام فقیه أهل بیت العصمة صاحب الجواهر رضوان اللّه علیه، وعلی تقدیر الوجوب فالمخالفة تکلیفیة؛ التی تسقط عند العذر، وأیّ عذر أوجه من تلف الهدی لو لم یؤخّر الذبح؟ ومع التأخیر یمکنه إعطاء الهدی للفقراء. وبناءً علیه فمع عدم کون الإخلال مضرّاً بصحّة العمل لا إشکال تکلیفیاً أیضاً.

هذا کلّه علی المشهور فی الترتیب وهو المنصور أیضاً بالنسبة إلی نفس أعمال منی، وأمّا بین أعمال منی وأعمال مکّة فبحسب الصناعة الوجوب تکلیفی أیضاً، وان لم یکن مشهوریاً فی صورة العلم والعمد. والأحوط ما علیه المشهور. وأمّا فی مورد الجهل والنّسیان فلیس الوجوب شرطیاً، واللّه العالم.

ص: ۲۳۷

ونؤيّد ما مرّ بما ذكره الشيخ الأعظم الأنصارى قدس سره فى مناسكه وآية اللَّه البهجة فى الحاشية وما أفتى به السيّد القائد.

قال الشيخ قدس سره: «اعلم أنّ الترتيب بين الرمى والذبح والحلق واجب على الأشهر الأحوط، ولكن إذا خالف فقدّم الثانى على الأوّل أو قدّم الثالث على الثانى أو الأوّل فإن كان ذلك عن نسيان فلا يضرّ، وأمّا إن كان عن عمد فالمشهور عدم وجوب الإعادة، وفى دليلهم تأمّل، فلا يترك الاحتياط إن أمكنه ذلك».

وذكر آية اللَّه البهجة فى الحاشية «الأظهر تمامية قول المشهور».

وجاء فى مناسك السيِّد القائد:

مسألة ۲۸۶: يجب فى يوم العيد رمى جمرة العقبة أوّلًا ثم الذبح ثم التقصير أو الحلق، فإن أخلّ عمداً بالترتيب المذكور كان عاصياً، ولكن لا يجب عليه إعادة الأعمال مرتَّبة على الظاهر، وإن كانت الإعادة مع التمكّن موافقة للاحتياط، وكذا الحكم فى صورتى الجهل والنسيان.

والحمد للَّهربّ العالمين

الهوامش:

ص: ٢٣٩

وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ

محسن الأسدى

واحدة من آيات ثلاث ذكرت الطواف الذى هو من أعظم وأفضل مناسك الحجّ- على عظمتها وفضيلتها- أجراً وثواباً وأكثرها أحكاماً وآداباً وتفصيلًا:

وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِى لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١)

وَطَهِّرْ بَيْتِى لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢)

والآية التى نحن بصدد الوقوف عندها هى الثالثة:

وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣)

.

وفقرتها الأولى وليطّوفوا...

هى محور مقالتنا هذه من الناحيتين التفسيريّة والفقهيّة.. لنصل بعد ذلك إلى واحد من الأطوفة المهمّة عند الإماميّة وهو طواف النساء الذى سينصبّ أكثر بحثنا عليه.. فيما ستكون فقرتها الثانية... بالبيت العتيق محلّ بحث آخر إن شاء اللَّه تعالى.

وليطّوفوا...

الاعراب:

وليطوّفوا: معطوف بالواو على فعل مضارع مجزوم بلام الأمر قبله

١- ١ البقرة: ١٢٥.

٢- ٢ الحجّ: ٢٦.

٣- ٣ الحجّ: ٢٩.

ص: ۲۴۰

وهو ليقضوا، فحذفت نونه لأنّها علامة جزمه وهو من الأفعال الخمسة يطوفون. والواو فاعله، والألف للتفريق. ثمّ هو نفسه أيضاً مجزوم بلام الأمر الداخلة عليه.

القراءة:

قرأ بعضهم- وهو المشهور- اللام فی الكلمات الثلاث الواردة فی هذه الآية: ... ثمّ لْيَقْضوا ... ولْيُوفُوا .. ولْيَطَوّفوا .. بإسكان لام الأمر فی جميعها.

فيما قرأ آخرون: وليوفوا ..، وليطوفوا .. بكسر اللام فيهما (۱).

الطواف لغةً:

طاف حول الشیء وبالشیء طوفاً وطوافاً وطوَفاناً دار حولَه.

والجمع: الأطواف.

وطوّف حول الشیء وبه تطويفاً وتَطوافاً، وتَطوّف تطوّفاً واطَّوَّفَ اطّوافاً ..

واستطاف استطافةً طاف وأكثر المشی حوله، وطوّف فلاناً. طاف به.

وأطاف بالشیء إطافةً ألمَّ به وقاربه.

قال بشرٌ:

أبو صبيةٍ شُعثٍ يُطيفُ بشخصهِ كوالحُ أمثالُ اليعاسيب ضُمَّرُ

والطَوَاف: مصدر. ورجل تطوّف: أی طاف. ورجل طافٌ أی كثير الطوَّاف، وطوّف أی أكثر الطواف وطافبالبيتوأطاف عليه: دار حوله.

قال أبو خراش:

تُطيفُ عليه الطيرُ وهو ملحّبٌ خلافَ البيوتِ عند محتملِ الصُّرْمِ

الطواف: أصله المشی أو مشی فيه استدارةً. طاف حول الكعبة وبها يطوف طوفاً وطوافاً وطوفاناً ومطافاً وطوّف وطاف يطيف وتطوّف واطّوّف واستطاف: استدار بها وطوّف: أكثر الطواف. والمطاف:

موضع الطواف. ورجل طاف: كثير الطواف (۲). وهو من أعمال الحجّ والعمرة.

فالطوافُ: الدوران بالشیء من جوانبه. يقول تعالی: وليطوّفوا بالبيت العتيق. والمطافُ: موضع الطواف حول الكعبة وغيرها (۳).

۱- ۱ معجم القرآءات القرآنية ۴: ۱۷۸.

۲- ۲ انظر الافصاح فی فقه اللغة ۲: ۱۱۷۷. لسان العرب لابن منظور ۹: ۲۲۵ طوف. محيط المحيط، المعلم بطرس البستانی: ۵۶۰ طوف.

۳- ۳ المصدر نفسه.

ص: ۲۴۱

الطواف اصطلاحاً

وشرعاً فهو وجوب الدوران سبعة أشواط حول البيت (الكعبة المشرّفة) تعظيماً لها وامتثالًا لأمره تعالى فى ذلك بدليل الآية المذكورة والسنّة النبويّة: «خذوا عنّى مناسككم». والنصوص والإجماع.

ابتداءً من الحجر الأسود وانتهاءً به وفق ضوابط وشروط مذكورة فى كتب الفقه عند جميع الفرق الإسلامية .. ليشكل بذلك منسكاً عظيماً من مناسك فريضة الحج وركناً من أركانها الستّة: «النيّة والإحرام والوقوف بعرفات والوقوف بالمشعر والطواف والسعى» وسواء أكان الحج حجّ تمتّع أو إفراد أو قران.

وركناً- أيضاً- من أركان العمرة «النية والإحرام والطواف والسعى» سواءً أكانت عمرةمفردةأو عمرة التمتّع.

*** وقد ذكروا للطواف أنواعاً:

عند المذاهب الأربعة

۱- طواف القدوم: يستثنى منه أهل مكّة ومن هم فى ضواحيها؛ لعدم صدق القدوم إلى مكّة عليهم، كما أنّه لا يسنّ للحاج بعد الوقوف بعرفة ولا- للمعتمر لأنّه دخل وقت طوافهما المفروض، فيما هو سنّة عند جمهور فقهائهم لكلّ حاج دخل مكّة المكرّمة أى الآفاقى وهو غير المكّى، قبل الوقوف بعرفة سواء أكان هذا الحاج مفرداً أم قارناً.

إذاً هو مستحب فى مذاهبهم ويشبه ركعتى التحية للمسجد وهو هنا تحية للبيت لا للمسجد. ولهذا سمّى طواف التحية، استحبابه متّفق عليه عند الشافعية والحنبلية والحنفية، أمّا المالكية فقد تفرّدوا بقولهم: إنّ على تارك هذا الطواف دماً.

يقول الزحيلى:

فيسقططواف القدوم عن ثلاثة:

المكى ومن فى حكمه وهو من كان منزله دون المواقيت.

المعتمر والمتمتع ولو آفاقياً.

ومن قصد عرفة رأساً للوقوف.

ونقل قول المالكية: إنّ طواف

ص: ۲۴۲

القدوم يجب على من أحرم من الحلّ ولو كان مكياً، وتجب الفدية على من قصد عرفة وترك طواف القدوم وكان الوقت متسعاً.

وقالوا أيضاً: يطوف المتمتع للقدوم قبل طواف الإفاضة ثمّ يطوف طواف الإفاضة.

أمّا الحكمة منه: فيقول: إنّ الطواف تحية البيت لا المسجد، فيبدأ به لا بصلاة تحية المسجد؛ لأنّ القصد من إتيان المسجد البيت، وتحيته الطواف.

وذكر له أحكاماً وآداباً متعدّدة .. (۱)ومن أسمائه الأخرى التى ذكروها:

طواف التحية للسبب الذى ذكر.

وطواف القادم. طواف الورود لورود الحاج مكة أو الوارد.

۲- طواف الزيارة: باتفاق جميع الفقهاء من الفريقين أنه ركن لا يتمّ الحج بدونه ويفوت بفواته. وأنّه إن ترك لا يجزئ عنه دم للآية الكريمة:

وليطوّفوا بالبيت العتيق. ولما ورد عن أمّ المؤمنين عائشة: «حججنا مع النبىّ صلى الله عليه و آله فأفضنا يوم النحر، فحاضت صفية، فأراد النبىّ صلى الله عليه و آله منها ما يريد الرجل من أهله، فقلت: يارسول اللَّه، إنّها حائض، قال: أحابستنا هى؟

قالوا: يارسول اللَّه، إنّها قد أفاضت يوم النحر، قال: اخرجوا» (۲).

يقول الزحيلى بعد ذكره لهذه الرواية: فمن ترك طواف الزيارة، رجع من بلده متى أمكنه محرماً، لا يجزئه غير ذلك، لقصة صفية المتقدّمة، فإنّه صلى الله عليه و آله قال بعد أن حاضت:

«أحابستنا هى؟ قيل: إنّها قد أفاضت يوم النحر، قال: فلتنفر إذاً».

فهذا يدلّ على أنّ هذا الطواف لابدّ منه، وأنّه حابس لمن لم يأت به، فإن نوى التحلل ورفض إحرامه، لم يحل بذلك؛ لأنّ الإحرام لا يخرج منه بنيّة الخروج. وعلى هذا فإذا فات طواف الإفاضة عن أيّام النحر لا يسقط، بل يجب أن يأتى به؛ لأنّ سائر الأوقات وقته.

۱- ۱ الزحيلى ۳: ۱۴۴- ۱۴۶ الفقه الإسلامى وأدلّته.

۲- ۲ نيل الأوطار ۵: ۸۸ متفق عليه.

ص: ۲۴۳

ومع أنّه ركن فی جمیع المـذاهب بالإجماع، إلّاأنّ أبا حنیفـهٔ مع کونه واجباً رکناً عنـده إلّاأنّه فرّق بین أشواطه السـبعهٔ، فجعل الأشواط الأربعهٔ منها شرطاً والثلاثهٔ الأخیرهٔ واجباً.

وأیضاً له أسماء عندهم:

فهو یسمّی بطواف الزیارهٔ؛ لأنّ الحاج یأتی مکهٔ زائراً لا مقیماً فیها، فمبیته فی منی.

وسمّی بطواف الإفاضهٔ؛ لأنّ الحاج- سواء أکان مکیاً أو آفاقیاً- یأتی به عند إفاضته من منی إلی مکّهٔ، وهو من أعمال مکهٔ.

وسـمّی بطواف الرکن؛ لأنّه رکن لا یتمّ الحجّ إلّابه وهو محل اتّفاق جمیع الفقهاء، وأیضاً- لهذا السبب- یسمّی بطواف الحج وبطواف الفریضهٔ.

۳- طواف الوداع أو طواف الصـدر وهو آخر طوافٍ بالبیت سـمّی بـذلک لأنّ الحاج یودع البیت ویصـدر عنه عائـداً إلی أهله ووطنه، وقال الحنفیهٔ والحنابلهٔ بوجوبه إذا ترکه الحاج یلزمه دم فقط فیما قالت المالکیهٔ:

إنّه مستحبّ. أمّا الشافعی فله قولان فیه: الوجوب، الاستحباب.

عند الإمامیهٔ:

هناک أطوفهٔ واجبهٔ عند الإمامیّهٔ وأخری مستحبّهٔ:

أمّا الواجبهٔ فهی أربعهٔ:

۱- طواف عمرهٔ التمتّع وهو واجب ورکن فیها تبطل بترکه عمداً.

۲- طواف الحجّ ویسمّی طواف الزیارهٔ وهو واجب ورکن یبطل الحجّ بترکه عمداً.

۳- طواف النساء، واجب فی الحجّ وفی العمرهٔ المفردهٔ ولیس رکناً فیهما.

۴- طواف العمرهٔ المفردهٔ واجب ورکن فیها تبطل بترکه عمداً.

أمـا المسـتحبّهٔ فهی کثیرهٔ حتّی ورد أنّه یسـتحبّ للحـاجّ أن یطوف عشـرهٔ أسـابیع فی کـلّ یوم ولیلـهٔ، بل ورد أنّه «یسـتحبّ أن یطوف ثلاثمائهٔ وستّین اسبوعاً علی عدد أیّام السنهٔ،

ص: ۲۴۴

فإن لم تستطع فثلاثمائة وستّين شوطاً، فإن لم تستطع فما قدرت عليه من الطواف» (۱).

فمع استحباب الاكثار من الطواف بالبيت إلّاأنّ هناك أطوفة أكّد استحبابها وعظم ثوابها، منها:

۱- طواف القدوم: مستحب يجوز تركه.

۲- طواف الوداع: مستحب هو الآخر، وإن قيل بأنّه يجزى عن طواف النساء إلّاأنّ هذا يفتقر إلى دليل معتبر لإجزائه عن الواجب الآخر وهو طواف النساء. نعم هناك خبر إسحاق ابن عمّار وهو الخبر الوحيد بهذا الخصوص، الذى أفتى على ضوئه على ابن بابويه على ما حكى ذلك عنه فى الجواهر وفى الحدائق (۲)، والذى يدلّ بظاهره على كفاية طواف الوداع عن طواف النساء. وابن الجنيد سمّى طواف النساء.. طواف الوداع وأوجبه (۳).

فعن موسى بن القاسم عن عبداللَّه بن سنان عن إسحاق بن عمّار عن أبى عبداللَّه عليه السلام قال: لولا ما منَّ اللَّه به على الناس من طواف الوداع؛ لرجعوا إلى منازلهم ولا ينبغى لهم أن يمسّوا نساءَهم .... (۴) وهو ما جاء فى التهذيب ۵: ۲۵۳/ ۸۵۶.

وهو خبر مردود لأنّه:

أوّلًا: ورد فى الكافى ب (طواف النساء) وليس بطواف الوداع، والكافى أقدم من غيره. فعن عبداللَّه ابن سنان عن اسحاق بن عمار عن أبى‌عبداللَّه عليه السلام قال: لولا ما منّ اللَّه عزّوجلّ على النّاس من طواف النساء لرجع الرجل إلى أهله وليس يحلّ له أهله.

وفى هامش هذه الرواية فى الكافى ذكر أنّ معناها: ظاهر والأظهر طواف الوداع بدل طواف النساء كما فى التهذيب والفقيه. وتوجيهاً منه لهذه الرواية راح يذكر: أنّ العامّة وإن لم يوجبوا طواف النساء.. إلّاأنّ طوافهم ينوب مناب طواف النساء وبه تحلّ لهم النساء وهذا بما منّ اللَّه تعالى به عليهم.. أو المراد من نسى طواف

۱- ۱ وسائل الشيعة ۱۳: ۳۰۸.

۲- ۲ الحدائق الناضرة ۱۶: ۱۸۵.

۳- ۳ انظر فتاوى ابن الجنيد: ۱۳۹.

۴- ۴ وسائل الشيعة ۱۳: ۲۹۹، ح ۳.

ص: ۲۴۵

النساء وطاف طواف الوداع فهو قائم له مقامه بفضل اللّه فی حلّ النساء ولزمه التدارک (۱).. وإن کانت هذه مجرّد استحسانات.. لا دلیل معتبر علیها.

ثانیاً: ضعیف السند. وفیه تأمّل.. حیث قال فی الحدائق: إنّ فی إسحاق بن عمار قولًا (۲). ولعلّ هذا لکونه فطحیاً أو لأنّ هناک من قال: فالأولی عندی التوقّف فیما ینفرد به.

علماً بأنّه من أصحاب الصادق والکاظم وهو ثقة وأصله معتمد..

وقال عنه النجاشی: کان شیخاً من أصحابنا ووثّقه ابن شهر آشوب أیضاً .. فإسحاق بن عمار سواء قلنا بأنّه واحدٌ أو قلنا بأنّه متعدّد أیّ الصیرفی أو الساباطی.. فهو- فیما تیسّر لی- لا شک فی أنّه ثقة باتّفاق علماء الرجال (۳).

ثالثاً: معارض من قبل الروایات الأخری الدالّة صراحة علی وجوب طواف النساء.

رابعاً: یخالف ما عمل به المشهور وما أجمع علیه من وجوب طواف النساء لا طواف الوداع الذی هو مستحب عندهم.

وهناک روایة لم یعمل بها الفقهاء لأنّها مرسلة، فقد روی فیمن نسی طواف النساء أنّه إن کان طاف طواف الوداع فهو طواف النساء (۴)***

بعد کلّ هذا نأتی إلی ما یقوله المفسِّرون والفقهاء بخصوص الطواف المأمور به فی الآیة: ولیطوفوا أمر بالطواف بالبیت بل فیه توکید ومبالغة أی جاء الأمر بالطواف والمبالغة فیه والاکثار منه، بعدما تطهروا فی منی وبعدما وفوا بنذورهم... ثمّ لیقضوا تفثهم ولیوفوا نذورهم .. وقد انتهی احرامهم وجاءوا إلی البیت الحرام لأداء باقی المناسک وقد حلّ لهم کلّ شیء بالحلق إلّامسّ النساء والطیب وهذا الأخیر یحلّ بطواف الزیارة، وأمّا حلیة النساء فلا تتمّ إلّابطواف النساء وهو ما علیه الإمامیة وتفرّدت به دون الفرق الأخری التی یحلّ

۱- ۱ الکافی ۴: ۵۱۳، الهامش.

۲- ۲ الحدائق الناضرة ۱۶: ۱۸۵.

۳- ۳ أنظر جامع الرواة ۱: ۸۲، والخلاصة للعلّامة الحلّی: ۳۱۷- ۴۱۸ و خاتمة الوسائل ۳۰: ۳۷ وغیرها من کتب الرجال.

۴- ۴ وسائل الشیعة ۱۳: ۴۰۸.

ص: ۲۴۶

لحجّاجها كلّ شيء حرّم عليهم بالنحر وبعد إتمام الحجّ بالطواف الواجب طواف الزيارة.

يقول الشيخ مغنية في تفسيره:

وقد ذكر اللَّه سبحانه وتعالى الطواف في صيغة المبالغة حيث يستحب الإكثار منه، كما يستحبّ الإكثار من الصلاة، فلقد اشتهر عن نبيّ الرحمة صلى الله عليه و آله أنّه قال: «الطواف بالبيت صلاة» (۱).

وفي وصفه لهذا الطواف، بعد أن تطهر الحاج في منى من ذنوبه ومن قبلها في المزدلفة وعرفات وممّا تحيطه من أدران وأوساخ ... وحلّ له كثيرٌ ممّا حرّم عليه بعد إحرامه، يقول القشيري صاحب كتاب لطائف الإشارات:

فيبدأ الطواف بالبيت حيث يطوف بنفسه حوله وبقلبه في ملكوت السماء، وبسرّه في ساحات الملكوت (۲) ..

الطواف المراد بالآية:

وقد اختلفت آراء المفسّرين والفقهاء حول الطواف المراد بهذه الآية فبعضهم وقف في مرادها عند الواجب فيما ذهب فريق آخر إلى أنّ المراد الطواف الواجب والمستحب..

السنّة:

فبعد قوله في تفسير هذه الآية: ... وبالنحر ينتهي الإحرام فيحلّ للحاج حلق شعره أو تقصيره، ونتف شعر الابط، وقصّ الأظافر والاستحمام، ممّا كان ممنوعاً عليه في فترة الإحرام، وهو الذي يقول عنه:

ثمّ ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم التي نذروها من الذبائح غير الهدى الذي هو من أركان الحجّ.

يقول سيد قطب بخصوص آيتنا المذكورة: وليطوّفوا بالبيت العتيق طواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفات، وبه تنتهي شعائر الحجّ، وهو غير طواف الوداع (۳).

أمّا الزحيلي فبعد أن يقول: ثمّ أمر بالنظافة وإيفاء النذر والطواف فقال: ثمّ ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق هذه أوامر بواجبات ثلاثة على سبيل الإيجاب، أي ليزيلوا الأوساخ من على أجسادهم بقصّ الأظفار وحلق

۱- ۱ تفسير الكاشف لمحمد جواد مغنية في تفسير الآية ۲۹ من سورة الحج.

۲- ۲ لطائف الإشارات ۲: ۵۴۰.

۳- ۳ في ظلال القرآن ۴: ۲۴۲۰ في تفسير الآية ۲۹ من سورة الحج.

ص: ۲۴۷

الأشعار ونحوه من الأغسال، وليوفوا نذورهم التي نذروها تقرّباً إلى اللّه تعالى من أعمال البرّ. والنذر: كلّ ما لزم الإنسان أو التزمه. ذكر أنّه:

وليطوّفوا طواف الركن أو الإفاضة، وقبل طواف الوداع، بالبيت العتيق أي القديم، فهو أقدم بيت للعبادة (۱).

وينتهي الزحيلي أخيراً إلى أن قوله تعالى: وليطوفوا .. يدلّ على لزوم هذا الطواف، والمراد به طواف الإفاضة الذي هو من واجبات الحج، وينقل قول الطبري أنه: لا خلاف بين المتأولين في ذلك (۲).

ثمّ راح يردّ على من يقول: إنّه طواف الوداع- وهو ما احتمله ابن عطيّة كما ذكره صاحب تفسير البحر المحيط الذي كان يذهب إلى أنّه طواف الزيارة وهو ركن والذي به تمام التحلّل (۳)- أمّا القول بأنّه طواف الوداع (الصدر) فهو بعيد؛ لأنّ الطواف الذي يلي قضاء التفث إنّما هو طواف الإفاضة، فلا مناسبة هنا لطواف الوداع (۴).

وبعد أن يذكر أنواع الأطوفة عند الفرق الإسلامية الأربعة ينتهي إلى أن طواف الإفاضة فرض وركن لا يتمّ الحجّ إلّابه بالاتفاق؛ لقوله تعالى:

وليطوّفوا بالبيت العتيق (۵).

يقول الرازي حول هذه الآية في تفسيره الكبير: إنّ المراد الطواف الواجب وهو طواف الإفاضة والزيارة (۶). وهو ما عليه القرطبي كما في أحكامه حيث يقول: هو طواف الإفاضة الذي هو من واجبات الحجّ (۷)، وقد نفى الطبري في تفسيره الخلاف فيه كما ذكرناه آنفاً (۸).

وقد نفى الجصاص في أحكامه أن يكون الطواف المذكور في الآية غير طواف الحج: وليطوفوا بالبيت العتيق فالطواف المذكور هو طواف الحج لا غيره وهو طواف ركن لا واجب فقط يبطل الحج بتركه بنصّ هذه الآية، ولا يمكن الاستناد إليها على وجوب الأطوفة الأخرى عند الفريقين، فيبقى الطواف الواجب بنص القرآن الكريم هو طواف الحج الذي

۱- ۱ التفسير المنير. الدكتور الزحيلي ۱۷: ۱۹۷.

۲- ۲ التفسير المنير. للدكتور الزحيلي ۱۷: ۲۰۲.

۳- ۳ انظر تفسير البحر المحيط لابن حيّان الأندلسي ۶: ۳۳۹.

۴- ۴ التفسير المنير. للدكتور الزحيلي ۱۷: ۲۰۳.

۵- ۵ التفسير المنير ۱۷: ۲۰۳.

۶- ۶ التفسير الكبير للرازي. الآية.

۷- ۷ أحكام القرآن للقرطبي في تفسير الآية.

۸- ۸ تفسير الطبري، الآية.

ص: ۲۴۸

يسمّى طواف الزيارة أو طواف الإفاضة أو ..

ثمّ إنّ بعد أعمال يوم النحر فى منى، لا طواف واجب يكتمل به الحج إلّا طواف الحج هذا المذكور فى الآية.

كما راح يذكر: أنّ هناك من صرف هذه الآية إلى طواف آخر فبعد أن يذكر قول الحسن إنّه قال: طواف الزيارة، وقول مجاهد: إنّه الطواف الواجب، فإن قيل: يحتمل أن يريد به طواف القدوم الذى فعله رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأصحابه حين قدموا مكة وحلّوا به من إحرام الحج وجعلوه عمرةً إلّارسول اللّه صلى الله عليه و آله فإنّه كان قد ساق الهدى فمنعه ذلك من الإحلال ومضى على حجته.

وهنا يذكر ردوداً على هذا فيقول: لا يجوز أن يكون المراد به طواف القدوم من وجوه:

الأوّل: أنّه مأمور به عقيب الذبح، وذبح الهدى إنّما يكون يوم النحر؛ لأنّه قال: ويذكروا اسم اللّه ... وليطوّفوا بالبيت العتيق (۱)

.

وحقيقة ثمّ للترتيب والتراخى وطواف القدوم مفعول قبل يوم النحر، فثبت أنّه لم يُرد به طواف القدوم.

الثانى: أنّ قوله: وليطوّفوا هو أمر والأمر على الوجوب حتى تقوم دلالة الندب. وطواف القدوم غير واجب، وفى صرف المعنى إليه صرف للكلام عن حقيقته.

الثالث: أنّه لو كان المراد الطواف الذى أمر به أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله حتى قدموا مكة لكان منسوخاً؛ لأنّ ذلك الطواف إنّما أمروا به لفسخ الحج وذلك منسوخ بقوله تعالى: وأتمّوا الحجّ والعمرة للّه (۲).

وبما روى ربيعة عن الحارث بن بلال بن الحارث المزنى عن أبيه قال:

قلت: يا رسول اللّه أرأيت فسخ حجتنا لنا خاصة أم للناس كافة؟ قال:

«بل لكم خاصّة» وروى عن عمر وعثمان وأبى ذر وغيرهم مثل ذلك.

وقال ابن عبّاس: لا يطوف الحاج للقدوم وإنّه إن طاف قبل عرفة صارت حجّته عمرة. وكان يحتجّ بقوله

۱- ۱ سورة الحجّ: ۲۸ و ۲۹.

۲- ۲ سورة البقرة: ۱۹۶.

ص: ۲۴۹

تعالی: ثمّ محلّها إلی البیت العتیق فذهب إلی أنّه یحلّ بالطواف قبله قبل عرفهٔ أو بعده، فکان ابن عبّاس یذهب إلی أنّ هذا الحکم باقٍ لم ینسخ وإن فسخ الحجّ قبل تمامه جائز بأن یطوف قبل الوقوف بعرفهٔ فیصیر حجّه عمرهٔ. وقد ثبت بظاهر قوله تعالی:

وأتمّوا الحجّ والعمرهٔ للّه نسخه.

وهذا معنی ما أراده عمر بن الخطّاب بقوله: «متعتان کانتا علی عهد رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنا أنهی عنهما وأضرب علیهما؛ متعهٔ النساء ومتعهٔ الحجّ» وذهب فیه إلی ظاهر هذه الآیهٔ وإلی ما علمه من توقیف رسول اللّه صلی الله علیه و آله إیّاهم علی أن فسخ الحج کان لهم خاصّهٔ؛ وإذا ثبت أنّ ذلک منسوخ لم یجز تأویل قوله تعالی:

ولیطوّفوا ... علیه فثبت بما وصفنا أنّ المراد طواف الزیارهٔ (۱).

وفی تفسیر الوسیط یقول النیسابوری: ولیطوفوا ... یعنی الطواف الواجب ویسمّی طواف الإفاضهٔ لأنّه یکون بعد الإفاضهٔ (۲).

وقال ابن عربی فی أحکامه: هذا هو طواف الزیارهٔ وهو طواف الإفاضهٔ وهو رکن الحجّ باتفاق، وبه یتمّ الحجّ؛ لأنّه أحد أعماله ونهایهٔ أرکانه (۳).

الشیعهٔ الإمامیّهٔ:

فی هذه المسألهٔ لهم أقوال ثلاثهٔ:

الأوّل: یذهب إلی أنّ المراد بالآیهٔ الطواف الواجب سواء أکان طواف الحجّ أو طواف عمرهٔ التمتّع أو العمرهٔ المفردهٔ.

الثانی: یذهب إلی أنّ المراد بالآیهٔ الطواف الواجب وطواف النساء.

الثالث: یذهب إلی أن المراد بالآیهٔ هو طواف النساء وهو ما سنجده فیما یأتی.

الرابع: یذهب إلی أکثر من هذا وذاک لیخلص إلی أنّ الآیهٔ تدلّ علی الأطوفهٔ الواجبهٔ والمستحبّهٔ.

أمّا ما قاله الشیخ الطوسی فی تبیانه: ولیطوّفوا بالبیت العتیق أمرٌ من اللّه تعالی بالطواف بالبیت (۴).

۱- ۱ أحکام الجصاص ۳: ۳۵۴.

۲- ۲ الوسیط فی تفسیر القرآن المجید، الواحدی النیسابوری ۳: ۲۶۸ فی تفسیر الآیهٔ ۲۹ الحجّ.

۳- ۳ أحکام القرآن لابن عربی ۳: ۲۸۵.

۴- ۴ تفسیر التبیان الآیهٔ ۲۹ الحجّ.

ص: ۲۵۰

دون أن يـذكر نوع هـذا الطواف، إلّا أنه واضـح من كلمته «أمرٌ» أنّه يقصـد الطواف الواجب دون المسـتحبّ وإن لم يبيّن نوع الطواف الواجب..

أمّا السيّد شبّر فى تفسيره فيذهب إلى أن وليطوّفوا أعمّ من كونها تختص بالطواف الواجب طواف الحجّ فيقول: وليطوّفوا طواف الزيارة والنساء أو الوداع أو ما يعمّها (۱).

وهو مـا ذهب إليه أيضـاً صاحب كنز العرفان حيث يقول: وليطوّفوا بالبيت العتيق صـريح فى الأمر بالطواف بالبيت الـدال على الوجوب اتّفاقـاً، لكنّه مجمـل علم بيـانه من الرسـول صـلى الله عليه و آله لقـوله صـلى الله عليه و آله: «خـذوا عنّى مناسـككم» (۲) فيكون شاملًا لطواف الزيارة والنساء وغيرهما من طواف العمرة فلا وجه [حينئذٍ] لحمله على طواف الزيارة لا غير أو النساء لا غير (۳).

واستظهر صاحب زبدة البيان (طواف الزيارة): ويجب طواف البيت الذى فى المسجد الحرام وهو القبلة ...

وقيل: المراد طواف الزيارة وقيل طواف النساء ويحتملهما معاً، وقيل:

طواف الوداع، ويحتمل الكلّ مجازاً، والظاهر الأوّل. حيث كان الكلام فى الحـجّ، وأنّه ذكره بعـد التحليل والذبح، ويمكن فهم وجوب الترتيب فى الجملة بين مناسك منى (۴).

ولعلّ مستندهم ما رواه فى الكافى عن أحمد بن محمد .. قال: قال أبو الحسن عليه السلام فى قول اللَّه عزّوجلّ:

وليطوّفوا بالبيت العتيق قال:

«طواف الفريضة طواف النساء» باعتبارهما طوافين واجبين بعد مناسك منى.

أو جمعاً بين الروايات التى تفسّر الطواف الوارد فى الآية بطواف الفريضة وبين التى تفسّره بطواف النساء.

فعن أحمـد بن محمـد بن أبى نصـر، عن الرضا عليه السـلام قال: سألته عن قول اللَّه تبارك وتعالى: ثمّ ليقضوا تفثهم و ليوفوا نـذورهم قال: تقليم الأظفار،

۱- ۱ تفسير القرآن الكريم، الآية ۲۹ الحج.

۲- ۲ سنن أبى داود ۱: ۴۵۶ ولفظه: لتأخذوا مناسككم فإنّى لا أدرى لعلّى لا أحجّ بعد حجّتى هذه.

۳- ۳ انظر كنز العرفان فى فقه القرآن للسيورى، كتاب الحج ۱: ۲۷۰.

۴- ۴ زبدة البيان للمقدس الأردبيلى، كتاب الحج: ۲۸۸.

ص: ۲۵۱

وطرح الوسخ عنک، والخروج من الاحرام وليطوفوا بالبيت العتيق طواف الفريضهٔ (۱).

فيما روى حمّاد بن عثمان، عن أبیعبداللَّه عليه السلام فی قول اللَّه عزّوجلّ:

وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق قال: طواف النساء (۲).

فی حين کان الطبرسی فی تفسيره للآيهٔ أکثر تفصيلًا فقد قال: هذا أمر وظاهره يقتضی الوجوب، وقيل: أراد به طواف الزيارهٔ؛ لأنّه من أرکان أفعال الحج بلا خلاف. وقيل: إنّه طواف الصدر (أی طواف الرجوع من منی) لأنّه أمر به عقيب المناسک کلّها.

وذکر فی ذيل کلامه هذا أنّه: وروى أصحابنا أنّ المراد به طواف النساء الذی يستباح به وصل النساء وذلک بعد طواف الزيارهٔ، فإنّه إذا طاف طواف الزيارهٔ حلّ له کلّ شیء إلّا النساء، فإذا طاف طواف النساء حلّت له النساء (۳).

بينما راح جمع من الفقهاء- واستناداً إلی طائفهٔ من الروايات التی تفسّر الطواف الوارد فی الآيهٔ المذکورهٔ، بأنّه طواف النساء- يصرّحون بأنّ طواف النساء هو مراد الآيهٔ والذی هو واجب فی الحجّ بأنواعه وفی العمرهٔ المفردهٔ وبدونه لا تحلّ النساء لأزواجهنّ ولا يحلّ الرجال لزوجاتهم يقول فی الجواهر:

«.. وکذاتحرم عليه النساء لمساً بشهوهٔ وعقداً لنفسه أو لغيره.

بلا خلاف بل الاجماع بقسميه عليه (۴).

الروايات:

فعن حمّاد بن عثمان عن أبی عبداللَّه عليه السلام فی قول اللَّه عزّوجلّ:

وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق قال: «طواف النساء» (۵).

وعن حمّاد الناب قال: سألت أبا عبداللَّه عليه السلام عن قول اللَّه عزّوجلّ:

وليطوفوا بالبيت العتيق قال: «هو طواف النساء» (۶).

واتخذ فقهاء الإماميهٔ هذه الآيهٔ وتفسيرها المذکور فی الروايات دليلًا علی وجوب طواف النساء إضافهً إلی روايات أخری منها:

۱- ۱ الوسائل ۱۳: ۲۹۷ باب ۱ وجوب طواف الحج والعمرهٔ ح ۱۳.

۲- ۲ الوسائل ۱۳: ۲۹۹ باب ۲ وجوب طواف النساء ح ۵.

۳- ۳ مجمع البيان ۷: ۱۳۰.

۴- ۴ الجواهر ۱۸: ۲۸۹ وغيره.

۵- ۵ الوسائل ۱۳، الباب ۲، من أبواب الطواف، ح ۲.

۶- ۶ الوسائل: ۱۳: ۲۹۹، ح ۴.

ص: ۲۵۲

عن معاوية بن عمّار فی الصحيح أو الحسن عن أبی عبداللّه عليه السلام قال:

«القارن لا يكون إلّابسياق الهدی، وعليه طواف بالبيت وركعتان عند مقام إبراهيم وسعی بين الصفا والمروة، وطواف بعد الحجّ وهو طواف النساء» (۱).

وعن أحمد بن محمد، قال: قال أبو الحسن عليه السلام فی قول اللّه عزّوجلّ:

وليطوفوا بالبيت العتيق قال:

طواف الفريضة طواف النساء (۲).

صحيحة معاوية بن عمّار عن أبی عبداللّه عليه السلام قال: «علی المتمتع بالعمرة إلی الحج ثلاثة أطواف بالبيت، وسعيان بين الصفا والمروة، فعليه إذا قدم مكة طواف البيت وركعتان عند مقام إبراهيم عليه السلام وسعی بين الصفا والمروة، ثمّ يقصّر وقد أحل، هذا للعمرة، وعليه للحج طوافان وسعی بين الصفا والمروة ويصلّی عند كلّ طواف بالبيت ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام» (۳).

يقول هنا صاحب الحدائق:

قوله عليه السلام: «وعليه للحج طوافان» المراد طواف الزيارة وطواف النساء (۴).

وما رواه فی الكافی عن أبی بصير عن أبی عبداللّه عليه السلام قال: «المتمتع عليه ثلاثة أطواف بالبيت وطوافان بين الصفا والمروة» (۵).

وعن منصور بن حازم فی الصحيح عن أبی عبداللّه عليه السلام قال:

«علی المتمتع بالعمرة إلی الحج ثلاثة أطواف بالبيت، ويصلّی لكل طواف ركعتين، وسعيان بين الصفا والمروة» (۶).

وهناك رواية فسّرت طواف الزيارة بطواف النساء، ففی الصحيح عن معاوية بن عمّار- كما رواه الشيخ فی التهذيب- عن أبی عبداللّه عليه السلام أنه قال: «... وأما المفرد للحج فعليه طواف بالبيت، وركعتان عند مقام إبراهيم وسعی بين الصفا والمروة، وطواف الزيارة وهو طواف النساء، ...» (۷).

هذابالنسبة لما ورد من نصوص.

۱- ۱ الوسائل ۱۳: الباب ۲، من أبواب أقسام الحجّ، ح ۱۲.

۲- ۲ الوسائل ۱۳، من أبواب الطواف، ح ۴.

۳- ۳ الوسائل ۱۱: الباب ۲، من أبواب أقسام الحج، ح ۸.

۴- ۴ الحدائق ۱۷: ۲۸۲.

۵- ۵ الوسائل ۱۱: الباب ۲، من أبواب أقسام الحجّ، ح ۱۱.

۶- ۶ الوسائل ۱۱: الباب ۲، من أبواب أقسام الحجّ، ح ۲.

۷- ۷ الوسائل ۱۱: باب ۲، من أبواب أقسام الحجّ: ۲۱۲- ۲۱۳۷ ح ۲.

ص: ۲۵۳

وأمّا أقوال فقهاء الإمامية:

يقول الشيخ الطوسی: دلیلنا علی وجوب طواف النساء: إجماع الفرقة، وطریقة الاحتیاط (۱).

ویقول صاحب الحدائق:

ولا ـ خلاف بین أصحابنا فی وجوبه علی جمیع أفراد الحاج من الرجال والنساء والصبیان والخصیان، وادّعی علیه الإجماع فی المنتهی ویدلّ علی ذلک أیضاً ما رواه الشیخ فی الصحیح عن الحسین بن علی بن یقطین قال:

سألت أبا الحسن علیه السلام عن الخصیان والمرأة الکبیرة، أعلیهم طواف النساء؟ قال: «نعم علیهم الطواف کلهم».

فیما یقول صاحب الجواهر بلا خلاف معتدّ به أجده فیه بل عن المنتهی [هذا الطواف المسمّی بطواف النساء فرض واجب علی الرجال والنساء والخصیان من البالغة وغیرهم، ذهب إلیه علماؤنا أجمع، وأطبق الجمهور علی أنّه لیس بواجب] وفی التذکرة الإجماع علیه فی الجملة (۲)ویدل علیه مضافاً إلی الأصل وإطلاق قوله تعالی:

فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فی الحج [والرفث هو الجماع] وما دلّ علی حرمة الرجال علیها بالاحرام.

وقاعدة الاشتراک إلّافیما استثنی، ذیل حدیث إسحاق بن عمّار: «... ولا تحلّ لهم النساء حتی یرجع فیطوف بالبیت اسبوعاً آخر بعدما سعی بین الصفا والمروة وذلک علی النساء والرجال واجب».

وقال صاحب براهین الحج:

أجمع الأصحاب علی وجوب طواف النساء فی الحج والعمرة المفردة ... (۳) أمّا فی مهذب الأحکام فیقول:

طواف النساء واجب فی الحج بجمیع أنواعه للإجماع والنصوص المستفیضة .. (۴).

فالمسلّم به عند فقهاء الإمامیّة هو وجوب هذا الطواف وعدم کونه رکناً من أرکان الفریضة..

وتبقی النصوص الواردة بهذا الخصوص هی أقوی الأدلة لوضوحها واستفاضتها.

۱- ۱ انظر الخلاف ومختلف الشیعة، الحجّ، الطواف.

۲- ۲ الجواهر ۱۹: ۴۱۰.

۳- ۳ براهین الحج للکاشانی ۴: ۱۲۲.

۴- ۴ مهذب الأحکام للسبزواری ۱۴: ۲۷.

ص: ۲۵۴

طواف النساء والعمرة المفردة والمتمتّع بها:

وطواف النساء واجب فی العمرة المفردة کما هو واجب فی الحج، ولیس بواجب فی العمرة المتمتع بها إلی الحج، التی یتحلّل فیها الحاج من إحرامه وتروکه بمجرّد التقصیر.

فالمشهور بین فقهاء الإمامیة وتوصف بأنّها شهرة عظیمة أنّه واجب فی العمرة المفردة، کما أن المشهور بینهم عدم وجوبه فی العمرة المتمتع بها إلی الحج، فیما قال السیّد الخوئی: لا یجب طواف النساء فی عمرة التمتّع، ولا بأس بالإتیان به رجاءً. وقد نقل شیخنا الشهید وجوبه عن بعض العلماء (۱). فیقول فی التذکرة: «هذا الطواف واجب فی الحج والعمرة المبتولة عند علمائنا أجمع».

الروایات:

فعن إسماعیل بن رباح، قال:

سألت أبا الحسن علیه السلام عن مفرد العمرة علیه طواف النساء؟ قال: نعم (۲).

وعن محمد بن عیسی، قال: کتب أبو القاسم مخلّد بن موسی الرازی إلی الرجل علیه السلام یسأله عن العمرة المبتولة، هل علی صاحبها طواف النساء، والعمرة التی یتمتع بها إلی الحج؟

فکتب: أمّا العمرة المبتولة فعلی صاحبها طواف النساء، وأمّا التی یتمتّع بها إلی الحجّ فلیس علی صاحبها طواف النساء (۳) وغیرها (۴).

فی حین ورد عن أبی خالد مولی علی بن یقطین أنه قال: سألت أبا الحسن علیه السلام عن مفرد العمرة علیه طواف النساء؟ قال علیه السلام: لیس علیه طواف النساء (۵).

وبإسناده عن محمد بن علی بن محبوب، عن عدّة من أصحابنا، عن محمد بن عبد الحمید مثله، إلّاأنه قال:

عن مفرد الحج.

أقول: والقول ما زال لصاحب الوسائل: حمله الشیخ علی من أفرد العمرة فی أشهر الحج، ثمّ أراد أن یجعلها عمرة التمتّع لما [جاء فی الأحادیث ۱۲، ۲، ۵، ۸ من أحادیث

۱- ۱ مناسک الحجّ للسیّد الخوئی: ۱۵۴، المسألة ۳۵۷.

۲- ۲ الوسائل الباب ۸۲ من أبواب وجوب الطواف: ۴۴۳ ح ۱، ۸.

۳- ۳ المصدر السابق.

۴- ۴ انظر الوسائل ۱۳ الباب ۸۲.

۵- ۵ الوسائل ۱۳ باب ۸۲: ۴۴۵.

ص: ۲۵۵

الباب ۸۲ باب وجوب طواف النساء فی الحج مطلقاً، وفی العمرهٔ المفردهٔ دون عمرهٔ التمتع: ۴۴۲- ۴۴۵] ویحتمل الحمل علی الانکار، وعلی التقیهٔ (۱).

فالمشهور بین الأصحاب شهرهٔ عظیمهٔ وجوبه فیها، بل لم یعرف الخلاف إلّاعن الجعفی الذی نسب إلیه عدم وجوبها فیها (۲)، مستفیداً من الخبر الوارد عن أبی‌خالد علی بن یقطین عن أبی الحسن علیه السلام قال: سألت أباالحسن علیه السلام عن مفرد العمرهٔ علیه طواف النساء؟ قال: لیس علیه طواف النساء (۳).

ومرسل یونس: لیس طواف النساء إلّاعلی الحاجّ.

وفی صحیح معاویهٔ، قال الصادق علیه السلام: إذا دخل المعتمر مکهٔ من غیر تمتع وطاف بالکعبهٔ وصلّی رکعتین عند مقام إبراهیم علیه السلام وسعی بین الصفا والمروهٔ فلیلحق بأهله إن شاء» (۴).

وغیرها من النصوص وهی صریحهٔ أو ظاهرهٔ فی عدم الوجوب؛ إلّا أن عدم وجوب طواف النساء فی العمرهٔ المفردهٔ لا یثبت بها، لأنّها تعارض الاخری التی علیها مشهور الفقهاء ولأنّهم أعرضوا عنها، ولموافقتها للعامهٔ، کما أن الجمع بینها وبین النصوص الموجبهٔ للطواف غیر ممکن لوضوح التعارض بینها ..

فالروایهٔ القائلهٔ: لیس علی صاحبها طواف النساء والاخری القائلهٔ: فی مفرد العمرهٔ علی صاحبها طواف النساء واضحهٔ التعارض بنظر العرف. فإذن الجمع بینها لا یمکن لأنّ التعارض مستقرّ فلابدّ من إعمال تلک المرجحات وبالتالی یترجّح العمل بالروایات الدالّهٔ علی وجوب طواف النساء فی العمرهٔ المفردهٔ (۵).

هذا وأن طواف النساء وإن کان واجباً إلّاانّه لیس رکناً فی الحج وهو ما علیه فقهاء الإمامیهٔ ومسلّم بینهم، فلو أخلّ به الحاج أو تعمّد ترکه لا یوجب بطلان الحج. نعم حلیهٔ النساء لا تتمّ إلّا بأدائه، وإن کان هذا لا یخلو من کلام بینهم، کما سیأتی.

۱- ۱ الوسائل: ۱۳ باب ۸۲: ۴۴۵ ذیل خبر أبی خالد مولی علی بن یقطین.

۲- ۲ الجواهر ۹: ۴۰۶.

۳- ۳ الوسائل ۱۳ باب ۸۲: ۴۴۵ ح ۹.

۴- ۴ الوسائل باب ۹ من أبواب العمرهٔ ح ۲.

۵- ۵ السید السبزواری، نقاش لما ورد من الروایات بهذا الخصوص فی مهذب الأحکام ۱۴: ۲۹، وغیره.

ص: ۲۵۶

التحلّل:

فتروك الإحرام والتى منها النساء يتحلّل منها الحاج فى الأوقات أو الأماكن التالية:

الأوّل: بعد أن يحلق أو يقصّر، يحل له كلّ شىء حرّم عليه إلّاالطيب والنساء. والصيد ظاهراً؛ وإن حرم لاحترام الحرم باعتبار أن الصيد المحرم بالاحرام أو للحرم...

الثانى: بعد طواف الحج الذى يسمّى طواف الزيارة وركعتيه وعن بعضهم بعد السعى بين الصفا والمروة، فيحلّ له الطيب.

الثالث: بعد أدائه لطواف النساء وركعتيه، فتحلّ له النساء.

فعن معاوية بن عمّار فى صحيحته عن أبى عبداللّه عليه السلام قال: إذا ذبح الرجل وحلق (أى: يوم النحر) فقد أحلّ من كلّ شىء أحرم منه، إلّا النساءوالطيب. فإذا أراد البيت وطاف وسعى بين الصفا والمروة فقد أحلّ من كلّ شىء أحرم منه إلّاالنساء، وإذا طاف طواف النساء فقد أحلّ من كلّ شىء أحرم منه إلّاالصيد.

وعن إسحاق بن عمّار، عن أبى عبداللّه عليه السلام قال: لولا ما مَنَّ اللّه عزّوجلّ على الناس من طواف النساء؛ لرجع الرجل إلى أهله وليس يحلّ له أهله.

دائرة الحلية:

وقد اختلف فى سعة دائرة هذه الحلية المتوقّفة على أداء هذا الطواف بعد السعى، تبعاً لاختلاف ما ورد فيها من روايات على ثلاثة وجوه: ثالثها الاحتياط وهى:

الأوّل: حلية الجماع؛ لأنّ الاستمتاعات والامور الأخرى وقع إحلالها قبل طواف النساء أى بعد الحلق والتقصير فى مناسك منى.

ويستفاد هذا الوجه من صحيحة الحلبى عن أبى عبداللّه عليه السلام قال: سألته عن رجل نسى أن يزور البيت حتّى أصبح، فقال: ربما أخرته حتى تذهب أيام التشريق، ولكن لا تقربوا النساء والطيب (۱).

إذن فالذى نهت عنه هذه الرواية

۱- ۱ الوسائل: أبواب زيارة البيت، الباب الأوّل ح ۲.

ص: ۲۵۷

هو مقاربة النساء أى‌الجماع بدليل ولا تقربوهنّ حتّى يطهرنَ.. أى بالجماع (۱).

الثانى: حليـة الجماع والاسـتمتاعات الأخرى كالتقبيل وهو ما ورد فى صـحيحة معاوية بن عمّار عن أبى عبداللّٰه عليه السـلام قال: سألته عن رجل قبّل امرأته وقد طاف طواف النساء ولم تطف هى، قال: عليه دم يهريقه من عنده (۲).

مع أنّه لم تصـرّح الروايـة بالحرمـة إلّا أنه واسـتناداً إلى الملازمة العرفية يمكن القول بالحرمة المستكشـفة من وجوب الكفارة على هذا الفعل. إلّاأنّ صاحب الجواهر وكما حكى ذكر فى ذيل هـذه الروايـة التى يكون سـندها صـحيحاً معتبراً أنه لم يحضـرنى أحـد عمل به على جهة الوجوب فلا بأس بحمله على ضرب من الندب؛ لأن الغرض كونه قد أحلّ فلا شىء عليه إلّا الإثم لو كان (۳).

الثالث: وهو أنّ حلية النساء وكلّ ما يتعلّق بها من عقد وتقبيل ولمس يتوقّف على أداء طواف النساء.

يقول السيّد الإمام: «يجب الاحتياط عن مطلق التلذذ» (۴).

وجوب طواف النساء على الجميع:

لا فرق فى وجوب هذا الطواف بين الرجال والنساء والصبيان والخناثى والخصيان.

فهو لا يختصّ بالرجال دون النساء ولمقتضـى إطلاق الآية فلا رفث... التى لم تفرق بين الرجال والنساء وغيرهم فى التحريم، وللإجماع وللروايات التى تصرّح بأنّ هذا الطواف يجب على النساء أيضاً، ولأن الرفث المذكور فى الآية فلا رفث ... هو الجماع كما ورد عن ابن مسعود وقتادة ... وهو الجماع والتعريض له بمداعبة أو مواعدة عن الحسن.

يقول صـاحب مجمع البيـان فى تفسـير قوله تعـالى فى سورة البقرة أحـلّ لكم ليلـة الصـيام الرفث إلى نسائكم: الرفث الجماع هاهنا بلا خلاف.

۱- ۱ سورة البقرة: ۲۲۲. وانظر مجمع البيان للطبرسى.

۲- ۲ الوسائل أبواب كفارات الاستمتاع الباب ۱۸ ح ۲.

۳- ۳ تفصيل الشريعة ۵: ۳۸۱.

۴- ۴ مناسك الحجّ: ۴۲۱، مسألة ۱۲۰۵.

ص: ۲۵۸

وفی الروایهٔ... قال: الرفث:

جماع النساء... (۱) وقد جاء فی المختار أنّ الرفث:

الجماع، وهو أیضاً الفحش من القول إلّا أنّه جاء فی المعجم الوسیط: الرفث کلمهٔ جامعهٔ لما یرید الرجل من المرأهٔ فی سبیل الاستمتاع بها من غیر کنایهٔ (۲).

وبالتالی فإنّ الجماع والمجامعهٔ صیغهٔ مفاعلهٔ تحتاج إلی الطرفین، فلابدّ من أن التحلیل یشمل هذین الطرفین.

وروایهٔ عبداللَّه بن صالح عن أبی عبداللَّه علیه السلام قال: المرأهٔ المتمتعهٔ إذا قدمت مکهٔ ... ثمّ خرجت للحج إلی منی، فإذا قضت المناسک .. ثمّ طافت طواف الحج. ثمّ خرجت فسعت، فإذا فعلت ذلک فقد أحلّت من کلّ شیء یحلّ منه المحرم إلّافراش زوجها، فإذا طافت طوافاً آخر، حلّ لها فراش زوجها (۳).

وعن الحسین بن علی بن یقطین قال: سألت أبا الحسن علیه السلام عن الخصیان والمرأهٔ الکبیرهٔ، أعلیهم طواف النساء؟ قال: نعم علیهم الطواف کلّهم (۴).

ویقول فی مهذب الأحکام: تحرم النساء علی الصبیان بعد البلوغ إن لم یأتوا بطواف النساء فی الحجّ قبله؛ لعدم التکلیف علیهم قبل البلوغ وثبوته بعده، ویبطل العقد من الولی لهم قبل البلوغ أیضاً .. فیکون طواف النساء واجباً نفسیاً حکمته حلیهٔ النساء لا أن یکون واجباً غیریاً یدور وجوبه مدار إمکان مباشرهٔ النساء فعلًا (۵).

فروایهٔ أبان بن تغلب قال:

سمعت أبا عبداللَّه علیه السلام یقول: «الصبی إذا حجّ به فقد قضی حجّهٔ الإسلام حتی یکبر» فیکفی فی هذا قصد الولی ومساعدته فهو نظیر تزویج الولی إیّاه. فیستفید الفقهاء من هذا أن إطلاق حجّهٔ الإسلام علیه ظاهر بل صریح فی کونه مشروعاً وصحیحاً وإن لم یکن المراد الحجّهٔ الواجبهٔ، وهذا یتضمّن أنّه إذا أحرم الصبی ممیزاً کان

۱- ۱ وسائل الشیعهٔ ۱۳: ۱۱۵.

۲- ۲ المختار من صحاح اللغهٔ: رفث، المعجم الوسیط: ۳۵۸.

۳- ۳ الوسائل، أبواب الطواف، الباب الرابع والثمانون ح ۱.

۴- ۴ الوسائل، أبواب الطواف، الباب ۲، ح ۱.

۵- ۵ مهذب الأحکام للسید السبزواری ۱۴: ۲۸.

ص: ۲۵۹

أو غير مميّز فإنّه محرم واقعاً ولابدّ من أن يحصل التحلّل ممّا حرّم عليه. ولذا يترتّب عليه الآثار مثل وجوب اتقاء الولى عليه من المحرمات، ويترتّب عليه وجوب الكفارة على أبيه، وهذا واضح فى حديث زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال: إذا حجّ الرجل بابنه وهو صغير فإنّه يأمره أن يلبّى ويفرض الحج، فإن لم يخشَ أن يلبى لبّوا عنه ويطاف به ويصلّى عنه. قلت:

ليس لهم ما يذبحون. قال: يذبح عن الصغار ويصوم الكبار، ويقضى عليهم ما يتقى على المحرم من الثياب والطيب، وإن قتل صيداً فعلى أبيه (۱).

فإنّ وجوب الاتقاء وثبوت الكفارات على أبيه واضح وظاهر فى صحّة حجّه وشرعيته وكذا عمرته.

كما يترتّب على هذا الأجر والثواب، فعن عبداللّه بن سنان عن أبى عبداللّه عليه السلام قال: سمعته يقول: مرّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم برويثة وهو حاج، فقامت إليه امرأة ومعها صبىّ لها فقالت: يارسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أيحج عن مثل هذا؟ قال: نعم ولك أجره (۲).

فترتب الأجر على أداء عمل أو ترتيب الكفارة على تركه دليل على مشروعيّته.

فلابدّ من أن يطوف به طواف النساء حتّى يصحّ تزويجه بعد بلوغه، أو يأتى بطواف النساء بعد بلوغه؛ لأن طواف النساء لا تشترط فيه الفورية.

إذن فطواف النساء مع وجوبه إلّا أنّه ليس ركناً من أركان فريضة الحج، بل ذهب بعض الفقهاء إلى أنّه ليس بجزء من الحج ولا شرطاً متأخّراً عنه. بل هو مأمور به بأمر وجوبى مستقل وأن يؤتى به فى وقت مخصوص بعد الحج، وعنوان البعديّة كما فى رواية ابن عمّار... «وطواف بعد الحجّ وهو طواف النساء» (۳) لا يتحقّق مع الجزئيّة. فمن تركه عمداً أو سهواً فلا يبطل حجّه بل حجّه صحيح، ولكن لا تحلّ له النساء حتّى يأتى به مع إمكان الإتيان به وإلّا فله أن يستنيب للروايات، وكيف لا تصحّ النيابة فيه وهو لم يكن بأهمية طواف

۱- ۱ الوسائل، الباب ۱۷ من أبواب أقسام الحج ح ۵.

۲- ۲ الوسائل، الباب ۲۰ من أبواب وجوب الحج وشرائطه.

۳- ۳ الوسائل، الباب الثانى من أبواب أقسام الحجّ، ح ۶، ۱۲، ۱.

ص: ۲۶۰

الزيارة الذى تجوز فيه النيابة؟

كما أنّه ليس واجباً غيرياً يدور وجوبه مدار إمكان مباشرة النساء فعلًا بل هو واجب نفسى حكمته حلّية النساء بل لا تتحقق إلّابه (۱).

فالطواف إذاً إما مباشرة من قبل المكلّف فإن لم يستطع يطاف به كما هو الحال مع الطفل غير المميّز أو مع السرير .. فإن لم يستطع من الأمرين المذكورين ينتقل عمله إلى المرحلة الثالثة وهو أن يطاف عنه، أى يأتى دور الاستنابة كما هو حال الحائض أو عدم القدرة على الرجوع إلى مكة لأداء الطواف تداركاً لما تركه نسياناً أو سهواً أو تعمّداً (۲) ..

ثمّ إنّ الذى يدلّ على الجزئيّة إضافةً إلى البَعديّة «وطوافٌ بعد الحجّ وهو طواف النساء» الرواية... امرأة حاضت ولم تطف طواف النساء...

لا يقيم عليها جمّالها ولا تستطيع أن تتخلّف عن أصحابها، تمضى وقد تمّ حجّها.

فيما وردت غيرها تدلّ على الجزئيّة، مثل رواية منصور بن حازم عن أبى‌عبداللّٰه عليه السلام قال: على المتمتّع بالعمرة إلى الحجّ ثلاثة أطواف بالبيت ويصلّى لكلّ طواف ركعتين وسعيان بين الصفا والمروة (۳).

ورواية ابن عمّار عن أبى‌عبداللّٰه... وعليه للحجّ طوافان وسعى بين الصفا والمروة ويصلّى عند كلّ طواف بالبيت ركعتين عند مقام إبراهيم (۴).

وهنا لابدّ من وقفة قصيرة:

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى الْحَجِّ (۵)

.

۱- فالحجّ أشهر معلومة وهى شوال، ذوالقعدة، العشرة الأولى من ذى‌الحجّة وعلى قول هو ذوالحجّة كلّه، لا يقع الإحرام للحجّ إلّافى هذه الأشهر...

ففى مجمع البيان: وأشهر الحجّ عندنا شوّال وذوالقعدة وعشر من ذى‌الحجّة على ما روى عن أبى‌جعفر وبه قال ابن عباس ومجاهد والحسن

۱- ۱ مهذّب الأحكام ۱۴: ۲۸.

۲- ۲ انظر فى هذا تفصيل الشريعة، ومهذب الأحكام، وفقه الصادق عليه السلام، وبراهين الحجّ.

۳- ۳ الوسائل، الباب الثانى من أبواب أقسام الحجّ، ح ۹.

۴- ۴ الوسائل، الباب الثانى من أبواب أقسام الحجّ، ح ۸.

۵- ۵ سورة البقرة: ۱۹۷.

ص: ۲۶۱

وغيرهم، وقيل هی شوال وذوالقعـدة وذوالحجّة عن عطاء والربيع وطاوس وروی ذلک فی أخبارنا، وإنّما صارت هذه أشـهر الحجّ لأنّه لا يصحّ الإحرام بالحجّ إلّافيها بلا خلاف، وعندنا لا يصح أيضاً الإحرام بالعمرة التی يتمتّع بها إلی الحجّ إلّابها.

ومن قال: إنّ جميع ذیالحجّة من أشهر الحج، قال: لأنّه يصحّ أن يقع فيها بعض أفعال الحجّ مثل صوم الأيام الثلاثة وذبح الهدی... (۱)

وفی الكافی عن الباقر عليه السلام فی قوله تعالی: الحجّ أشهر معلومات... قال:

الحجّ أشهر معلومات شوال وذوالقعدة وذوالحجّة ليس لأحد أن يحجّ فيما سواهنّ.

۲- والـذی أوجب علی نفسه الحجّ أیمن أحرم فيهن بالحجّ عليه أن يلتزم بتروک الإحرام هذا كما ذكرت مفصـلةً من قبل الفقهاء فی رسائلهم و كتبهم الفقهيّة...

۳- كلّ أفعال الحجّ تقع فی هذه الأشهر وبأوقاتها المخصوصة، إلّاأنّ للحاجّ أن يؤخّر ذبح الهدی وصوم الأيام الثلاثة علی أن لا يتعدی التأخير نهاية ذیالحجّة، باستثناء السبعة أيام فيصومها الحاجّ عند رجوعه إلی أهله فيما إذا لم يكن من أهل مكّة. فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنْ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّام فِي الْحَجِّ [أی فی أشـهر الحجّ الثلاثة لا فی غيرها] وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِی الْمَسْجِدِ الْحَرَام (۲)

و ماعدا ذلک فالذی يبدو أنّه لا يجوز للحاج أن يتعمّد تأخير عمل من أعمال الحجّ ومناسكه ومنها طواف النساء إن ثبتت جزئيته حتّی وإن لم يكن ركناً منه. كما عليه رواية ابن حازم ورواية عمار المتقدمتان، وأنّه يجب قضاؤه.

وهذه الجزئيّة تنسجم مع الاستدلال بالآية فلا رفث... الذی هو الجماع.

رابعاً: فلا رفث... الذی هو الجماع بدليل الآية الأخری أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلی نسائكم (۳)

۱- ۱ مجمع البيان للطبرسی ۱: ۵۲۴، التبيان للطوسی ۲: ۱۶۲.

۲- ۲ سورة البقرة: ۱۹۶.

۳- ۳ سورة البقرة: ۱۸۷.

ص: ۲۶۲

وما ورد في الرواية من أنّ الرفث الجماع وما عليه اللغة.

فالرفث الذي هو الجماع محرم بنصّ هذه الآية على من أحرم سواء كان إحرامه للحجّ أو للعمرة المفردة أو لعمرة التمتّع .. فهو إذن من تروك الإحرام وهو بالتالي يكون محدّداً كباقي التروك بوقت الحجّ وما دام المكلّف لم يتمّ الحجّ. كما في نصّ الآية... في الحجّ والذي أقصاه نهاية ذي‌الحجّة.

فالمذاهب الإسلاميّة الأربعة تذهب إلى أنّ التحلل يقع بعد طواف الزيارة أي‌طواف الحجّ فيجوز الجماع بعده.

وأمّا عند الإماميّة فيقع التحلل من حرمة الجماع بعد أداء الحاج رجلًا كان أو امرأة لطواف النساء.

فإذن الآية تحدد الممنوع ما دام الحجّ باقياً، فإذا انتهى الحجّ بطواف الزيارة فإنّ كلّ ما حرّم يتحلل منه الحاجّ إلّاالنساء عند الإمامية فقط، لأنّ هذا الأمر يحتاج إلى طواف آخر وهو طواف النساء، فإن قلنا: إنّ طواف النساء جزء من الحجّ فلابدّ من الإتيان به في أشهر الحجّ ولا يجوز تركه عمداً وعندئذ لا يتمّ الفراغ من الحجّ إلّابأدائه، وبالتالي يتلاءم هذا مع الاستدلال بالآية على المراد. وهو حرمة الجماع. وأمّا إذا قلنا: بأنّه ليس جزءاً من الحجّ والحجّ يتمّ بدونه..

فعندئذ من تعمد تركه فلا تحلّ له النساء وبالتالي يتمدد وقت التحريم إلى وقت قد يطول وقد يقصر خارج مدّة الحجّ المحدّدة قرآنياً، وعندئذ لا ـ يمكن الاستدلال بالآية، لأنّ طواف النساء يكون بذلك خارجاً عن الحجّ وزمنه، وهو ما ذهب إليه بعض من الفقهاء مستفيداً من رواية «وطواف بعد الحجّ وهو طواف النساء» والبعدية هذه لا تنسجم مع الجزئية، في حين أنّ الآية الكريمة المذكورة الحجّ أشهر معلومات... مع ضمّ الروايات التي يظهر منها وبشكل واضح قد يصل إلى التصريح بأنّ طواف النساء جزء من مناسك الحجّ

ص: ٢٦٣

وهى ليست قليلـة، تصلـح لأـن تكون أقوى دليلًا من غيرها على جزئيـة هـذا الطواف وأنّه منسك لا يجوز تركه تعمّـداً أو تأخيره حتّى تنتهى مدّة الحجّ المحدّدة فى الآية المذكورة.

ثمّ إنّ الروايـات التى تـدعو إلى جزئيّةٍ هـذا المنسـك تنسـجم مع الآيـة وبالتالى لا يقع تعارض وهو ما قـد يبـدو من الأخـذ بالروايات الأخرى التى تدلّ على عدم الجزئية وبالتالى أليس من الأفضل إسقاطها وتركها خصوصاً مع وجود روايات أخرى قويّة سنداً ومتناً تدلّ على الجزئيّة؟

ونكتفى أخيراً بمـا انتهى إليه المحقق الـداماد بعـد أن يطرح السؤال التـالى: هل يعتبر طواف النساء فى حجّهن بالنسـبة إلى حلّ الرجال لهن أم لا؟

يقول: قد يستدل لذلك بقوله تعالى: ولا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحجّ حيث إنّ إطلاقها يدلّ على حرمة الرفث المفسّر بالجماع مادام الحجّ باقياً، ففى خلاله يحرم الرفث من دون التفاوت فى ذلك بين الرجال والنساء.

ثمّ يقول: ولكن الاسـتدلال بها متوقّف على توقّف الفراغ من الحجّ على طواف النساء بحيث يكون من مناسـكه، فما لم يؤت به لم يتمّ الحجّ، وأمّا إذا كان خارجاً عن الحجّ، فلا يكون الفراغ منه متوقفاً على إتيانه وإن فرض لزوم الإتيان به.

فيخلص إلى أنّ هـذه الآيـة فلاـ رفث ولاـ فسوق... وحـدها غير كافيـة فى الاسـتدلال. نعم بانضـمام ما يـدلّ على أنّه من المناسك يتمّ نصاب البرهان.

ثمّ راح يقسم الروايات الواردة بخصوص هذا الطواف إلى ثلاث طوائف.

الطائفة الأولى: ما يدلّ على توقّف حلية الرجال لهن على طواف النساء.

التى منها:... ثمّ طافت طوافاً للحجّ ثمّ خرجت فسعت فإذا طافت طوافاً آخر حلّ لها فراش زوجها (١).

١- ١ الوسائل، أبواب الطواف، الباب ٨٤ ح ٩.

ص: ۲۶۴

الطائفة الثانية: ما يدلّ على أنّ طواف النساء من المناسك وينقل رواية حسين بن على بن يقطين.. نعم عليهم الطواف كلّهم. ورواية اسحاق ابن عمار... لاـ تحلّ لهم النساء حتّى يرجع فيطوف بالبيت اسبوعاً آخر بعد ما يسعى بين الصفا والمروة وذلك على النساء والرجال واجب..

ويستفيد من هاتين الروايتين أمرين:

الأوّل: أن حلية النساء متوقفة على هذا الطواف.

والثانى: كون طواف النساء بنفسه أيضاً من الواجبات الحجية...

الطائفة الثالثة: ما يدلّ على قضاء طواف النساء، وينقل رواية معاوية بن عمّار عن أبى‌عبداللّٰه عليه السلام قال: سألته عن رجل نسى طواف النساء حتّى يرجع إلى أهله، قال عليه السلام:

لاـ تحلّ له النساء حتّى يزور البيت فإن هو مات فليقض عنه وليّه أو غيره مادام حيّاً فلا يصلح أن يقضى عنه وإن نسى الجمار فليسا بسواء أن الرمى سنة والطواف فريضة (۱).

وظهورها فى لزوم القضاء واضح فيكشف عن كونه من المناسك، لا انه ليس له الا تحليل النساء فمن شاء طاف ومن لم يشأ ترك، بل يجب على الكلّ الاتيان به. ويتلوها روايات ابن عمّار والحلبى (۲) فى لزوم القضاء على الولى بعد الموت.

ثمّ يقول: وممّا يترتّب على كونه من المناسك أنّه لولا اعتبار الولاء والتتابع فيها لحكم ببقاء الإحرام ولوازمه بحالها ما لم يأت بطواف النساء وإن طال الفصل. وأما على اعتبار التتابع فلعل ذلك الفصل مبطل لأصل الحجّ وليس ذلك إلّا لأنّه من اجزاء الحجّ (۳).

أحكام أخرى:

هذا وأن طواف النساء يبقى بذمّة المكلّف إن تركه عصياناً أو لعذر ولم يأت به لا مباشرة ولا استنابة ثمّ وفق لحج آخر أو لعمرة مفردة فلا يسقط عنه ذلك الطواف أى طواف النساء وإن أتى بطواف النساء بالحج

۱- ۱ الوسائل، أبواب الطواف، الباب ۵۲، ح ۲.

۲- ۲ الوسائل، ابواب الطواف، الباب ۵۸، ح ۳ و ۶ و ۱۱.

۳- ۳ كتاب الحجّ. المحقّق الداماد ۳: ۳۷۵- ۳۷۹.

ص: ۲۶۵

الآـخر أو العمرهٔ الأـخری المفردهٔ، فلاـ یسـقط مـا أتی به من طواف النسـاء طواف النسـاء السـابق. وهل تحلّ علیه النساء بما أتی به من طواف النساء لاحقاً أو لا تحلّ إلّابالإتیان بما وجب علیه سابقاً؟

وهنا یجیب السیّد السبزواری فی مهذب الأحکام عن ذلک بقوله:

وجهان: مقتضی الأصل هو الأخیر (۱) فی حین ذهب السیّد الإمام إلی کفایهٔ طواف نساء واحد إذا لم یطفه فی العمرهٔ المفردهٔ وطاف طواف النساء فی حجّ الإفراد، فأفتی سماحته رحمه الله علی کفایته (۲).

ومن أحکـام هـذا الطواف أنّه: لو نسـی وترک الطواف الواجب من عمرهٔ أو حـجّ، أو طواف النسـاء، ورجع وجـامع النساء، یجب علیه الهدی، ینحره أو یذبحه فی مکهٔ ..

الهوامش:

۱- ۱ مهذب الأحکام ۱۴: ۳۱.

۲- ۲ مناسک الحجّ للسیّد الإمام: ۴۲۵ مسألهٔ ۱۲۱۷.

تامّلات فی آیات الحجّ

ص: ۲۶۹

تأمّلات فی آیات الحجّ

عبدالرحمن شرفی

قاضی المحکمهٔ العلیا- السودان

هـذه رؤی لهموم ووحـدهٔ المسـلمین وإسـلامهم من خلال مناسک الحـجّ وآیاته ... والفارق یبـدو جلیاً بین الواقع والواجب- من هـذه الرؤی.

مقدّمهٔ

قال تعالی:

وَأَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجَالًا وَعَلَی کُلِّ ضَامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ* لِیَشْـهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَیَذْکُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِی أَیَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَی مَـا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِیمَـهِٔ الْأَنْعَـامِ فَکُلُوا مِنْهَـا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِیرَ* ثُمَّ لِیَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْیُوفُوا نُـذُورَهُمْ وَلْیَطَّوَّفُوا بِالْبَیْتِ الْعَتِیقِ* ذَلِکَ وَمَنْ یُعَظِّمْ حُرُمَـاتِ اللَّهِ فَهُـوَ خَیْرٌ لَهُ عِنْـدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَکُمْ الْأَنْعَـامُ إِلَّا مَـا یُتْلَی عَلَیْکُمْ فَـاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الْأَوْثَـانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ* حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَیْرَ مُشْـرِکِینَ بِهِ وَمَنْ یُشْـرِکْ بِاللَّهِ فَکَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّیْرُ أَوْ تَهْوِی بِهِ الرِّیحُ فِی مَکَانٍ سَحِیقٍ* ذَلِکَ وَمَنْ یُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَی الْقُلُوبِ* لَکُمْ فِیهَا مَنَافِعُ إِلَی أَجَلٍ مُسَـمّیً ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَی الْبَیْتِ الْعَتِیقِ* وَلِکُلِّ أُمَّهٍٔ جَعَلْنَا مَنْسَـکاً لِیَذْکُرُوا اسْـمَ اللَّهِ عَلَی مَا رَزَقَهُمْ مِن

ص: ۲۷۰

بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرْ الْمُخْبِتِينَ* الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِيّ الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ* وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ* إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ* أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ* الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ* (۱).

هذه الآيات الكريمة، وما تضمّنتها من حرمات اللّه وشعائره، ومناهج ابتغاء الغايات ... نتلمّس فيها بعض معانی الوحدة الإسلامية والتسليم للخالق .... وما يقتضيه هذا التسليم- والايمان- من مدافعة ومناصرة ... ونهدی هذه المعانی إلی كلّ من لبّی النداء الإبراهيمی من لدن أبی الأنبياء، إلی أن يورث اللّه أرضه لعباده الصالحين ويرثها ومن عليها ....

هذه المعانی إلی كل من أجاب النداء وأقبل إلی اللّه وهو يردّد: (لبّيك اللهمّ لبّيك) ... أُقدّم هذه المعانی ذكری .. فالغفلة قد استطالت واستطارت ... امّة الإسلام غافلة- غافلة، مغيّبة، ممزّقة، مذبوحة، مغتصبة. ... إنّها مؤامرة مدبَّرة من قبل النظام العالمی الجديد، شعارها: (إبادة المسلمين واستخراب ديارهم) ... إنّها بعض الحقيقة ونحن فی غناء عن مزيد بيان، غير أنه ما زال هنالك رجاء .. الرجاء كائن، ما ظلّ الناس يهرعون رجالًا، وعلى كلّ ضامر، من كلّ فجٍّ عميق، ليذكروا اسم اللّه

۱- ۱ الحج: ۲۷- ۴۱.

ص: ۲۷۱

فی أیّام معلومات ... یؤدّون فیها شعائر اللَّه، ولیطّوّفوا بالبیت العتیق ... الأمل کائن رغم الغفلة ...

إنّ الذین اتقوا إذا مسّهم طائفٌ من الشیطان تذکّروا فإذا هم مبصرون (۱).

... الغفلة لیست أبدیة ... إنّها طائف تبدّدها التذکرة ... (المسلمون قادمون) ...

هتاف بدأ ینبعث من حناجر شبابنا المسلم ... شعاع الفجر الصادق بدأ یشقّ ثنایا ظلمات افق الجاهلیة المعاصرة ... جاهلیة النظام العالمی الجدید ... إنّها بدایات التذکرة ... الذین کانت أعینهم فی غطاء عن منهج اللَّه ... سیتّخذون إلی ربّهم سبیلًا وتولد امّتنا من جدید، من بین أرحام ظلمات الجاهلیة، ویصدق وعد اللَّه القائل:

ولقد کتبنا فی الزبور من بعد الذکر أنّ الأرض یرثها عبادی الصالحون (۲).

.. الأرض التی عاث فیها الکافرون فساداً، یرثها الصالحون من عباد اللَّه ...

الذین إن مکّناهم فی الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزکاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنکر وللَّه عاقبة الامور ... ومبدأ المنطلق من هنا ... من هذه الشعائر ... نستشعر ذلک من تسلسل هذه الآیات المبدوءة بالآذان الإبراهیمی ...

مروراً بصیاغة الإنسان الرسالی- والامّة الرسالیة-، وبیان الغایات ومناهج بلوغها ... بلوغ غایة الغایات وللَّه عاقبة الامور.

ینخرط الإنسان المسلم فی الطریق ... بعد التمکین الربانی ... تسعد الإنسانیة بمنهج الامّة الرسالیة ... هذه معانی بعض أهداف الآیات القرآنیة العظیمة حول شعائر اللَّه ... حجّ بیت اللَّه ... فإن أصابت الرؤیة- والقراءة- فالحمد للَّهعلی نعمة الضیاء ونعمة البصر ونعمة العلم الذی لم نؤت منه إلّاقلیلًا ... وقل ربِّ زدنی علماً ... وإن کانت الاخری فنسأل اللَّه المغفرة وإقالة العثرات.

الحجّ رمز وحدة المسلمین

جاءت آیة فرضیة الحجّ من سورة آل عمران مقرونة مع وحدة

۱- ۱ الأعراف: ۲۰۱.

۲- ۲ الأنبیاء: ۱۰۵.

ص: ۲۷۲

المسلمین- مع بیان منهج الوحدة ودستورها- قال تعالی: وللّه علی الناس حجّ البیت من استطاع إلیه سبیلًا ... ولمّا کان الحج یمثِّل مؤتمراً إسلامیاً جامعاً سنویاً، فقد أراد اللّه سبحانه وتعالی أن یبیِّن منهج الجماعة وهدیها ... إنّه الاعتصام باللّه، والإیمان الصادق به وتسلیم الأمر والاستسلام للخالق وحده، ووصلًا لآیات فرضیة الحج قال تعالی: وَمَنْ یَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِیَ إِلَی صِرَاطٍ مُسْتَقِیمٍ* یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ* وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِیعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْکُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَیْکُمْ إِذْ کُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَیْنَ قُلُوبِکُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَکُنْتُمْ عَلَی شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَکُمْ مِنْهَا کَذَلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمْ آیَاتِهِ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ* وَلْتَکُنْ مِنْکُمْ أُمَّةٌ یَدْعُونَ إِلَی الْخَیْرِ وَیَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَیَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْکَرِ وَأُوْلَئِکَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ* وَلَا تَکُونُوا کَالَّذِینَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَیِّنَاتُ وَأُوْلَئِکَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِیمٌ* (۱)

.

انظروا یا أهل التلبیة أنّ هذه الشعیرة التی تدافعتم إلی أدائها رجالًا وعلی کلّ ضامرٍ من کلّ فجٍّ عمیق، فی وحدة ناطقة، لها منهج ... صحیح أنکم أحرمتم فی المیقات ... استوی الأثریاء والفقراء، حین تجرّد الجمیع من الثیاب والریاش ...

وحین ارتدی الجمیع هذا الزیّ الموحّد ... المتواضع ... زالت کلّ الفوارق ... إنّها وحدة نادرة ناطقة بأروع بیان ... ولکن الأمر أعمق من وحدة شکلیة ... الوحدة الشکلیة الخالیة من المنهج هی التی تجمعنا الآن ... هذا هو الواقع ... إنّها الحقیقة الألیمة ... کیف لا نتأمّل ... کیف لا نستشعر التکلیف الحقیقی من وراء هذه الوحدة ...

الوحدة أصبحت استراتیجیة العالم المعاصر ... عند تحقّق وحدتنا بالمنهج الإسلامی، نکون أقوی وأوثق، وتکون الجماعة الإسلامیة صاحبة القیادة والریادة للبشریة ... منهج وحدة الجماعة الإسلامیة، أن تعتصم الجماعة الإسلامیة أن تلتزم وجوباً بالایمان والتقوی یا أیّها الذین آمنوا اتّقوا اللّه حقّ تقاته ... ...

۱- ۱ آل‌عمران: ۱۰۱- ۱۰۵.

ص: ۲۷۳

منهج وحدة الجماعة الإسلامیة أن تستسلم وجوباً إلی اللّه وحده فلا تخضع ولا ترکع إلّااللّه ... ولا تستذل ولا تستعبد لمخلوق ... ولا تموتنّ إلّاوأنتم مسلمون ...

ألیست هذه الآیات الکریمة هی ذات آیات فریضة الحجّ ...؟ إننا فقط نعید قراءتها بتأمّل ... ونضیف فی معرض التأمّل فی ذات الآیات ... إن منهج وحدة الجماعة الإسلامیة أن تتحرّر وجوباً ... تحرّر قرارها ... لا ترهن مصیرها وقرارها لأهل الشرّ وأهل الشرک- ولو کانوا من أهل الکتاب- أو کانوا من دونهم، ... اولئک لا یعرفون القسط والعدل فی حقّ امّتنا ... ولا یریدون لها أن تبلغ حقّها وغایاتها ...

یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِکُمْ لَایَأْلُونَکُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِی صُدُورُهُمْ أَکْبَرُ قَدْ بَیَّنَّا لَکُمْ الْآیَاتِ إِنْ کُنْتُمْ تَعْقِلُونَ* هَا أَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا یُحِبُّونَکُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْکِتَابِ کُلِّهِ وَإِذَا لَقُوکُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَیْکُمْ الْأَنَامِلَ مِنْ الغَیْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَیْظِکُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* إِنْ تَمْسَسْکُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْکُمْ سَیِّئَةٌ یَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَایَضُرُّکُمْ کَیْدُهُمْ شَیْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا یَعْمَلُونَ مُحِیطٌ* (۱).

... یا تری کم من قلوب امّة الإسلام اتّخذت الیوم بطانة من دون المؤمنین؟ ...

رغم البغضاء التی تبدو من أفواههم ... وما تخفی صدورهم أکبر ... ها أنتم تحبّونهم ولا یحبّونکم ... ما أروع بیان القرآن وهدایته ... إن تمسسکم حسنة تسؤوهم ...!

تلک بعض تأمّلاتی فی آیات فرضیة الحجّ من سورة (آل عمران) ... فالحجّ رمز وحدة المسلمین .. وفی الإحرام تتجسّد الوحدة ... الکلّ یرتدی لوناً واحداً ..

غطاءً واحداً، وبنمط واحد ... الکلّ یردّد ذات الکلمات ... والکلّ فی موقف واحد فی عرفات ... الکلّ یفیض ... الکلّ یطوف حول البیت العتیق ... الکلّ یسعی ... وحدة فی المبتدإ ووحدة فی المنتهی ... وحدة فی التوجّه ... الإله واحد ... الدین واحد ...

۱- ۱ آل عمران: ۱۱۸- ۱۲۰.

ص: ۲۷۴

القبلـة واحدة ... البيت واحد ... الجماعة واحدة، والفرد عضو فى جسد جماعة موحّدة ... الوحدة رمزنا، والحجّ رمز وحدتنا ... غير أننا قد أضعنا المنهج .. ضللنا ..

لم يعـد الحـجّ سوى مكان إجتماع ... مؤتمر عام يجمع ذوى مشارب شتّى ... يجتمع المؤتمرون وقلوبهم شتّى، ويفترقون وقلوبهم شتّى ... يجتمعون فى ذات الميقـات والمكـان، وبين قلوبهم بعـد المشـرقين ... ويتفرّقون بـذات مـا حملتها الصـدور من إحن .. بـذات روح العـداء .. مفرّقون ممزّقون .. إنّها الفريضة الحاضـرة الغائبة .. امّتنا واجهها التأمّل والعمل الفورى بكلّ أمر وجوبى ذكرناه آنفاً بعبارات- وجوباً ..

وجوبـاً .. وجوبـاً .. والأمـل فى إنقاذ الواجبات قريب بإذن اللّه .. على الافق تلوح تباشـير الإنقاذ بعـد أن كنّا على شـفا حفرة من النار .. وكنتم على شـفا حفرة من النار فأنقذكم منها ... تتنزّل رحمة الإنقاذ بالتوجّه والعمل الخالصين .. وكما تنزلت قبل، تكون اخرى- بإذن اللّه- فإنّ مع العسـر يسراً ... إنّ مع العسر يسراً ... وتعود امّتنا إلى الوحدة على منهج القرآن .. وتتآلف قلوبنا بعد طول البغضاء والشحناء ..

وتعتصم امّتنا بحبل اللّه جميعاً من جديـد، ولا نعود بعـدها إلى التفرّق والتمزّق أبـداً بإذن اللّه، فقد رأينا بأعيننا مدى بغض أعدائنا لنا .. فى الأنـدلس .. فى البلقـان .. فى الهنـد .. فى روسـيا .. فى الغرب كلّه .. فى الشـرق .. فى فلسـطين وفى البوسـنة والهرسـك وما تخفى صدورهم أكبر ...

الحجّ إسلام وتسليم

قلنا قبل: إنّ من آيات فريضة الحجّ قوله تعالى: ولا تموتنّ إلّاوأنتم مسلمون .. إنّها دعوة إلى الإسلام المقرون بالتقوى ..

أيّها الحجّاج:

الآن .. فوراً .. يجب أن نرقى إلى درجة الإسلام، فلا تموتنّ إلّاوأنتم مسلمون ..

فقـد تمـوت اللحظـة .. المـوت غيب ومـا تـدرى نفس بـأى أرض تموت ... ولاـ تـدرى نفس فى أى وقت تموت ... ويجب أن يكون إسلامنا شاملًا .. استسلامنا للّه

ص: ۲۷۵

الخالق وحده .. بالطاعة الکاملة واتباع المنهج .. والاحتکام إلی اللَّه فلا وربّک لا یؤمنون حتّی یحکموک فیما شجر بینهم ثم لا یجدوا فی أنفسهم حرجاً ممّا قضیت ویسلّموا تسلیماً (۱).

... ولنطمئن أننا قد عرجنا فی مدارج الاستسلام للَّه، نراجع ذواتنا ونحن فی الطواف حول البیت العتیق .. وفی السعی بین الصفا والمروة .. وفی رمی الجمرات ..

وقبل ذلک کلّه فی الوقوف بعرفة .. کلّها ترمز إلی الاستسلام والتسلیم .. الطاعة للَّه والخضوع له .. هذه الشعائر من ذا الذی یحیط بشیء من حکمتها .. سوی اللَّه الخالق .. العلیم الخبیر .. ما علینا إلّاالتردید بإخلاص وصدق (لبّیک اللهمّ لبّیک) ..

وهذا هو التسلیم الخالص للَّهسبحانه وتعالی.

ولقد وهنت عری التسلیم الواعی فی الأنفس .. کثیرون لا خلوص لهم فی التسلیم والاستسلام للَّه. ینادون (لبّیک اللهم لبّیک) ولا تکاد الکلمات تنفذ إلی دواخلهم، لتزلزل کلّ علائق الشرک أو الهوی. المطلوب هو التوجّه الخالص إلی ربّ الخلائق .. إنّه وحده المعبود المحبوب المطاع .. بعض الملبّین یشرکون المال أو السلطان .. بعضهم یشرکون فی الحبّ .. حبّ الذات أو المال أو الولد .. أو خلاف ذلک .. لا تسلیم ولا إسلام لُاولئک الذین یشرکون .. إفراد الخضوع للَّهوالخلوص فی التوجّه إلی الخالق المعبود هو ما یجب استحضاره مع کلّ تلبیة .. وفی کلّ حین .. فلا خضوع لغیر الخالق المعبود .. ذلک هو المقام الذی یجعل من الإنسان مخلوقاً ربّانیاً ..

یدعو فیستجاب له .. یجاهد فی سبیل اللَّه فیهدیه اللَّه إلی سبیله .. سبل النصر والعزّة والتوکّل والرقی فی مدارج الکمال .. والذین جاهدوا فینا لنهدینّهم سُبلنا (۲)

... إنه الإنسان المستسلم إلی اللَّه- المتوکّل علیه- توکلًا إبراهیمیاً .. أبو الأنبیاء سلَّم أمره للَّهوهو یُلقی فی النار .. فأرادوا به کیداً فجعلناهم الأسفلین (۳)

.. وبعد طول سؤال ودعاء رزقه اللَّه سیّدنا إسماعیل .. ربِّ هب لی من الصالحین* فبشّرناه بغلامٍ حلیم (۴).

۱- ۱ النساء: ۶۵.

۲- ۲ العنکبوت: ۶۹.

۳- ۳ الصافات: ۹۸.

۴- ۴ الصافات: ۱۰۰- ۱۰۱.

ص: ۲۷۶

... وجاء الاختبار الثانی: فلمّا بلغ معه السعی قال یا بنی إنّی أری فی المنام أنی أذبحک فانظر ماذا تری قال یا أبت افعل ما تؤمر ستجدنی إن شاء اللَّه من الصابرین (۱)

... وضرب سیّدنا إبراهیم المثل فی غایة الخضوع للّه والاستسلام له .. ذهب لیذبح ابنه ... وتأهب ثم بدأ یشرع، خاضعاً للَّه فلمّا أسلما وتلّه للجبین* ونادیناه أن یا إبراهیم قد صدّقت الرؤیا إنّا کذلک نجزی المحسنین (۲)

... ومن قبل تمثّل التوکّل الإبراهیمی فی الاستسلام للَّهبترک هاجر وطفلها إسماعیل علیه السلام عند مقام البیت الحرام، حیث کان المکان صحراء جدباء، وقفل راجعاً وهو یستهل لربّه قائلًا- کما فی سورة إبراهیم- ربّنا إنّی أسکنت من ذرّیتی بوادٍ غیر ذی زرع عند بیتک المحرّم ربّنا لیقیموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوی إلیهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم یشکرون (۳)

... تلک بعض صور الخضوع الخالدة .. یرمز إلیها الحج، فی التلبیة وفی کلّ الشعائر .. وبإخلاص التوجّه للَّهوالاستسلام له یرقی المسلم فی مدارج الإسلام والإیمان .. وحین تبلغ الجماعة المسلمة وأفرادها، هذه المقامات، تسعد البشریة جمعاء .. هذه البشریة التی جمعت من النعم المادیة، وحقّقت فی عالم المادة ما لم یتحقّق من قبل، تعانی من فشل ذریع فی جبهه السلام والأمن والطمأنینة والوشائج الإنسانیة .. فأصبحت علی شفا جرف هار تنهار بها فی نار جهنّم .. غیر أن اللَّه لطیف بعباده رحیم .. أرحم من أن یدع البشریة تعانی ویلات طغیان المادیة .. وغداً بإذن اللَّه یجیء الإنقاذ، فیشرق فجر الإسلام من جدید، ویملأ الکون نوراً .. ویسود السلام وتعمّ المحبّة .. ویأتی نظام عالمی جدید، قوامه العدل والحریة والمساواة بین کلّ بنی آدم.

الإنقاذ وشرطه

نعم غداً بإذن اللَّه یجیء الإنقاذ .. هذه الامّة الموحّدة شکلًا .. باجتماعها خلال هذه المناسک، تعود إلیها وحدتها الفعلیة- الإسلامیة- فتصبح جماعة واحدة، معتصمة بحبل اللّه، قائمة بدورها الرسالی، عند تحقیق رکیزتین .. علی نحو ما (فی

۱- ۱ الصافات: ۱۰۲.

۲- ۲ الصافات: ۱۰۳- ۱۰۵.

۳- ۳ إبراهیم: ۳۷.

ص: ۲۷۷

ظلال القرآن) فی بیان آیات فرضیة الحج .. أولی هاتین الرکیزتین هی رکیزة الإیمان والتقوی. التقوی التی تبلغ أن توفی بحق اللّه الجلیل .. التقوی الدائمة الیقظة، التی لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر، حتی یبلغ الکتاب أجله .. یا أیّها الذین آمنوا اتقوا اللّه حقّ تقاته ... اتقوا اللّه کما یحقّ له أن یُتّقی ولا ـ تموتنّ إلّاوأنتم مسلمون .. أما الرکیزة الثانیة فهی رکیزة الاخوّة فی اللّه .. علی منهج اللّه .. لتحقیق منهج اللّه .. واعتصموا بحبل اللّه جمیعاً ولا تفرّقوا* واذکروا نعمة اللّه علیکم إذ کنتم أعداءً فألّف بین قلوبکم فأصبحتم بنعمته إخواناً ... .. إنّها الإـخوّة النابعة من التقوی والإسلام .. من بین ثنایا الرکیزة الاولی .. إنّه تجمّع المؤمنین الـذین تخفق قلوبهم بالتقوی .. وتتوثّق الأواصر بینهم بالاخوّة فی اللّه .. لا یکونون محض جماعة متآلفة فی الظاهر، وإنّما جماعة متآلفة القلوب .. فألّف بین قلوبکم .. إنّه التآلف المفقود فی تجمّعات عالم الیوم .. إنّه السبیل الأوحد لتوثیق الوشائج الإنسانیة بین بنی البشر أجمعین. والامّة الوحیدة المرشّحة لأداء هذه الرسالة، هی الامّة الإسلامیة .. کنتم خیر امّة اخرجت للناس ..

یقول الشهید سیّد قطب فی معرض بیان معانی هذه الآیة (فی ظلال القرآن):

«هذا ما ینبغی أن تدرکه الامّة المسلمة؛ لتعرف حقیقتها وقیمتها، وتعرف أنها اخرجت لتکون طلیعة، ولتکون لها القیادة .. بما أنها هی خیر امّة. واللّه یرید أن تکون القیادة للخیر لا ـ للشرّ فی هذه الأرض، ومن ثمَّ لا ینبغی لها أن تتلقّی من غیرها من امم الجاهلیة، إنّما ینبغی دائماً أن تعطی هذه الامم ممّا لدیها، وأن یکون لدیها دائماً ما تعطیه .. ما تعطیه من الاعتقاد الصحیح، والتصوّر الصحیح، والنظام الصحیح، والخلق الصحیح، والمعرفة الصحیحة، والعلم الصحیح.. هذا واجبها الذی یحتّمه علیها مکانها، وتحتمه علیها غایة وجودها. واجبها أن تکون فی الطلیعة دائماً .. فی مرکز القیادة دائماً .. ولهذا المرکز تبعاته، فهو لا یؤخذ ادعاءً، ولا یسلم لها به إلّاأن تکون هی أهلًا له .. وفی أوّل مقتضیات هذا المکان، أن تقوم

ص: ۲۷۸

(الامّـة) علی صـیانة الحیـاة من الشـرّ والفسـاد، وأن تکون لهـا القوّة التی تمکّنها من الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر .. فهی خیر امة اخرجت للناس، لا عن مجاملـة أو محاباة، ولا عن مصادفـة أو جزاف- تعالی اللَّه عن ذلک کلّه علوّاً کبیراً- ... إنّما تبوّأت امّة الإسـلام هـذا المقام بالعمل الإیجابی لحفظ الحیاة البشـریة من المنکر، وإقامتها المعروف، مع الایمان الذی یحدِّد المعروف والمنکر .. فی هذه الآیة وصف اللَّه سـبحانه وتعالی امّة الإسلام بأن صفتها الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر .. إنّ الامة الإسلامیة لا توجد وجوداً حقیقیاً إلّاأن تتوافر فیها هذه السمة الأساسیة، التی تعرف بها فی المجتمع الإنسانی .. فإمّا أن تقوم بالدعوة إلی الخیر، والأمر بالمعروف والنهی عن المنکر- مع الایمـان باللَّه- فهی موجودة وهی مسـلمة. وإمّا أن لا تقوم بشـیء من هـذا فهی غیر موجودة، وغیر متحقّقـة فیها صـفة الإسـلام» ... قال رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله: «والـذی نفسـی بیده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنکر، أو لیوشـکن اللَّه أن یبعث علیکم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا یستجیب لکم».

تلـک بعض الرؤی .. فی مناسـک الحـج وآیـات فریضـتها .. بعض واقـع المسـلمین، ومـا یجب أن یکـون حـالهم علیه .. فلنبـدأ العمل الإیجابی بإنفاذ الواجب الذی یکون به الإنقاذ والفجر الجدید .. ونردّد بصدق النیّة ونقاء الطویة: «لبیک اللهمّ لبیک» «لبیک لا شریک لک لبیک» «إنّ الحمد والنعمة لک والملک» «لا شریک لک».

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا و يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لَم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، علی أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فی آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة"
تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)
رقم التسجیل: ۲۳۷۳
الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶
الموقع: www.ghaemiyeh.com
البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com
المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com
الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)
الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)
مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)
التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹
امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.